

د. عبد الفتاح كرمه

د. عبد الفتاح كرمه
د. عبد الفتاح كرمه
د. عبد الفتاح كرمه



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع البلاغة والنقد



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٠٢٣٨٥

نصوص الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم من وجهة بلاغية

بحث مقدم للحصول على درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد



إعداد الطالب

يوسف عبدالله الأنصاري

٢٢٨٥

إشراف الأستاذ الدكتور

عبدالعظيم إبراهيم المطحني

٠٠٠٠٥٠

عام ١٤١٣ هـ



اسم الطالب : يوسف عبدالله الأنصاري

التخصص : البلاغة والنقد

الدرجة : الدكتوراه

ملخص الرسالة

عنوان الرسالة : « نصوص الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم من وجهة بلاغية »

اشتمل البحث على مقدمة وستة فصول وخاتمة وثبت بالمصادر والمراجع .

وفي المقدمة أشار الباحث إلى أن بلاغة القرآن لا تزال في حاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن أساليبه البليغة وبيانه المعجز ، ثم تحدث عن الأسباب التي دفعته إلى إختيار هذا الموضوع المبارك .

ثم تناول الباحث في فصول الدراسة نصوص الترغيب والترهيب في القرآن بالدراسة مبيناً ما حوته من روائع البلاغة وأسرار البيان في نظم القرآن ، ففي **الفصل الأول** تحدث عن نصوص الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر ، و**الفصل الثاني** تناول فيه نصوص الترغيب في الاعتصام والترهيب من التفرق واتباع السبل ، أما **الفصل الثالث** فكان لنصوص الترغيب في الجهاد في سبيل الله والترهيب من التثاقل عنه ، وفي **الفصل الرابع** عرض فيه لنصوص الترغيب في الإنفاق في سبيل الله والترهيب من البخل ، وفي **الفصل الخامس** تحدث عن نصوص الترغيب في الآخرة والترهيب من الركون إلى الدنيا والافتتان بها ، أما **الفصل السادس** فقد أدار فيه الحديث حول نصوص الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي .

ثم **الخاتمة** : تناول فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث منها :

- ١ - تبين من الدراسة أن أسلوب الترغيب في القرآن الكريم يمتاز بالهدوء والرقّة والسلاسة أما أسلوب الترهيب فيمتاز بالعنف والقوة والحسم السريع .
- ٢ - يحرص القرآن الكريم كثيراً على الجمع بين الترغيب والترهيب فإذا بدأ مرغباً انتهى مرهباً وإذا بدأ مرهباً انتهى مرغباً ، وقد يجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة وإن قصرت .

- ٣ - اتخذ القرآن الكريم وسائل عديدة للترغيب والترهيب كالخبر والإنشاء والقصر والتشبيه والحوار وغيرها .

عميد الكلية

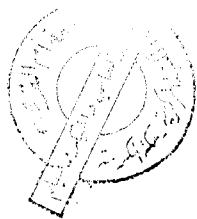
المشرف

الطالب

د. محمد بن عبد الله الحارثي

د. عبد الله بن عبد الرحمن الحارثي

يوسف عبدالله الأنصاري



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمه البحث

الحمد لله الذي أنزل القرآن هدى ورحمة للعالمين ، والصلاة والسلام على من أرسله الله للناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الحق بإذنه وسراجاً منيراً ، أفصح العرب لساناً واحسنهم بياناً ﷺ وعلى آله وصحبه الطيبين ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فبلاغة القرآن لا تزال فى حاجة إلى جهود العلماء والباحثين للكشف عن أساليبه البليغة وبيانه المعجز الفريد .

وقد يسر الله لي في مرحلة الماجستير التى أفدت منها فوائد عظيمة أن أرتبط بالقرآن الكريم فكان ذلك دافعاً قوياً على مواصلة السير في الدراسات القرآنية البلاغية .

وقد هداني الله بعد إدامة النظر في كتاب الله الكريم أن أختار هذا الموضوع المبارك من بين عدة موضوعات وهو « نصوص الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم من وجهة بلاغية » .

وهناك أسباب عديدة دفعتنى إلى اختيار هذا الموضوع لعل من أهمها :

١ - أن الترغيب والترهيب يشغلان مساحات واسعة من عناية القرآن وسوره وآياته .

٢ - لأنهما بمثابة قطب الدائرة في الدعوة إلى الله وإلى طريقه المستقيم .

٣ - ولأن لها صلة مباشرة بالنفس الإنسانية من خلال ماركب فيها من غريزة الخوف وغريزة الرجاء ، وقد استطاع القرآن أن يصل إلى منافذ التأثير في

النفس البشرية ، فتاره يعمد إلى أسلوب الترغيب وتاره أخرى إلى أسلوب
الترهيب لتحقيق أهدافه النبيلة .

٤ - ولأن القرآن الكريم حين يرغب في الخير والحق يضيف عليهما سمات
أصيلة من سمات الجذب تجعل الرغبة فيهما شديدة والإقبال عليهما
صادقاً ، وحين يرهب من الشر والباطل يضيف عليهما صوراً كالحالة
مقبضة ، وبعض الشر وإن كان حلو المذاق في العاجل فهو مر المذاق في
الآجل .

ولأن الترغيب والترهيب أكبر أداتين تتصلان بالتأثر والتأثير في مجال تثبيت
المواقف في العقيدة والرأى وتغييرها ، وهذا المجال له صدى واسع في دنيا
النظم والناس الآن ، وفي كل عصر . !

٦ - ولأن القرآن الكريم خاطب عن طريق الترغيب والترهيب كل القوى المدركة في
الإنسان : العقول والعواطف والمشاعر .

يتفرق أحيانا ويعنف أحيانا أخرى ، يصرح ويوميء ، يطيل ويوجز في أسلوب
مؤثر بليغ .

٧ - كما أنه يوظف النص الترغيبي والترهيبي توظيفاً دقيقاً بليغاً أسراً مؤثراً حيث
يخاطب كل الحواس : البصر عن طريق الرؤية واللون والحركة ، والسمع
واللمس والشم بما يدخل في دائرة كل حاسة منها وقد يجمع في لفظ واحد بين
مدركات حاستين معاً على نحو ما سنوضحه في صفحات البحث . ويشتمل
البحث بعد هذه المقدمة على ستة فصول : الفصل الأول : الترغيب في الإيمان
والترهيب من الكفر ويحتوى هذا الفصل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الترغيب في الإيمان في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثاني : الترهيب من الكفر في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثالث : بين الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر .

الفصل الثاني : الترغيب في الاعتصام والترهيب من التفرق واتباع السبل .
وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : الترغيب في الاعتصام بالله في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثاني : الترهيب من التفرق واتباع السبل في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

الفصل الثالث : الترغيب في الجهاد في سبيل الله والترهيب من التثاقل عنه ويحتوى هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : الترغيب في الجهاد في سبيل الله في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثاني : الترهيب من التثاقل عن الجهاد في سبيل الله في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

الفصل الرابع : الترغيب في الإنفاق في سبيل الله والترهيب من البخل وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : الترغيب في الإنفاق في سبيل الله في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثاني : الترهيب من البخل في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

الفصل الخامس : الترغيب في الآخرة والترهيب من الركون إلى الدنيا والافتتان بها .

ويشتمل هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : الترغيب في الآخرة في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثاني : الترهيب من الركون إلى الدنيا والافتتان بها في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

الفصل السادس : الترغيب في الطاعات والترهيب من المعاصي .

ويحتوى هذا الفصل على مبحثين :

المبحث الأول : الترغيب في الطاعات في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

المبحث الثانى : الترهيب من المعاصي في القرآن الحكيم وسماته البلاغية .

ثم الخاتمه : وفيها أبرز النتائج التى توصل إليها البحث .

وقد قامت الدراسة على اختيار بعض النماذج ودراستها دراسة تحليلية

بلاغية وافية .

وبعد : فأرجو أن يكون عملي خالصاً لوجه الله تعالى محققاً للنية الخالصة

التي انبثق عنها في خدمة كتاب الله الكريم .

فأسأل الله التوفيق وأن يعصمنا من الزلل بفضله ورحمته .

وفي هذا المقام أضرع إلى الله تعالى أن يجزى عني والدي الكريمين خير

الجزاء وأن يجزل لهما المثوبة فقد ربياني على حب القرآن ، كما أسأله أن يمن

بالشفاء العاجل على والدتي وعلى جميع مرضى المسلمين .

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى جامعة أم القرى ممثلة في كلية اللغة العربية

وقسم الدراسات العليا بها ، فجزاهم الله كل خير على ما قدموا للعلم وطلابه . كما

أتقدم بوافر الشكر وأجزله إلى أستاذي الدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني الذي

أشرف على هذه الرسالة وتعهدها بالرعاية حتى خرجت على هذه الصورة ، ففتح لى

قلبه وداره وغمرني بفضله وكرمه ولم يبخل عليّ بأرائه النيرة وتوجيهاته السديدة ،

فالله أسأل أن يجزيه عني خير الجزاء وأن يبارك في عمره وعلمه وماله وولده ، وأن

يجعل ذلك في موازين حسناته إنه تعالى جواد كريم وبالإجابة جدير .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذين الكريمين عضوي لجنة المناقشة

على تفضلهما بقبول مناقشة هذا البحث وتقويمه .

كما أزجي الشكر خالصاً إلى أساتذتي في كلية اللغة العربية وزملائي وكل

من مدّ لي يد العون والمساعدة ، والشكر لله أولاً وأخيراً والحمد لله رب العالمين وَعَلَيْهِ

وبارك على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفصل الأول
الترغيب في الإيمان
والترهيب من الكفر

المبحث الأول
الترغيب في الإيمان
في القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر له في القرآن الكريم منزلة فريدة ، فهو أعظم نعمة في الوجود ، وقد جاءت جميع الرسالات السماوية من لدن نوح عليه السلام وانتهاءً بمحمد ﷺ تدعو إلى الإيمان وترغب فيه .

والمؤمنون بالله هم أولياء إليه وأصفيائه من خلقه ، ونداؤهم في القرآن « يا أيها الذين آمنوا » أكثر النداءات القرآنية على الإطلاق ، فإذا ناداهم العلي القدير بهذا النداء أعقبه أمراً بحق أو خير ، أو نهياً عن باطل وشر ، لذلك وضع القرآن الكريم الترغيب موضع الصدارة وضممه الكثير من المحاسن واللطائف التي تشد نوي الفطر السليمة إلى الإيمان شداً ومن تلك اللطائف أن الإيمان مع العمل الصالح السبيل الموصل إلى سعادة الدارين .

وحديث القرآن جاء وافياً بهذه الأغراض النبيلة ، يحبب الإيمان إلى المدعوين ويزينه في قلوبهم ويزيل لكل الموانع الصادة عنه ، ويبرز آثاره الطيبة في الدنيا والآخرة ففي الدنيا للمؤمنين العزة والنصر والتأييد والتمكين والاستخلاف في الأرض ، وفي الآخرة الرضوان والنعيم المقيم في جنات عدن خالدين فيها ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكثيراً ما قرن القرآن الحديث عن الإيمان بالعمل الصالح ولا غرابة في ذلك فالإيمان هو أس الفضائل ، والعمل الصالح هو ثمرة الإيمان الصادق .

وقد تنوعت طرائق التعبير في القرآن للترغيب في الإيمان ، حيث
تحدث عن المؤمنين وذكر صفاتهم التي بها - وفضل الله سابق - استحقوا
الهداية والفلاح في الدنيا ، وجنة الخلد في الآخرة .

وفي عرض القرآن لجزاءات المؤمنين في الجنة من أطعمة وشراب
وملابس وغيرها من الملذات ترغيب في الإيمان وهذا ما سنراه بوضوح في
صفحات هذا المبحث الذي نعرض فيه بعض النماذج الترغيبية أدت فيها
البلاغة القرآنية رسالتها في أسلوب معجز بليغ فيه للعقول إقناع وللعواطف
إمتاع وللقلوب الطاهرة حياة وأي حياة .

قال تعالى : ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات الكريمات يبين الله حقيقة كتابه الكريم - القرآن العظيم - وبعد منزلته في الهداية والتقوى نافياً عنه الشك أو الريب فيه ، مؤكداً أنه هدى للمتقين ، ثم يمضي السياق مرغباً في الإيمان مبيناً صفات المتقين التي من أجلها استحقوا هذا الثناء وهي الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإنفاق المال والإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وعلى من قبله من المرسلين والإيمان باليوم الآخر ، ثم تختتم الآيات مقررّة هداية المتقين وفوزهم بالفلاح بقوله « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

لا حاجة لنا أن نتوقف طويلاً عند الحروف المقطعة في أوائل السور لأن العلماء قديماً وحديثاً قد ناقشوا هذه القضية وأفاضوا في الحديث عنها بما لا مزيد عليه ، وكانت لهم حولها آراء وأقوال عديدة فلتراجع في مظانها . <٢>

و « ألم » إما أن تكون جملة مستقلة بحذف أحد جزأها إما المبتدأ أو الخبر إذا جعلت جملة إسمية والتقدير : ألم هذا ، أو هذا ألم ، ويصح جعلها فعلية على أن يكون التقدير : أقسم بألم فيكون الجار محذوفاً ، أو اذكر ألم فيكون

١ - البقرة : ١ - ٥ .

٢ - راجع إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق السيد أحمد صقر ، ص ٤٤ وما بعدها : الكشف ، ٩٣/١ وما بعدها : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ٣٢٤/٣ وما بعدها : التحرير والتنوير ، ٢٠٦/١ - ٢١٨ : الإعجاز البياني للدكتورة عائشة عبدالرحمن ، ص ١٤٠ وما بعدها .

منصوباً ، وتكون جملة « ذلك الكتاب » جملة مستقلة وكذلك جملة « لا ريب فيه » جملة مستقلة أيضاً ، وإما أن تكون « ألم » مبتدأ و « ذلك » خبرها و « الكتاب » بدلاً من ذلك وإما أن يكون خبرها « لا ريب فيه » وجملة « ذلك الكتاب » اعتراضية <١> ، بيد أنني أرى أن هذه الجمل جميعها جمل مستقلة قائمة بذاتها ، وهذا ما ذهب إليه الزمخشري . <٢>

ومن روائع التعبير القرآني في هذا النظم التعبير باسم الإشارة البعيد « ذلك » للدلالة على تمييز الكتاب أكمل تمييز وما فيه من معنى البعد للدلالة على عظمة المشار إليه وعلو درجته تنزيلاً لبعد المكانة منزلة بعد المكان . وتعريف « الكتاب » بآل للعهد الذهني والمراد به القرآن الكريم .

وتعريف الخبر « الكتاب » بالألف واللام يقتضي الحصر لأن تعريف الطرفين - كما هو مقرر لدى البلاغيين يفيد الحصر كأنه قيل هذا الكتاب هو الكامل لا غيره أي هو الكامل الذي يستأهل أن يسمى كتاباً حتى كأن ما عداه ليس بكامل بالنسبة إلى كماله أو ليس بكتاب ولو كان ذلك الغير كتاباً كاملاً في نفسه . <٣>

وقد فصلت جملة « لا ريب فيه » عن الجملة السابقة « ذلك الكتاب » لأنها نُزِلت منزلة التأكيد المعنوي مما قبلها لأن جملة « ذلك الكتاب » معناها أي ذلك الكتاب الذي بلغ الدرجة القصوى في الكمال ، ومعنى جملة « لا ريب فيه » أي لا يتطرق إليه شك أو ريب ، فالمعنيان - كما ترى - في هاتين الجملتين مختلفان لكنهما متلازمان ، لأنه يلزم من بلوغ القرآن درجة الكمال ألا يكون محلاً للريب لذلك جاءت جملة « لا ريب » مقررة لهذا المعنى دافعة لتوهم السامع التجوز في الجملة الأولى إذ يظن أن وصف القرآن بهذا الوصف قد بولغ فيه ، وحيث أن جملة « لا ريب فيه » دفعت توهم التجوز مؤكدة انتفاء الريب عن القرآن أشبهت

١ - انظر مختصر السعد ومواهب الفتح وعروس الأفراح ؛ حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ، ٣٢/٣ .

٢ - انظر الكشاف ، ١٢١/١ .

٣ - انظر شروح التلخيص ، ٣٢/٣ وما بعدها .

التوكيد المعنوي في مثل قولك « جاء زيد نفسه » ولهذا فلا حاجة إلى عطف الجملتين بالواو لأن بينهما كمال الاتصال ، وواضح أن بلاغة هذا التعبير تكمن في تأكيد المعنى المراد في ذهن السامع واقتلاع جذور الشك من نفسه في مضمون الجملتين . <١>

والريب : مصدر رابني أي أن تتوهم بالشيء أمراً ما فينكشف عما تتوهمه ، وحقيقة الريب أو الريبة : قلق النفس واضطرابها ، ثم استعمل في الشك . <٢>

ولا نافية للجنس مفيدة للاستغراق واسمها « لا ريب » مبني على الفتح ، وخبرها إما محذوف وتقديره : موجود أو مستقر ، والظرف « فيه » صفة لا سمها ، وإما أن يكون خبرها هو الظرف « فيه » . <٣>

ومعنى نفي الريب عن الكتاب أي أنه في علو الشأن ووضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لأحد أن يرتاب في حقيقته وكونه وحياً من عند الله تعالى لا أنه لا يرتاب فيه أحد أصلاً . <٤>

وأشار الزمخشري * إلى السر البلاغي في تقديم « لا ريب » على الظرف « فيه » بقوله « فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب كما قدم على الغول في قوله

١ - راجع السابق ، ٣٣/٣ - ٣٤ : من بلاغة النظم العربي للدكتور عبدالعزيز عرفة . ١٨٤/٢ .

٢ - انظر معجم مقاييس اللغة ٤٦٣/٢ وما بعدها : الصحاح ، ١٤١/١ : مادة « ريب » : راجع المفردات ، ص ٢٠٥ : الكشاف ، ١١٢/١ وما بعدها .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٢/١ .

٤ - انظر الكشاف ، ١٤١/١ : تفسير أبي السعود ، ٤٢/١ .

* هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ولد في رجب سنة ٤٦٧هـ وتوفي في يوم عرفة سنة ٥٣٨هـ كان واسع العلم غاية في الذكاء وجودة القريحة متفنناً في علوم كثيرة كالتفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان ، كان إمام عصره من غير مدافع ، تشد إليه الرحال ، من مصنفاته : الكشاف ، والفائق في غريب الحديث ، والمفصل في النحو ، والمستقصى في الأمثال وغيرها انظر =

تعالى « لا فيها غَوْلٌ » ^{<١>} قلت : لأن القصد في إيلاء حرف النفي ، نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعون ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد وهو أن كتاباً آخر فيه الريب لا فيه ، كما قصد في قوله « لا فيها غول » تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي ، كأنه قيل : ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والنقيصة . ^{<٢>}

وتأمل روعة التعبير القرآني في قوله « هدى للمتقين » وما فيه من محاسن البلاغة ولطائف الصور البيانية ، منها تنكير « هدى » للدلالة على التعظيم والتفخيم لشأن الكتاب بأنه بلغ الغاية في الهداية درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة ولذلك لم يقل « هاد » وإنما قال « هدى » فوضع المصدر موضع الوصف المشتق مع ما فيه من الدلالة على الحدث دون التقييد بزمن للإشارة إلى ديمومته واستمراره في كونه هادياً للناس في كل زمان ومكان ، وللدلالة على أن القرآن بلغ النهاية في الهداية حتى كأنه صار نفس الهدى . ^{<٣>}

وفي التعبير بقوله « هدى للمتقين » حذف المسند إليه تقديره : هو - أي الكتاب - هدى للمتقين للإيجاز والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر ولتأكيد أن القرآن هو نفس الهدى .

وفي قوله « للمتقين » مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون أي هدى للضالين الذين سيصيرون متقين ، وأثر النظم هذا التعبير ولم يقل « هدى للضالين » لأن الضالين فريقان : فريق علم بقاؤهم على الضلالة وهم المطبوع على

= ترجمته في : إنباه الرواه ، ٢٦٥/٢ - ٢٧٢ : بغية الوعاة ، ٢٧٩/٢ وما بعدها ؛ وفيات الأعيان ، ١٦٨/٥ - ١٧٣ : الأعلام ، ١٧٨/٧ ؛ معجم المؤلفين ، ١٨٦/١٢ ؛ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ٢١٥/٥ وما بعدها .

١ - الصافات : ٤٧ .

٢ - الكشاف ، ١١٤/١ .

٣ - انظر شروح التلخيص ، ٣٦/١ وما بعدها .



قلوبهم ، وفريق علم أن مصيرهم إلى الهدى فلا يكون هدى للفريق الباقيين على الضلالة ، فبقي أن يكون هدى لهؤلاء ، فلوجيء بالعبارة المفصحة عن ذلك لقليل هدى للصائرين إلى الهدى بعد الضلال ، فاختصر الكلام بأجرائه على الطريقة التي ذكرنا فقليل هدى للمتقين « <١> ، كما أنه لو قيل هدى للضالين لكان خبراً من الله تعالى يستلزم عليه أن يؤمن جميع البشر ويهدتوا بالقرآن ، وهذا مخالف للواقع الذي عليه الناس من وجود المؤمن والكافر ، وحتى لا يصطدم القرآن بالواقع لم يسلك هذا الطريق في التعبير <٢> ، فانظر إلى إحكام نظم القرآن وبلاغته التي أحرصت أرباب الفصاحة والبيان .

وفي قوله « للمتقين » إيجاز قصر لأن الوقاية اسم جامع لكل ما تجب الوقاية منه . <٣>

وقد فصلت هذه الجملة « هدى للمتقين » عن جملة « ذلك الكتاب » لأنها جاءت مؤكدة لها لأن جملة « هدى للمتقين » معناها أن القرآن الكريم بالغ في الهداية درجة لا يدرك كنهها وغايتها حتى كأنه هداية محضة ، ومعنى جملة « ذلك الكتاب » أن القرآن بلغ الدرجة القصوى من الكمال في الهداية <٤> ، فالمعنى في الجملتين متحد وإن اختلف اللفظ فيهما ولذلك وجب ترك العطف بينهما لأنه لا يجوز عطف الشيء على نفسه بلاغة ، فبين الجملتين كمال الاتصال لأن الجملة الثانية جاءت مؤكدة لمضمون الجملة السابقة .

وفي التثام هذه الجمل وترابطها وترتيبها على هذا النسق المحكم الدقيق أسرار لا تتناهى كشف عنها النقاب الزمخشري - وكان رحمه الله ذا حس مرهف - بقوله « والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً وأن

١ - الكشاف ، ١١٨/١ وما بعدها .

٢ - راجع المجاز اللغوي للدكتور عبده أحمد هليل ، ص ٥٥ .

٣ - انظر إعراب القرآن وبيانه ، ٢٥/١ .

٤ - انظر شروح التلخيص ، ٣٦/٣ وما بعدها ؛ من بلاغة النظم العربي ، ص ١٨٢ .

يقال : إن قوله « ألم » جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها . و « ذلك الكتاب » جملة ثانية و « لا ريب فيه » ثالثة و « هدى للمتقين » رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتتقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة ، بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدي وشدّاً من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً بكماله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة ، ... ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة ، ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألف وجه وأرشفه ، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف ، وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكرأً والإيجاز في ذكر المتقين زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه وتبيناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه » . <١>

ومعنى الغيب في قوله « يؤمنون بالغيب » هو كل ما وراء الحس « ما وراء الطبيعة » ويدخل فيه دخولاً أولاً الله جل شأنه وملائكته واليوم الآخر ، وكل السمعيات كالثواب والعقاب والجنة والنار ، فالغيب كما ترى من جوامع الكلم ففيه إيجاز قصر .

وآثر النظم التعبير بالغيب وهو مصدر عن « المغيبات » للمبالغة في وصفها بالخفاء حتى كأنها الغيب نفسه .

كما أن تخصيص الإيمان بالغيب بالذكر دون غيره من متعلقات الإيمان كالإيمان بالله ورسوله « لأن الإيمان بالغيب هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسل وللنظر فيما يبلغه عن الله تعالى فيسهل عليه إدراك الأدلة . <١>

والتعبير بصيغة المضارع « يؤمنون » للدلالة على أن إيمانهم بالغيب متجدد مستمر لا يطرأ عليه شك ولا ريبة ، وفيه أيضاً شمول الإيمان لمن جاء بعدهم .

والإيمان بمعنى التصديق يتعدى بنفسه فإذا عدي بالباء كان لتضمينه معنى الاعتراف والإقرار كما ذهب إلى ذلك جمع من أئمة التفسير كالزمخشري وأبي السعود* وغيرهما . <٢>

والقول بالتضمنين والوقوف عنده - كما ترى - فيه حيف على البيان القرآني لأنه لا يكشف عما تشيعه الحروف في النظم القرآني من معان وأسرار لا تنتهى . ولعل السر في تعدية الفعل « يؤمنون » بالباء لأن الباء بما تدل عليه من الملابس والمصاحبة والإصاق تومض بالإقرار بالغيب والعمل بمقتضاه فهم يؤمنون بالغيب ملتبسين فيه ، ويشعرون بالأمن والأمان في صحبته . <٣>

١ - التحرير والتنوير ، ٢٢٠/١ .

* هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي المعروف بأبي السعود ولد سنة ٨٩٨ وتوفي سنة ٩٨٢هـ ، فقيه وأصولي ومفسر من علماء الترك المستعربين ، كان عارفاً باللغات العربية والفارسية ولد بقرب القسطنطينية ثم تقلد فيما بعد القضاء فيها ، وبهامات ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، انظر ترجمته في الأعلام ، ٥٩/٧ ؛ معجم المؤلفين ، ٢٠١/١١ - ٢٠٢ .

٢ - انظر الكشاف ، ١٢٦/١ وما بعدها ؛ حاشية السيد على الكشاف ، ١٢٦/١ ؛ التفسير الكبير ، ٢٦/٢ ؛ البحر المحيط ، ٢٨/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٢١١/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٢/١ .

٣ - انظر من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للدكتور محمد الأمين الخصري ، ص ٢١٠ وما بعدها .

ويجوز أن يراد بالغيب القلب أي يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم فتكون الباء للآلة كما ذكر البيضاوي* ومن سار على نهجه من المفسرين <١> ، غير أن هذا الرأي بعيد لا يحتمله السياق .

أما جملة « الذين يؤمنون بالغيب » فيرى بعض المفسرين أنها مستأنفة إستئنافاً بيانياً <٢> وقعت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة السابقة كأنه قيل : هؤلاء المتقون الذين اختصوا بهداية الكتاب من هم وما هي صفاتهم ؟ فقيل : الذين يؤمنون بالغيب ... » فبين الجملتين شبه كمال الاتصال .

والقول بأنها مستأنفة ضعيف وبعيد يأباه السياق لأن سياق الكلام يدل دلالة قوية على أن قوله « الذين يؤمنون بالغيب » وما عطف عليه شرح وبيان لصفات المتقين فهو إما عطف بيان أو بدل منه .

وفي التعبير بقوله « يقيمون الصلاة » إستعارة تبعية حيث شبه تعديل أركان الصلاة وحفظها بتقويم العود وتسويته بإزالة إعوجاجه فهو قويم تشبيهاً له بالقائم ثم استعيرت الإقامة من تسوية الأجساد التي صارت حقيقة فيها لتسوية المعاني كتعديل أركان الصلاة على ما هو حقها لا من تحصيل هيئة القيام فيها مراعاة لزيادة المناسبة بين المعاني . <٣>

والعلاقة بين المشبه والمشبه به هي كمال الأداء في كل ، أما القرينة فحالية لأن الصلاة ليست كتلة مادية حتى يتأتى فيها الإقامة الحسية ، وهي إستعارة محسوس لمعقول لزيادة الاعتناء بشأته لأن الأمور المعقولة إذا صورت في صورة محسوسة تجسدت وبرزت للعيان .

* أبوسعيد عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ناصر الدين البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ قاض وعالم بالتفسير والفقه والعربية والحديث ، توفي في تبريز ، من مصنفاته : منهاج الوصول إلى علم الأصول ، شرح مصابيح السنة للبخاري المسمى بتحفة الأبرار انظر ترجمته في الأعلام ، ١١٠/٤ ؛ معجم المؤلفين ، ٩٧/٦ - ٩٨ .

١ - انظر تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، ٢١٧/١ وما بعدها ؛ روح المعاني ، ١١٥/١ .

٢ - راجع فتح القدير ، ٣٦/١ .

٣ - انظر الكشاف ؛ حاشية السيد عليه ، ١٢٩/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٢١٨/١ ؛ روح المعاني ، ١١٥/١ .

كما أن في التعبير بالمضارع « يقيمون » الدال على التجدد والحدوث إشارة إلى مواظبتهم على الصلاة ومداومتهم عليها .

والألف واللام في « الصلاة » للعهد الذهني أي الصلاة المعهودة المستقر وجوبها في الأذهان . وفي إسناد الرزق إلى ضمير الله تعالى في قوله « مما رزقناهم ينفقون » إشارة إلى أنهم ينفقون الحلال الطيب الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقاً منه <١> ، وللتنبية على أن هذا الرزق الذي امتن به الله على عباده هو حق خالص لهم خوّل الله إياهم تفضلاً وإنعاماً . <٢>

ودخول من على الموصول في قوله « مما » إما أن تكون بيانية أي إن مصدر إنفاقهم هو ما رزقناهم ، وإما أن تكون للتبعيض أي ينفقون بعض ما رزقناهم لأن المؤمن غير مطالب ببذل ماله كله ، ففي إدخال « من » التبعية كف لهم عن التبذير والإسراف المنهي عنه وإيماءً إلى كون الإنفاق المطلوب شرعاً هو إنفاق بعض المال لاكل المال . <٣>

وتقديم المفعول « مما » على عامله « ينفقون » لزيادة الاهتمام بالمقدم وللمحافظة على الفاصلة القرآنية ، وهذا التقديم مؤذن بأنهم ينفقون المال مع ماله من محبة ومعزة في النفس كما في قوله تعالى « ويطعمون الطعام على حبه » <٤> أي مع حبه .

وفي التعبير بقوله « ينفقون » إيجاز بالحذف حيث حذف المفعول به تقديره : ينفقون المال ، وسر الحذف ليشمل كل ما يبذل من مال وجاه .

١ - انظر الكشاف ، ١٣٢/١ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٣٥/١ .

٣ - انظر الكشاف ؛ حاشية السيد عليه ، ١٣٢/١ وتفسير أبي السعود ، ٥٥/١ ؛ التحرير والتنوير ، ٢٣٦/١ ؛ البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ١٥٩ ؛ بحث مخطوط مقدم للحصول على الدكتوراه بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

٤ - الإنسان : ٨ ؛ راجع تفسير أبي السعود ، ٥٥/١ ؛ التحرير والتنوير ، ٢٣٦/١ .

كما أن المضارع « ينفقون » مع إفادته للتجدد والحدوث دال على طيب معدنهم وسماحة خلقهم فهم ينفقون باستمرار عن طواعية وطيب نفس بلا إكراه أو قسر .

وقيل يجوز أن يراد بالإنفاق الزكاة المفروضة لاقتترانه بالصلاة ، ويجوز أن تراد هي وغيرها فيكون عاماً في الإنفاق في وجوه الخير وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة .

وقد عطفت الجملتان جملة « يقيمون الصلاة » وجملة « مما رزقناهم ينفقون » بالواو على جملة الصلة « يؤمنون بالغيب » لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الخبرية لفظاً ومعنى .

ويواصل البيان القرآني الترغيب في الإيمان ببيان صفات المتقين بقوله « والذين يؤمنون بما أنزل ... » ونلاحظ أن هذه الجملة جاءت معطوفة بالواو على جملة « الذين يؤمنون بالغيب » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الخبرية لفظاً ومعنى .

وفي قوله « ما أنزل إليك » كناية عن موصوف هو القرآن الكريم ، وفي « ما أنزل من قبلك » كناية عن موصوفات هي كل الكتب المنزلة على رسل الله .

وإيثار التعبير بالإنزال عن الأسماء الصريحة : القرآن ، التوراة ، الإنجيل ، الزبور ، لأنه القدر المشترك الموجب للإيمان بها جميعاً لأنها كتب منزلة من عند الله بخلاف الأسماء الصريحة فقد اعتري بعضها التحريف والتدبير والتغيير .

وآثر البيان القرآني تقديم الإيمان « بما أنزل إليك » على « ما أنزل من قبلك » عكس الترتيب الزمني الوقوعي إما لأهمية المقدم لأنه يشتمل على جميع ما أنزل على الرسل من قبل وإما لأنه القضية المنازع فيها وهي قضية الساعة إذ ذاك كما يقولون ولأن مدار الحديث في هذا المقام « ذلك الكتاب » .

والنزول باعتبار أنه من فوق يعدى بعلى وباعتبار أنه ينتهي إلى المرسل إليه يعدى بإلى ، وفي هذا النظم القرآني عدي بإلى ولعل السر في ذلك للإشارة إلى أن

الوحي ينزل من السماء وينتهي إلى الرسول ﷺ وفي ذلك من التشريف والتعظيم للرسول ﷺ ما لا يخفى ، وهذا ما أُلح إليه الخطيب الإسكافي * والكرماني * وبعض المعاصرين . <١>

وفي التعبير بقوله « وبالآخرة هم يوقنون » تقديم للمجرور وبناء « يوقنون » على الضمير « هم » للتعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . <٢>

وفي تقديم المسند إليه « هم » على الخبر الفعلي « يوقنون » مع إفادته تقوية الخبر إشارة إلى أن اختصاص الإيقان بالآخرة مقصور عليهم لا يتجاوزهم إلى الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب . <٣> فهو قصر إضافي .

* هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الإسكافي كان من أصحاب الصاحب بن عباد ، من أهل أصبهان وخطيب بالري ، أديب كاتب شاعر لغوي ، صاحب التصانيف وكان وفاته سنة ٤٢٠هـ من كتبه مباديء اللغة ، شرح كتاب سيبويه ، ونقد الشعر ، ولطف التدبير في سياسات الملوك ، ودرة التنزيل ، وغرة التأويل في الآيات المتشابهة انظر ترجمته في : بغية الوعاة ، ١/١٤٩ وما بعدها ؛ معجم المؤلفين ، ١٠/٢١١ .

* هو أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني النحوي ويعرف بتاج القراء ، كان أحد العلماء الفهماء النبلاء كان عجباً في دقة الفهم وحسن الاستنباط ، لم يفارق وطنه توفي بعد سنة ٥٠٠هـ فقيه نحوي صرفي ، من تصانيفه : لباب التأويل وعجائب التأويل ، البرهان في توجيه متشابه القرآن؛ الإيجاز في النحو اختصره من الإيضاح ، النظامي في النحو اختصره من اللمع لابن جني ، الإفادة في النحو انظر ترجمته في : بغية الوعاة ، ٢/٢٧٧ وما بعدها ؛ معجم المؤلفين ، ١٢/١٦١ .

١ - انظر درة التنزيل ، ص ٤٠٣ وما بعدها ؛ البرهان في توجيه متشابه القرآن تحقيق عبدالقادر عطا ، ص ٣٥ ؛ البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ٨٨ ؛ من أسرار حروف الجر ، ص ١٠٥ - ١٠٩ .

٢ - انظر الكشاف ، ١/١٣٧ ؛ تفسير أبي السعود ، ١/٥٨ ؛ التحرير والتنوير ، ١/٢٤٠ .

٣ - انظر حاشية السيد على الكشاف ، ١/١٣٧ ؛ روح المعاني ، ١/١٢٣ ؛ التحرير والتنوير ، ١/٢٤١ .

وتأمل بلاغة القرآن ودقة اختياره للألفاظ المناسبة للمقام حيث عبر عن الإيمان بالآخرة بمادة الإيقان لأن هذه المادة « تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف ، وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها كان الإيمان بها جديراً بمادة الإيقان بناءً على أنه أخص من الإيمان ، فلإيثار « يوقنون » هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القرآن ، والذين جعلوا الإيقان والإيمان مترادفين جعلوا ذكر الإيقان هنا لمجرد التفنن تجنباً لإعادة لفظ « يؤمنون » بعد قوله « والذين يؤمنون بما أنزل إليك » . <١>

والوصل بالواو بين هذه الجمل الثلاث « والذين يؤمنون بما أنزل إليك » وما أنزل من قبلك » « وبالأخرة هم يوقنون » لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الخبرية لفظاً ومعنى .

والتعبير عن المسند إليه باسم الإشارة « أولئك » للدلالة على تمييزهم أكمل ، ولإيذان بأن ما يرد بعد اسم الإشارة فالمدكورون قبله جديرون بهذه الصفات . <٢>

واسم الإشارة « أولئك » موضوع للبعيد مكاناً فشبه به البعيد مكانة أو كما يقول البلاغيون نُزِلَ بعد المكانة منزلة بعد المكان فاستعير له لفظه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والجامع بينهما التناهي في البعد .

والتعبير بقوله « أولئك على هدى » إما أن يكون إستعارة تبعية شبه بها تمسك المتقين بالهدى باستعلاء الراكب على ركوبه في التمكن والاستقرار فاستعير له الحرف الموضوع للاستعلاء « على » وإما أن يكون إستعارة تمثيلية حيث شبهت هيئة تمكّنهم من الهدى وثباتهم عليه بهيئة الراكب في الاعتلاء على المركوب

١ - التحرير والتنوير ، ٢٤٠/١ : راجع البحر المحيط ، ٤٢/١ : النهر المار ، ٣٩/١ وما بعدها .

٢ - راجع الكشاف ، ١٤١/١ : تفسير أبي السعود ، ٥٨/١ : البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ،

ص ١٠١ : خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، ص ١٥٨ .

والتمكن من تصريفه والقدرة على إرضائه فشبهت حالتهم المنتزعة من متعدد بتلك الحالة المنتزعة من متعدد على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وإما أن يكون إستعارة مكنية شبه فيها الهدى بمطية ذلول ثم حذف المشبه به ورمز له بـ « على » لأنه من خواصه على سبيل الاستعارة المكنية ، وقد دار بين العلماء حول هذه الصورة البلاغية جدل كبير واشتد خلافهم حولها . <١>

وعلى أي تقدير قدرته فإن السر البلاغي لهذا التعبير البياني هو الإشارة إلى أرسخية المتحدث عنهم في الهداية وتمكنهم منها .

لكن ما السر البلاغي في إيثار النظم القرآني التعبير بحرف الاستعلاء « على » دون غيره من حروف الجر ؟

يبدو - و الله أعلم - أن التعبير بحرف الاستعلاء يشعر في هذا السياق بتمكن المؤمنين من الهدى وأنه أصبح طيعاً في أيديهم ، فلن يتأبى عليهم ، ولن يفر أبداً من قلوبهم ، وباستقراره في نفوسهم بحيث يرون وكأنهم يمتطون الهدى ويتخذونه مطية لهم .

وتنكير « هدى » للتفخيم والتعظيم أي على هدى عظيم لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره . <٢>

ومن في قوله « من ربهم » إما لإبتداء الغاية ، أو للتبعيض على حذف مضاف أي من هدى ربهم ، ومعنى كون الهدى منه سبحانه أنه هو الموفق لهم ، وللتنويه بذلك الهدى وتشريفه لكونه من الله جل جلاله ، وفي إضافة « رب » إلى ضميرهم تشريف لهم بأنهم في عناية الله . <٣>

١ - انظر الكشاف ؛ حاشية السيد عليه ، ١٤٢/١ وما بعدها ؛ حاشية الشهاب ، ٢٤٦/١ وما بعدها ؛

تفسير أبي السعود ، ٥٨/١ وما بعدها ؛ التحرير والتنوير ، ٢٤٢/١ وما بعدها .

٢ - انظر الكشاف ، ١٤١/١ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٨/١ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٩/١ ؛ روح المعاني ، ١٢٥/١ ؛ التحرير والتنوير ، ٢٤٥/١ .

أما جملة « وأولئك هم المفلحون » فقد جاءت معطوفة بالواو على ما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

ونلاحظ أن النظم الكريم ذكر اسم الإشارة « أولئك » مرتين لإظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم ، ولإشارة إلى أن هؤلاء المتصفين بتلك الصفات يستحقون بذلك الاستقلال بالتمكن في الهدى والفلاح ، كما أن تعريف « المفلحين » بأل إما للعهد أي إن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم يفلحون في الآخرة ، وإما للجنس أي هم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة . <١>

وفي هذه الآيات الكريمات موطنان للقصر أولهما في قوله « هم يوقنون » وطريقه هنا : بناء الفعل على الاسم كما يقول الإمام عبدالقاهر * مثل مثل أنا كتبت في معنى فلان <٢> . والثاني في قوله « أولئك هم المفلحون » وفي كلا الموطنين قصر صفة هي الإيقان في الأول ، والفلاح في الثاني ، على موصوف هو « أولئك » متضمناً الصفات المذكورة من قبل ، ونوع القصر هنا حقيقي تحقيقي في الثاني ، وفي

١ - انظر الكشاف ، ١٤٦/١ - ١٤٨ : راجع حاشية السيد ، ١٤٦/١ وما بعدها : حاشية الشهاب ، ٢٥٢/١ وما بعدها : التحرير والتنوير ، ٢٤٦/١ : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، للدكتور محمد أبو موسى ، ص ١٤١ .

* هو الإمام المشهور أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني فارسي الأصل جرجاني الدار ، أخذ النحو عن ابن أخت أبي علي الفارسي بجرجان ولم يأخذ عن غيره لأنه لم يخرج من بلده ، وكان من كبار أئمة العربية في النحو والبلاغة ، شافعيّاً شعريّاً ، ويعد كتابه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أعظم كتب البلاغة العربية ، وكانت له مشاركة في النحو والتفسير والفقہ ، توفي بجرجان سنة ٤٧١هـ من مؤلفاته المقتصد في شرح الإيضاح ، والجمل ، والعوامل المائة والعمدة في التصريف وغيرها انظر ترجمته في : مرآة الجنان لليافعي ، ١٠١/٣ : إنباه الرواه ، ١٨٨/٢ - ١٩٠ : الأعلام ، ٤٨/٤ - ٤٩ : معجم المؤلفين ، ٣١٠/٥ : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ١٩٩/٥ وما بعدها .

٢ - انظر دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ص ١٢٨ وما بعدها .

الأول يحتمل الحقيقي التحقيقي ، ويحتمل القصر الإضافي إذا وضعنا في الاعتبار حال أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل إليهم ولم يؤمنوا بما أنزل على محمد ﷺ أي لاهؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك ويكفرون بما جاء من ربك . <١>

أما سر فصل جملة « أولئك على هدى من ربهم » عما قبلها ففيه توجيهان : الأول أنها خبر عن « الذين يؤمنون بالغيب ... » .

الثاني : أنها جاءت مستأنفة إستئنافاً بيانياً وقعت جواباً عن سؤال مقدر اقتضاه الكلام السابق حاصله : « كيف حال هؤلاء الجامعين بين التقوى والإيمان بالغيب والإتيان بالفرائض والإيمان بما نزل على رسول الله ﷺ وعلى من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فقيل : أولئك على هدى من ربهم » . <٢>

بيد أننا نرى في تقديرها خبراً فيه ضعف لأن قوله « الذين يؤمنون بالغيب » وما عطف عليه إلى قوله « وبالأخرة هم يوقنون » شرح وبيان لـ « المتقين » فهو على هذا لا يحتاج إلى خبر لأنه كلام مكتف بنفسه ، وإدراج « المتقين » ضمن جملة الكلام المخبر عنه لا يرفع ذلك الضعف ، لذلك نرجح أن تكون هذه الجملة مستأنفة إستئنافاً بيانياً ولذلك فصلت عما قبلها فبين الجملتين شبه كمال الاتصال .

ولأبي السعود لفظة طيبة أشار فيها إلى طريقة القرآن في الترغيب بقوله « وفي بيان اختصاص المتقين بنيل هذه المراتب الفائقة على فنون من الاعتبارات الرائقة حسبما أشير في تضاعيف الآية الكريمة من الترغيب في اقتفاء أثرهم والإرشاد إلى اقتداء سيرهم ما لا يخفى » . <٣>

١ - فتح القدير ، ٢٧/١ .

٢ - السابق نفس الموضع .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٦١/١ .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

يرغب الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة في الإيمان مبيناً حقيقة البر الخالص محدداً ركائزه وأسسها بأنه ليس في تولية الوجوه نحو المشرق والمغرب وإنما يتمثل في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ، وفي إنفاق المال على حبه على الضعفاء من ذوي القربى واليتامى والمساكين وغيرهم ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهود والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، ثم يشير الحق سبحانه إلى أن من تحققت فيه هذه الصفات فقد تحقق فيه البر الكامل منوهاً بمنزلتهم الرفيعة بقوله « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يجدر بنا قبل أن نقرب من النص القرآني الكريم لاستجلاء خصائصه التركيبية وسماته البلاغية الإشارة إلى أسباب نزول هذه الآية الكريمة ، وقد اختلف المفسرون في سبب نزولها وتعددت أقوالهم فيها ف قيل إنها نزلت في اليهود والنصارى كانت اليهود تصلي للمغرب والنصارى للمشرق ، وقيل نزلت في المؤمنين حيث سأل رجل النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية ، فدعا الرجل فتلاها عليه ، وقيل نزلت بسبب إنكار الكفار على المسلمين تحويلهم القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة . <٢>

١ - البقرة : ١٧٧ .

٢ - أنظر أسباب النزول للواحي ، ص ٣٣ : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ص ٢٢ : راجع

الكشاف ، ١/٢٢٠ : البحر المحيط ، ٢/٢ : تفسير البضاوي : حاشية الشهاب عليه ، ٢/٢٧٠ .

ويبدو أن الخطاب موجه للمؤمنين وفيه تلقين لهم الحجة على أهل الكتاب في تهويلهم على المسلمين إبطال القبلة التي كانوا يصلون إليها ، وفي ذلك تعريض بأهل الكتاب . <١>

والبر : التوسع في فعل الخيرات والطاعات المقربة إلى الله تعالى ، والمراد به هنا بر العبد ربه بحسن المعاملة في تلقي شرائعه وأوامره . <٢>

ولعل أول ما يطالعنا في هذه الآية الكريمة اختلاف القراء في قراءة « ليس البر » فبعضهم قرأ « ليس البر » بالنصب على أنه خبر ليس مقدم ، وبعضهم قرأ « ليس البر » بالرفع على أنه اسم ليس <٣> ، وليس من شك في أن لكل قراءة توجيهاً بلاغياً .

« ووجه قراءة رفع البر أن البر أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب للجميع فإذا جعل مبتدأً في حالة النفي أصغت الأسماع إلى الخبر ، وأما توجيه قراءة النصب فلأن أمر القبلة وهو الشغل الشاغل لهم فإذا ذكر خبره قبله ترقب السامع المبتدأ فإذا سمعه تقرر في علمه . <٤>

ويرى أبو السعود أن السر من وراء تقديم خبر « ليس البر » على اسمها « أن تولوا وجوهكم » أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه يوصف ولا يوصف به ، والأعرف أحق بالاسمية ، ولأن في الاسم طولاً فلو روعي الترتيب لفات تجاوب أطراف النظم الكريم . <٥>

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٢٨/٢ .

٢ - انظر المفردات ، ص ٤٠ : روح المعاني ، ٤٤/٢ : التحرير والتنوير ، ١٢٨/٢ .

٣ - انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ص ١٧٦ : الإقناع في القراءات السبع لابن البادش ،

٦٠٦/٢ : راجع الكشف ، ٢٢٠/١ : البحر المحيط ، ٢/٢ وما بعدها .

٤ - التحرير والتنوير ، ١٢٩/٢ .

٥ - تفسير أبي السعود ، ٣٠٥/١ : راجع الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي ، ٢٠٦/٢

وما بعدها : روح المعاني ، ٤٥/٢ .

ونرى أن السرف في تقديم البر وهو خبر ليس على الاسم إضافة إلى ما ذكره أبو السعود للاهتمام بأمر النفي حتى يقع مباشرة على « البر » بخلاف الترتيب الأصلي « ليس توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر » لأن فيه عزلاً للنفي « ليس » عن المنفي « البر » وهذا التقديم يقتضيه المقام فهو من رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال حيث أن المخاطبين كانوا يعتقدون اعتقاداً قوياً أن البر هو التولية المذكورة فناسب حالهم أن يُعمد إلى نفي معتقدتهم أولاً وبطريق مباشر ، وأل في « البر » للعهد الذهني .

فقراءة النصب - كما ترى - أكثر ملاءمة للمقام ورعاية لحال المخاطبين من قراءة الرفع التي اختارها أبو السعود وأيدها بقوله « وقرىء برفع البر على أنه اسمها وهو أقوى بحسب المعنى لأن كل فريق يدعي أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقاً لدعواهم وما ذلك إلا بكون البر اسماً كما يفصح عنه جعله مخبراً في الاستدراك بقوله عز وجل « ولكن البر من آمن بالله » . <١>

وفي إيقاع التولية على الوجوه والمراد بها « الذوات » مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأريد الكل ، ولهذا الجزء مزيد اختصاص بالمقام لأن العينين هما اللتان تبصران الجهة المولى إليها ، ويحتمل أن تكون كناية عن الذوات صنفة هي الأ لأنه يلزم من توجيه الوجه ناحية معينة انتصاب الذات نحوها في الأعم الأغلب .

والمراد من ذكر « المشرق والمغرب » التعميم لا التعيين ، و « تقديم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية إما لرعاية ما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب ، وإما لأن توجه اليهود إلى المغرب ليس لكونه مغرباً بل لكون بيت المقدس من المدينة واقعاً في جانب فقيل لهم : ليس البر ما ذكرتم من التوجه إلى هاتين الجهتين » <٢> ولا ننسى ما فيهما من طباق بديع يزيد المعنى قوة ويكسي اللفظ حلية لطيفة .

١ - تفسير أبي السعود ، ٢٠٥/١ : راجع روح المعاني ، ٤٥/٢ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٢٠٦/١ .

وفي قوله « والمغرب » إيجاز بالحذف أي وقبل المغرب ، ودليل المحذوف - هنا - نظيره المذكور في قوله « قبل المشرق » والسر البلاغي هو نفي الفضول من العبارة لأن المقام يقتضي ذلك ويتطلبه .

وفي التعبير بقوله « ولكن البر من آمن » إستدراك بديعي يتضمن إحقاقاً للحق بعد بيان الباطل وتفصيلاً لخصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرائع أي ولكن البر المعهود الذي يحق أن يُهتم به ويُجدد في تحصيله بر من آمن بالله وحده إيماناً خالصاً من شائبة الإشراف كإيمان اليهود والنصارى والمشركون . <١>

ولا ريب أن الجمع بين حرفي العطف « الواو ولكن » في هذا النظم القرآني له سر بلاغي ، إذ كان يكفي أن يقال « لكن البر ... » بدون الواو .

ولعل السر في ذلك - كما نرى - لتخصيص « لكن » للاستدراك حيث قام حرف الواو بمهمة العطف ، والاعتناء بشأن الاستدراك - هنا - من مقتضيات المقام لأنه منصب على بيان برٍ لاشائبة فيه وإحلاله محل برٍ فيه شوائب .

وفي قوله « ولكن البر من آمن بالله » قدر النحاة ولفسرون المحذوف - هنا - بـ « بر من آمن » لأن البر بمعنى من المعاني فلا يخبر عنه بالنوات <٢> ، وبلاغة هذا البيان في سر الحذف البلاغي لا في تقدير المحذوف .

وفي هذا الحذف - مع وجازة اللفظ - إشارة إلى مزج البر بصاحبه حتى لكأن صاحب البر صار هو البر نفسه لا يغيب عنه في كل حركة وسكنة من حركات حياته وسكونها ، وفيه إشارة أيضاً إلى أن البر سجية في المؤمنين وطبيعة فطروا عليها فما يصدر عنهم من عمل هو عين البر فلذلك جعل البر هو نفس من آمن بالله للإيماء إلى هذا المعنى و الله أعلم بمراده .

١ - السابق نفس الموضع .

٢ - انظر الكتاب لسبويه تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون ، ٢١٢/١ ؛ مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ٦٥/١ ؛ معاني القرآن للفراء ، ١٠٤/١ وما بعدها ؛ البيان في إعراب غريب القرآن ، ١٣٩/١ ؛ الكشاف ، ٢٣٠/١ ؛ البحر المحيط ، ٢/٢ .

وتأمل جمال التعبير القرآني في قوله « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين » وما فيه من الترتيب المحكم الدقيق بين هذه المعطوفات - مع أن الواو لا تقتضي سوى مجرد التشريك - وفي تقديم بعضها على بعض من أسرار بلاغية تدل على دقة نظم القرآن وحسن رصفه فسبحان الذي أتقن كل شيء صنعاً .

ولا يخفى السر من وراء تقديم الإيمان بالله على ما سواه لأنه الأصل ، أما تقديم الإيمان باليوم الآخر على الملائكة والكتاب والنبين فهو من تقديم السبب على المسبب لأن الإيمان باليوم الآخر سبب في الإيمان بما عداه من مفردات الإيمان ، ثم روعي بعد ذلك تقديم ما هو مقدم واقعاً في سلسلة الرسالات على حسب السبق الزمني ، أو كما قال أبوحيان * على حسب الترتيب الوجودي الخارجي ^(١) فجبريل عليه السلام - وهو ملك - ينزل بوحي الله على رسله ، وموضوع الوحي هو « الكتاب » ومتلقى الكتاب هم النبيون .

والتعريف في « الكتاب » إما للجنس المفيد للاستغراق أي كتب الله كالتوراة والأنجيل والقرآن ، لأن البر الإيمان بجميعها ، وإما للعهد أي القرآن لأنه المقصود بالدعوة والكمال الذي يستأهل أن يسمى كتاباً ، والإيمان به إيمان بجميع الكتب لكونه مصدقاً لما بين يديه ، ورجح الألويسي * والظاهر

* هو أثير الدين أبوحيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي من كبار العلماء بالعربية والقراءات والتفسير والحديث والتراجم واللغات ، ولد في غرناطة في آخر شوال سنة ٦٥٤ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ من مصنفاته البحر المحيط ، والنهر الماد ، وتحفة الأريب بما في كلام العرب من الغريب والتذييل والتكميل في شرح التسهيل وعقد اللالكلي في القراءات السبع العوالي وغيرها انظر ترجمته في بغية الوعاة ، ٢٨٠/١ - ٢٨٥ : الأعلام ، ٥٩/٧ ؛ معجم المؤلفين ، ١٢٨/٢ .
١ - راجع البحر المحيط ، ٤/٢ .

* هو أبوإلثاء محمود بن عبدالله الحسيني شهاب الدين ولد سنة ١٢١٧هـ وتوفي في سنة ١٢٧٠هـ ، مفسر محدث فقيه أديب لغوي مشارك في بعض العلوم ، كان مولده ووفاته ببغداد من تصانيفه : روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ، وكشف الطرة عن الغرة في شرح درة الغواص انظر ترجمته في الأعلام ، ١٧٦/٧ - ١٧٧ : معجم المؤلفين ، ١٧٥/١٢ .

ابن عاشور * أن تكون « أل » للجنس <١> ، وهذا ما أميل إليه وأرتضيه لملاعمته للسياق .

وآثر النظم القرآني التعبير بصيغة المفرد في « الكتاب » دون الجمع لأنها أخف مع عدم إلتباس التعريف بأن يكون للعهد ، لأن عطف النبيين على الكتاب قرينة على أن الألف واللام فيه للاستغراق فلذلك أوثرت صيغة المفرد طلباً للخفة كما نص على ذلك صاحب التحرير والتنوير . <٢>

وفي جمع « النبيين » وتعريف « الكتاب » بأل الجنسية تعريض باليهود والنصارى حيث لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فتركوا الإيمان ببعض النبيين ، وحيث لم يؤمنوا بالقرآن وهو من جنس الكتاب الواجب الإيمان به .

لكن ما السر في تقديم الإيمان باليوم الآخر على الملائكة والنبيين وتأخيرها في قوله تعالى « ومن يكفر الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » . <٣>

ذكر أبوحيان نقلاً عن الراغب * أن السر في تقديمه في آية النساء وتأخيرها في آية البقرة أن « الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعنى بها وهي أبعد الأشياء

* محمد الطاهر ابن عاشور ولد سنة ١٢٩٦ وتوفي سنة ١٣٩٢ عالم أديب تولى القضاء والفن والكتابة الأشرف بتونس ، كان عضواً في المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة له مؤلفات عديدة منها : مقاصد الشريعة الإسلامية ، موجز البلاغة ، التحرير والتنوير ، أصول الإنشاء والخطابة انظر ترجمته في الأعلام ، ١٧٤/٦ ؛ معجم المؤلفين ، ١٠٠/١٠ .

١ - انظر روح المعاني ، ٤٥/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٢٩/٢ .

٢ - التحرير والتنوير .

٣ - النساء : ١٣٦ .

* هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني المعروف بكر اغب المتوفى سنة ٥٠٢ هـ أديب لغوي مفسر حكيم من الحكماء العلماء من أهل أصفهان ، سكن بغداد ، اشتهر بالعلم حتى كان يقرن بالإمام الغزالي من آثاره محاضرات الأدباء ، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، جامع التفاسير ، والمفردات في غريب القرآن ، وأفانين البلاغة وغيرها انظر ترجمته في الأعلام ، ٢٥٥/٢ ؛ معجم المؤلفين ، ٥٩/٤ .

عن الحقائق عنده فأخر ذكره ، ولما ذكر حال المؤمنين ، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة وكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به وجه الله تعالى ثم أمر الآخرة فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله ومراعاة الآخرة ثم مراعاة غيرهما . <١>

وفي هذا البيان القرآني روعي في تقديم الإيمان - وهو من أفعال القلوب - على إيتاء المال والصلاة والزكاة - وهي من أفعال الجوارح الفضل والشرف « لأن أعمال القلوب أشرف من أفعال الجوارح ، ولأن أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنما تنشأ من الإيمان » . <٢>

وتأمل روعة النظم القرآني في اختياره للألفاظ القادرة على الوفاء بالمعنى في قوله « وآتى المال » وأصل « آتى » أعطى لكن القرآن أثر التعبير بالإيتاء على الإعطاء للإشارة إلى امتداح السخاء لدى المنفقين أموالهم في سبيل الله ، فكأنهم يسعون بها إلى مستحقيها ويأتونهم بها ، أما الإعطاء فلا يتضمن هذا المعنى اللطيف إذ يفهم منه مجرد بذل المال للسائلين والباذل في مكانه ، وخالصة القول إن في الإيتاء إيماءً إلى المبادرة في الإنفاق .

وعلى في قوله « على حبه » للمصاحبة أي مع حبه كما ذكر الزركشي * وكثير من المفسرين <٣> ، لكن ما الأسرار البلاغية في إيتاء القرآن التعبير بحرف الاستعلاء في هذا النظم القرآني ؟

أشار بعض الباحثين إلى أسرار التعبير القرآني بحرف الاستعلاء في هذه الآية الكريمة ، وكفانا بصنيعه هذا مؤونة الاجتهاد بقوله « إن على لم تفارق دلالتها

١ - البحر المحيط ، ٤/٢ .

٢ - البحر المحيط ، ٤/٢ .

* هو بدر الدين أبو الحسن محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي الشافعي ولد سنة ٧٤٥هـ وتوفي سنة ٧٩٤ ، فقيه أصولي محدث ، تركي الأصل مصري المولد والوفاء ، له مؤلفات عديدة منها : الديباج في توضيح المنهاج للنووي ، شرح جمع الجوامع للسبكي ، والمعتبر في تخريج أحاديث المنهاج ، والبرهان في علوم القرآن انظر ترجمته في الأعلام ، ٦٠/٦ - ٦١ : معجم المؤلفين ، ٢٠٥/١٠ .

٢ - انظر البرهان في علوم القرآن ، ٢٨٤/٤ : الكشف ، ٢٣٠/١ : الفتوحات الإلهية ، ١٤١/١ : التحرير والتنوير ، ١٣٠/٢ .

على الاستعلاء ، وأنها أدل في مدح الأبرار من كلمة المصاحبة ، إذ إن الآية ترسم صورة للأبرار المتقين الذين قرنوا صالح العمل بصحيح الاعتقاد ، وقد بدأت بوصفهم بالإذعان القلبي المتمثل في الإيمان بالله ورسله وما أنزل عليهم من كتب وما حمل إليهم وحي السماء من الملائكة وما يتبع ذلك من تصديق بالحساب في يوم أعدّه لذلك ، وهذا مالا يصح عمل إلاّ به ، ثم بدأت من الأعمال ببذل المال وهو الدليل العملي الأدلّ على صدق الإيمان ، لأن المال شقيق الروح ولا يغلب المال في نفس من يتعلقون به أو يقعون أسرى حبه إلاّ حبّ أكبر منه ، فجاءت « على » مشعرة باستعلاء حب الله في نفوسهم على حب المال ، وتغلبهم على شهواتهم وقهرهم لأسباب الخوف من الفقر ، وارتفاعهم فوق شح أنفسهم « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ^١ ، ولعل ابن عباس رضي الله عنهما كان يلمح إلى هذا الغرض حين قال : البر بعد الإيمان إعطاء المال على حبه ، على قلته وشهوته . ^٢

والضمير في قوله « على حبه » عائد إلى المال لأنه أقرب مذكور ، وهو الأليق بالسياق ، وقيل عائد إلى الله تعالى ، واختار أبوحيان - ومن تابعه من المفسرين - عود الضمير إلى المال وشنع على القائلين بغيره حيث يقول « وقول من أعاده على الله تعالى بعيد لأنه أعاده على لفظ بعيد مع حسن عوده على لفظ قريب » . ^٣

وفي تقديم « ذوي القربى » على غيرهم إشارة إلى أنهم أولى بالمعروف لأن الصدقة فيهم صدقتان كما جاء في الحديث « صدقة وصله » ^٤ وهو مفعول أول

١ - الحشر : ٩ .

٢ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للدكتور محمد الأمين الخضري ، ص ٧٣ .

٣ - البحر المحيط ، ٥/١ ؛ راجع روح المعاني ، ٣٠٦/١ .

٤ - الحديث في سنن الترمذي كتاب الزكاة ، ٨٤/٢ ، تحقيق : عبدالرحمن محمد عثمان ؛ سنن ابن ماجه

في كتاب الزكاة ، ٣٣٨/١ . تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي .

لأتى قدم عليه مفعوله الثاني وهو « المال » للاهتمام به والاعتناء بشأته ، أو لأن في الثاني مع ما عطف عليه طولاً لوروعي لفات تجاوب أطراف النظم الكريم . <١>
وفي تقديمه أيضاً إشارة إلى أن المقصود هو إيتاء المال على حبه ، وقيل هو المفعول الثاني وحينئذ لا تقديم ولا تأخير . <٢>

ونلاحظ أن القرآن الكريم - هنا - ذكر في هذه الأصناف الصفات التي يستحقون بها إيتاءهم المال ، فذو القربى يستحقون الإحسان بوصفهم هذا « نوي قربي » سواء كانوا فقراء أو أغنياء ، لأن الأغنياء يُحسن إليهم بالإهداء والهبّة ، وفقراؤهم يستحقون البذل بسبب كونهم نوي قربي وكونهم فقراء ، والبذل إليهم مقدم على أغنيائهم .

وما عدا « نوي القربي » وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب يستحقون البذل كذلك بأوصافهم المذكورة ، وأحقهم اليتامى لضعفهم ولذلك قدموا ، ثم يليهم المساكين وهم على ما نختار من أعجزتهم أحوالهم عن الحركة ، فكأن الفقراء نوعان : نوع عاجز عن الحركة لعاهة أو مرض ، ونوع غير عاجز ، ولفظ الفقراء يشمل النوعين مع التفاوت في المعنى ، ويكون على ذلك ذكرهم في آية الصدقات « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ... » <٣> صراحة بعد دخولهم في معنى الفقراء للتنبية على العناية بهم .

وتقديم « ابن السبيل » على « السائلين » لقلّة حيلة ابن السبيل لأنه المسافر المحتاج في أرض غريبة لا يعرف بها أحداً ، أما السائل فهو مقيم في البلد غالباً فلذلك قدم ابن السبيل لما أن حاجته إلى العون أكثر من السائلين والمراد

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٣٠٦/١ وما بعدها : راجع روح المعاني ، ٤٦/٢ .

٢ - انظر البحر المحيط ، ٥/٢ : تفسير أبي السعود ، ٣٠٦/١ وما بعدها : الفتوحات الإلهية ، ١٤١/١ :

روح المعاني ، ٤٦/٢ .

٣ - التوبة : ٦٠ .

بقوله « في الرقاب » أي وضع المال في فك الرقاب بمعاونة المكاتبين حتى يفكوا رقابهم ، أو في فك الأسرى أو في ابتياع الرقاب واعتقاها .

وفي تأخير قوله « وفي الرقاب » وتقديم « اليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين » عليه إيماءً إلى أن حاجة المقدمين ماسة إلى ما يقتاتونه أو يلبسونه ، فهي حاجة يومية ، أما « في الرقاب » فحاجتهم موسعة لأنها فكاك من الرق أو الأسر ، ولا نزاع في أن إطعام الجائع الحاضر لوقايته من الهلاك أولى شرعاً من فك رقبة العبد .

ولا يخفى ما في التعبير بقوله « في الرقاب » من مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وهو « الرقبة » على الكل للإشعار برسوخهم في الاستحقاق والحاجة استجاشة واستمالة لقلوب المؤمنين في تخليصهم من الأسر والرق ، كما أن إيراد « في » الظرفية للإيذان بأن ما يعطى لهم مصروف في تخليصهم لا يملكونه كما في المصارف الأخر . <١>

ويضيف بعض الباحثين قائلاً « إن حرف الظرفية يحمل المتصدق أو القائم على الصدقات مسئولية خاصة في تعهد صدقته والقيام عليها حتى يتأكد من فك وتخليص الغارم من غرمه ، لا مجرد دفعها لهذا الغرض كما هو الشأن في الفقراء والمساكين والعاملين عليها ، لأن العبد والغارم في موقف الضعف وهما مظنة استغلالهما فوجب على المتصدق أو القائم على الصدقات أن يتأكد من وضعها في محلها الذي لا يتهدده الضياع ، وكذلك الشأن حين توضع في سبيل الله حيث يجب تحري المواطن التي هي أكثر نفعاً لخدمة قضايا الإسلام . تلك إحياءات حرف الظرفية ، وما تحتمه من وضع الصدقة موضعاً أمكن وأنفع » <٢>

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٣٠٧/١ : روح المعاني ، ٤٧/٢ .

٢ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ١٢١ وما بعدها .

وتقديم إقام الصلاة على إيتاء الزكاة إما مراعاة للتاريخ التشريعي لأن الصلاة فرضت قبل الزكاة ، وإما للفضل والشرف لأن الصلاة أفضل الأعمال البدنية ولأنها عماد الدين <١> ، وإما لعناية الشارع بالصلاة حيث يقتل تاركها - عمداً - كفراً أو حداً ، ولم يقل أحد بقتل مانع الزكاة بخلاً بل يُغرم من ماله ، وإما لصلة المسلم بالصلاة من حيث الممارسة فهو يؤديها في اليوم والليلة خمس مرات بخلاف الزكاة فتخرج في العام مرة واحدة في النقدين وعروض التجارة والماشية ، وعند الحصاد في الزروع ، فالصلاة أكثر دوراناً في حياة المسلم من الزكاة .

وفي تقديم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على ما عداهما لأنهما ركنان من أركان الإسلام .

والوصل بين جملة « وأقام الصلاة وأتى الزكاة ... » وبين جملة « من آمن بالله » للتوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

أما قوله « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » فهو معطوف على جملة « من آمن بالله » وكان مقتضى النظم أن يقال « ومن أوفى » لكن النظم القرآني أثر التعبير بالجملة الاسمية للدلالة على وجوب استمرار الوفاء وتأصله في نفوسهم ، أو للإشارة إلى أنه أمر مقصود بالذات ، أو للإيدان بمغايرته لما سبق فإنه من حقوق الله تعالى والسابق من حقوق العباد <٢> ، وتقويده بالظرف « إذا عاهدوا » للدلالة على أن وفاءهم لا يتأخر عن وقت المعاهدة طرفة عين ، وفيه إشارة إلى احتياط المؤمنين وحرصهم على الوفاء بالعهد ، فالؤمن إذا لم يجد في نفسه قدرة على الوفاء بالعهد لا يعاهد .

١ - انظر أساليب الأمر والنهي في القرآن الحكيم وأسرارها البلاغية ، ص ٤٢٢ بحث مخطوط - رسالة ماجستير - للباحث بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٣٠٧/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٢٧١/٢ ؛ روح المعاني ، ٤٧/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٣١/٢ .

وقد يقول قائل : ما فائدة « إذا عاهدوا » ألا يكفي « والموفون بعهدهم » ؟

الجواب - و الله أعلم بسر كتابه - أن العهد عهدان : عهد احتمال غير مؤكد ، وعهد مبرم مؤكد ، والوفاء بالأول حسب الأحوال من السعة والضيق ، أما الثاني فيجب الوفاء به لذلك جاء قوله « إذا عاهدوا » و « إذا » لا تدخل إلا على المتحقق وقوعه .

وجيء بالمسند إليه اسماً « الموفون » للدلالة على رسوخ هذه الصفة فيهم ، فهي سجية نفس ودين طبع ، ويشمل العهد - هنا - عهدهم مع الله ، وعهدهم مع الناس .

وقدم البيان القرآني الوفاء بالعهد على قوله « والصابرين في البأساء والضراء ... » لأنه عقد بين طرفين فالإخلال به يضر المعاهد ، أما الصبر في البأساء والضراء وحين البأس فهذه عزائم إيمانية تركها مضر بالتارك وحده .

وجيء بالصابرين منصوباً بعد مرفوعات إما على المدح أو الاختصاص ، والعامل محذوف تقديره : أمدح أو أخص الصابرين ، والسر البلاغي لهذه المخالفة الإعرابية - و الله أعلم - للتنبيه على فضيلة الصبر ومنزلته الرفيعة ، وما للصابرين من فضل عظيم ومنزلة رفيعة استحقوا بها التمييز عن سواهم ^(١) . أو للفت الأنظار لفتاً قوياً لهذا النوع من العباد لأن الصبر في هذه الأحوال غال ثمنه عند الله ، وهو دليل على عمق الإيمان في قلوب الصابرين .

ومما يلفت النظر في البلاغة القرآنية أن الصبر جاء في القرآن معدى بعلی في كثير من المواضع - كما في قوله تعالى « واصبر على ما يقولون » ^(٢) وقوله

١ - راجع الكشاف ، ٢٢١/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٣٠٧/١ ؛ البحر المحيط ، ٨/٢ ؛ حاشية الشهاب ، ٢٧١/٢ ؛ الفتوحات الإلهية ، ١٤٢/١ ؛ روح المعاني ، ٤٧/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٣٢/٢

وما بعدها .

٢ - المزمل : ١٠ .

« والصابرين على ما أصابهم ... » <١> - أما في هذه الآية الكريمة فقد عدي بفي « والصابرين في البأساء » لأن « المبالغة في الصبر تقتضي أن يكون الصابر محاطاً بالمصائب ، محاصراً بالمحن والشدائد من كل جانب ، سواء منها ما كان في نفسه أو في ماله أو في أهله ، وهو ما يجسده حرف الظرفية ، دالاً على أنهم اتصفوا بالصبر حين كانت تحيط بهم البأساء والضراء وتشملهم اشتمال الوعاء للموعى فيه . <٢> والمراد بالبأساء الفقر والشدة ، والضراء المرض ، وحين البأس الشدة من جروب وغيرها ، وزيادة الحين في قوله « حين البأس » للإشعار بوقوعه أحياناً وسرعة انقضائه <٣> . ولا يخفى ما في هذا الترتيب من التدرج والترقي في الصبر حيث ذكر سبحانه أولاً الصبر على الفقر ثم الصبر على المرض ثم الصبر على القتال وهو أشد من الفقر والمرض كما ذكر أبوحيان رحمه الله . <٤>

وفي الجمع بين البأساء والضراء وحين البأس مراعاة نظير ، وزيادة الألف والهمزة في البأساء والضراء إشارة إلى شدة وقعهما وفضيلة الصبر فيهما .

وفي دخول « في » على البأساء والضراء تنبيه على أنهما أحاطا من كل جهة بالميوؤوس والمضار ، ففيهما إستعارتان مكنتان شبه فيها كلاً منهما بظرف محيط بالمظروف ثم حذف المشبه به وهو الظرف ورمز له بشيء من لوازمه وهو « في » .

أما قوله « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » فجملتان قصريتان مع تفاوت القصر فيهما ، فالأول طريقه تعريف الطرفين قصر صفة « الصدق » على موصوف « أولئك » وطريق الثاني تعريف الطرفين مع ضمير الفصل « هم » ولعل السر في ذلك أن كون هؤلاء هم المتقون غاية الغايات لجميع الأوصاف التي تقدمت

١ - الحج : ٢٥ .

٢ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ١٢٠ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ١/٣٠٨ .

٤ - انظر البحر المحيط ، ٨/٢ .

ومنها آخرها اختصاصهم بالصدق لذلك - و الله أعلم - اختص القصر الأخير
بمزية ضمير الفصل .

والتعبير باسم الإشارة « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » للإشارة
إلى تمييزهم أكمل تمييز ، وما فيه من البعد للتنبيه على علو طبقتهم وبعد منزلتهم
وتكراره « لزيادة التنويه بهم » . <١>

وتأمل ما في هذا التعبير القرآني من اختلاف في الصياغة حيث عبر
عن « أولئك » الأول بجملة فعلية فعلها ماضي ، وعن الثاني بجملة إسمية ، ولا ريب
أن من وراء ذلك لطائف وأسراراً بلاغية ، فما السر في ذلك ؟

السر في ذلك أن التعبير بالماضي « صدقوا » يفيد تحقق اتصافهم
بالصدق ، وأن ذلك قد وقع منهم واستقر ، أما التعبير بالجملة الاسمية فللدلالة على
ثبوتهم على التقوى وأن ذلك وصف لهم لا يتجدد بل صار سجية لهم ووصفاً
لازماً ، ولوقوعه فاصلة للآية الكريمة <٢> ، والفواصل القرآنية لها نمط فريد يلائم
كونها فاصلة للآيات .

فانظر إلى دقة النظم القرآني كيف غاير بين المتعاطفين في الصياغة
وهو بلا شك مظهر من مظاهر التلوين في الأسلوب والتفنن في التعبير يكشف
جانباً مشرقاً من جوانب إعجاز القرآن الكريم .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٠٨/١ .

٢ - راجع البحر المحيط ، ٨/٢ ؛ روح المعاني ، ٤٨/٢ .

وقال تعالى : ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله

لا يحب الظالمين ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآية الكريمة بشارة للمؤمنين ووعدهم أكد من الله سبحانه بتوفية أجورهم لا محاباة فيه ولا بخس ، وفي هذا من الترغيب في الإيمان وعمل الطاعات ما لا يخفى على كل ذي لب .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

افتتح النظم القرآني بالتعبير بالموصول « الذين آمنوا » للإشارة إلى زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو بشارة المؤمنين بتوفية أجورهم وما يلقونه في الآخرة من نعيم دائم جزاءً بما كانوا يعملون .

وتوفية الشيء : بذله وافياً من غير نقص <٢> ، والأجور : ثواب العمل وجزاؤه دنيوياً كان أو أخروياً <٣> ، شبه به العامل الذي يوفي أجره عند تمام عمله . <٤>

« وفي تعليق التوفية على الإيمان والعمل الصالح تنبيه على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها وإيدان بعظم قبح الكفر » . <٥>

وفي التعبير بقوله « فيوفيهم أجورهم » إستعارة تمثيلية حيث شبه عمل المؤمنين بمقتضى الإيمان بعمل قوم استأجرهم رجل ليعملوا له عملاً فلما أدوا

١ - آل عمران : ٥٧ .

٢ - انظر المفردات ، ص ٥٢٨ : راجع البحر المحيط ، ٤٧٥/٢ .

٣ - انظر المفردات ، ص ١٠ وما بعدها : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ١٦/١ : البحر المحيط ، ٤٧٥/٢ .

٤ - انظر البحر المحيط ، ٤٧٥/٢ : روح المعاني ، ١٨٥/٢ .

ما عليهم بذل لهم أجورهم وافية ، وفي هذه الاستعارة تصوير للمعنى المعقول بصورة حسية لزيادة الاعتناء بالمعنى وإظهاره .

وفي قوله « فيوفيههم أجورهم » أيضاً إلتفات من التكلم إلى الغيبة لأن السياق قبلها « فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً ... » ^{<١>} ومعلوم أن في الالتفات تطرية وإيقاظاً للسامع وتجديداً لنشاطه ، لكن يبقى ما وراء هذا الالتفات من لطائف ودقائق !

استطاع أبو السعود أن يكشف عن سر الالتفات في هذه الآية بقوله « ولعل الالتفات إلى الغيبة للإيدان بما بين مصدرى التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال » والمراد بالجلال أي البطش والتعذيب والانتقام ، أما الجمال فالمراد به الرحمة والتكريم والتشريف ^{<٢>} . وقرئ « فنوفيههم » بالنون جرياً على سنن العظمة والكبرياء . ^{<٣>}

أما التعبير بقوله « و الله لا يحب الظالمين » فهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، لأن انتفاء محبة الله للظالمين يستلزم أنه يحب الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلذلك يعطيهم ثوابهم وافياً ، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزوا الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان بالله . ^{<٤>}

١ - آل عمران : ٥٦ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٤٩٤/١ .

٣ - انظر السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ص ٢٠٦ ؛ البحر المحيط ، ٤٧٥/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٩٤/١ ؛ روح المعاني ، ١٨٥/٣ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٩٥/١ ؛ روح المعاني ، ١٨٥/٣ ؛ التحرير والتنوير ، ٢٦١/٣ .

وقال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر
أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي
وقاتلوا وقتلوا لكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار
ثواباً من عند الله و الله عنده حسن الثواب ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذا السياق القرآني يبشر الله عباده المؤمنين باستجابة دعائهم ،
ويؤكد لهم عدله بعدم إضاعة عمل عامل منهم من ذكر أو أنثى ، ثم يشير إلى
ما للمهاجرين الفارين بدينهم والمجاهدين في سبيله من ثواب عظيم ونعيم دائم
مقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاءً بما كانوا يعملون .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

الفاء في قوله « فاستجاب » دلت على سرعة استجابة الله لدعائهم <٢> ،
وتعجيل المسرة لهم بتحقيق طلبهم .

وإيثار التعبير بالرب دون « الله » في هذا الموضع لما في وصف الربوبية من
الدلالة على الشفقة بالمربوب ومحبة الخير له والعناية به ، وإضافة الرب إلى
ضميرهم في قوله « ربهم » لزيادة تشريفهم وإظهار اللطف بهم ما لا يخفى . <٣>

وفي التعبير بقوله « لا أضيع عمل عامل » إشارة إلى عدل الحق سبحانه
بين عباده ، ووعدهم بتقدير أعمالهم وحسبانها لهم ، وتطمين لقلوبهم بعدم إضاعة
أعمالهم ، وفي قوله « عمل عامل » إيجاز بالحذف تقديره : ثواب عمل عامل لأن
أعمال الناس محفوظة لديه في السجلات فليس المراد نفي إضاعة عمل عامل سواء
منهم أو من غيرهم ، أو مجاز مرسل بإقامة السبب وإرادة المسبب .

١ - آل عمران : ١٩٥ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٠٢/٤ .

٣ - راجع تفسير أبي السعود ، ٦٣١/١ ، روح المعاني ، ١٦٨/٤ ، التحرير والتنوير ، ٢٠٢/٤ .

ومن في قوله « من ذكر أو أنثى » ليست بيانية بل هي استغراقية مثل :
وما من دابة ، وقدّم الذكر على الأنثى : لمراعاة السبق لأن آدم خلق أولاً ومنه خلقت
حواء .

أما التعبير بقوله « بعضكم من بعض » فلإشارة إلى أنهم من أصل واحد
وللتنبية على أنهم سواسية في الأعمال والثواب ، وإنما سوى بينهم في الثواب
لاشتراكهم في الأصل والدين والمعنى كما أنكم من أصل واحد وأن بعضكم مأخوذ
من بعض فكذا أنتم في الثواب لا يثاب رجل عامل دون امرأة عاملة . <١>

وقد جاءت جملة « أني لا أضيع عمل عامل منكم » مؤكدة « بأن »
لإلحاحهم في الدعاء لأن في الإلحاح تردداً قارب الإنكار لاعتقادهم بأنهم ليسوا
أهلاً لأن يكرمهم الله بإستجابة دعائهم فجاءت الجملة مؤكدة بأن تنزيلاً لهم منزلة
المرتدد الشاك ، أو لأن مضمون الكلام حقيقة عظيمة فعبر عنها بما يناسبها .

وقرأ الجمهور « أني » على إسقاط حرف « الباء » أي « بأنني » على أنها
للسببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم أي سنته
السنية مستمرة على ذلك ، وقرىء بكسر الهمزة « إني » على إضمار القول أي
فاستجاب لهم ربهم قائلاً إني لا أضيع عمل عامل منكم . <٢>

والجملة على هذا استئناف بياني كأنه قيل : كيف استجاب ؟ فقيل :
اني لا أضيع ... ، ولذلك فصلت جملة إني لا أضيع عمل عامل عما قبلها لما بينهما
من شبه كمال الاتصال .

وفي التعبير بقوله « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع » إلتفات من الغيبة
إلى التكلم ، ثم التفت من التكلم في « أني » إلى الخطاب في قوله « منكم » وسر
الالتفات في هذا البيان القرآني « لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف

١ - راجع الكشف ، ٤٨٩/١ وما بعدها ؛ الفتوحات الإلهية ، ٣٤٨/١ .

٢ - انظر البحر المحيط ، ١٤٣/٣ ؛ تفسير أبي السعود ، ٦٣١/١ ؛ روح المعاني ، ١٦٨/٤ .

الداعين بشرف الخطاب والتعرض لبيان السبب لتأكيد الاستجابة والإشعار بأن مدارها أعمالهم التي قدموها على الدعاء لا مجرد الدعاء . <١>

والفاء في قوله « فالذين هاجروا ... » للتفريع من جملة « لا أضيع عمل عامل » حيث ذكر الخاص بعد العام للاهتمام والاعتناء بذلك الخاص .

والمهاجرة : هي ترك الوطن بقصد استيطان غيره ، والمفاعلة فيها للتقوية كأنه هجر قومه وهجروه ولم يحرصوا على بقاءه ، فهاجر فراراً بدينه أو فراراً من الأذى .

« وأخرجوا من ديارهم » أي قسراً وجبراً لا عن رغبة أو طواعية .
« وأوذوا في سبيلي » أي لاقوا في سبيلي الأذى والمكروه قولاً وعملاً .

« وقاتلوا » أي جاهدوا في سبيل الله - لإعلاء كلمته ونشر دعوته - أعداء الله ، وقتلوا أي استشهدوا في القتال <٢> . واختار الله سبحانه وتعالى أشق الأعمال وأعظمها ونص عليها لشرفها .

وقد جاءت هذه الجمل موصولة بالواو « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا » للتوسط بين الكمالين لاتحادها في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود المناسبة المؤيدة للعطف .

أما قوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم » فهو جواب لقسم محذوف تقديره : و الله لأكفرن . والمراد بالتكفير : محو الذنوب لأن أصل معناه في اللغة الستر حيث يوصف الليل بالكافر لستره الأشخاص ، والزارع لستره البذور في الأرض . <٣>

١ - تفسير أبي السعود ، ٦٣١/١ : روح المعاني ، ١٦٨/٤ : راجع إعراب القرآن وبيانه للاستاذ محي الدين الدرويش ، ١٤٢/٤ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٦٣٢/١ .

٣ - انظر المفردات ، ص ٤٢٣ : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٥٠٧/٢ .

والتعبير بقوله « ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار » يشي بفضل الله وإنعامه على عباده المؤمنين ، وعظيم رحمته ورضاه ، وتنكير « جنات » يفيد التعظيم والتفخيم فهو يدخلهم جنات عظيمة واسعة .

وتأمل روعة بيان القرآن وما تشيعه تراكيبه من حركة موحية في قوله « جنات تجري من تحتها الأنهار » فالماء هو الذي يجري في الأنهار لكنه أسند الجري إلى الأنهار للمبالغة في تدفق الماء وشدة جريانه فيخيل للمتلقي أن المكان كله يجري ، ففي هذا التعبير مجاز عقلي علاقته المكانية . <١>

والسر من وراء تقديم تكفير السيئات على قوله « لأدخلنهم جنات ... » إما للسبق الزمني وإما للإشارة إلى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان نظيفاً طاهر القلب والجسد خالياً من الأدران .

ولعلك تلاحظ أن الخطاب بقوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات ... » قد جاء مؤكداً بهذه المؤكدات لأنه حقيقة عظيمة ومن حق الحقائق العظيمة أن تُخرج هذا المخرج .

أما قوله « ثواباً » فهو مصدر مؤكد لما قبله فإن تكفير السيئات وإدخال الجنة في معنى الإثابة فوضع ثواباً موضع الإثابة وإن كان في الأصل اسماً لما يثاب به كالعطاء لما يعطى ، وقوله « من عند الله » جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة له مبينة لشرفه أي لأثيبنهم إثابة كائنة أو تثويباً كائناً من عنده تعالى بالغاً إلى المرتبة العالية من الشرف . <٢>

وفي التعبير بقوله « و الله عنده حسن الثواب » تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار الروعة وتربية المهابة .

١ - انظر الكشاف ، ٢٥٨/١ ؛ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص ٤٥١ ؛ البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ١١٥ ؛ من بلاغة النظم العربي ، ١٠٤/١ ؛ أصول البيان العربي ، ص ٤٩ ؛ من أسرار التركيب البلاغي للدكتور السيد عبدالفتاح حجاب ، ص ٢٨ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٣٢/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٩٢/٣ ؛ الفتوحات الإلهية ، ٢٤٨/١ وما بعدها ؛ روح المعاني ، ١٧٠/٤ وما بعدها .

وقد جاءت هذه الجملة معطوفة على ما قبلها للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود المناسبة المؤيدة للوصل .

وفي فاصلة هذه الآية نرى الجمال والجلال حيث جاءت ملائمة للسياق مستقرة في موضعها غير نافرة ولا قلقة حتى كأن الآيات قبلها لتوحي بهذه الفاصلة . <١>

ومن آيات الترغيب في الإيمان بالله قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآية الكريمة حقيقة هذه الأمة والدور الذي يجب أن تقوم به وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهي مسوقة لبيان حال هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم ، ولتشبيث المؤمنين على ما هم عليه من الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم تصف الآية أهل الكتاب ولا تبخسهم قدرهم وتبين حقيقة إعراضهم عن دعوة الحق وموقفهم تجاه هذا الدين دون أن تبخس الصالحين منهم حقهم فمنهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

الخطاب في قوله « كنتم خير أمة » عام يشمل الصحابة وغيرهم من المسلمين في كل عصر ، وكان مقتضى النظم أن يقول « أنتم خير أمة » لكنه عدل إلى ما عليه النظم الكريم للإشارة إلى ما لهذه الأمة من حظوة عند الله وللتنبية على فضلها على الأمم السابقة وهذا ما أومأ إليه المفسرون بقولهم « أي كنتم في علم

١ - راجع من بلاغة القرآن ، ص ٧٥ وما بعدها .

٢ - آل عمران : ١١٠ .

الله خير أمة أو في اللوح المحفوظ أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة . <١>

كما أن التعبير بالجملة الإسمية « أنتم خير أمة » يدل على ثبوت الخيرية في فترة زمنية معينة ، ويكون قوله « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » تفصيلاً وبياناً لقوله « خير أمة » أما التعبير بالجملة الفعلية « كنتم خير أمة » فيدل على تحقيق الخيرية وتجدها ويكون قوله « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » شروطاً لا تتحقق الخيرية إلا بها ، فمتى تحققت هذه الشروط الثلاثة وعملت الأمة بمقتضاها تكون خير أمة أخرجت للناس .

والتعبير بكلمة « أخرجت » المبني لغير الفاعل تعبير يلفت النظر ، وهو يكاد يشير إلى اليد المدبرة اللطيفة وهي تخرج هذه الأمة إخراجاً وتدفعها إلى الظهور دفعاً من ظلمات الغيب ، فهي كلمة تصور حركة خفية المسرى لطيفة الديب حركة تخرج على مسرح الوجود أمة لها دور خاص ومقام خاص . <٢>

وتأمل سر التعبير بقوله « أخرجت للناس » دون قولنا « أخرجت إلى الناس » ليشير إلى اختصاص هذه الأمة بحراسة الدين وصيانة الكون والحياة من الشر والفساد .

والمعروف : اسم كل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه . <٣>

والمنكر : كل فعل تستقبحه العقول السليمة ويرد الشرع باستقباحه . <٤>

وفي قوله « بالمعروف وبالمنكر » إيجاز قصر فهما من جوامع الكلم .

١ - راجع الكشف ، ٤٥٤/١ : تفسير أبي السعود ، ٥٢٣/١ : البحر المحيط ، ٢٨/٣ : روح المعاني ، ٢٧/٤ .

٢ - في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٤٤١ .

٣ - المفردات ، ص ٣٣١ : انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٢٢١/٢ .

٤ - انظر المفردات ، ص ٥٠٥ : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٧٦١/٢ وما بعدها .

أما التعبير بالمضارع الدال على الاستمرار في قوله « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فهو خبر يفيد معنى الأمر نحو قوله « والمطلقات يتربصن »^١ والتقدير أمروا بالمعروف وانها عن المنكر وآمنوا بالله ، وإيثار التعبير بالخبر عن الأمر أن المأمور كما يقول الزمخشري « كأنه سورع إلى الامتثال فهو يخبر عنه »^٢ موجوداً .

وقدّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما أظهر في الدلالة على الخيرية ، وقيل قدمهما عليه للاهتمام بهما وكون الكلام سيق لأجلهما ، وقيل للتنبية على أن جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى لأنه من وظيفة الأنبياء^٣ ، وقيل قدما لأنهما فرع والإيمان أصل وفي الفرعية ضعف جبر بهذا التقديم .

وأرى أن التقديم لما في الأمر والنهي من مخاطرة ومشقة على النفس بخلاف الإيمان المجرد فلا مخاطرة فيه ، وصاحبه يستطيع كتمانها ، أما الأمر والنهي فهما طاعتان لهما طرفان : الأمر الناهي ، المأمور المنهي ، فهما جهاد عظيم وشاق ولذلك - و الله أعلم بسر كتابه - قدما على الإيمان .

ومن أسرار البيان القرآني هذه المقابلة اللطيفة بين قوله « تأمرون بالمعروف » وقوله « تنهون عن المنكر » وهذا الوصل حيث جاءت هذه الجمل الثلاث « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » موصولة بالواو وذلك للتوسط بين الكمالين مع وجود المناسبة المؤيدة للوصل وهي اتحادها في المخبر عنهم .

١ - البقرة : ٢٢٨ .

٢ - انظر الكشاف ، ٢٩٣/١ ، ٣٦٥/١ ؛ راجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص ٣٠٩ ؛ بدائع الفوائد ، ١٠٢/١ وما بعدها ؛ أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم ؛ أسرارها البلاغية ، ص ٣٨٧ بحث مخطوط للباحث بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى .

٣ - انظر روح المعاني ، ٢٨/٤ .

وجملة « ولو آمن أهل الكتاب » على الرغم من أنها مستأنفة إستئنافاً نحوياً فإن لها ارتباطاً بجملة « كنتم خير أمة » ووجه ارتباطها بما قبلها لتحذير المؤمنين من أن يكون مصيرهم مصير أهل الكتاب لأنهم تركوا الإيمان بالله فيكون تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب أولى .

والمراد بأهل الكتاب إما اليهود فتكون « آل » للعهد وإما اليهود والنصارى فتكون « آل » للاستغراق العرفي . وجاءت جملة « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » مفصولة عما قبلها لأنها وقعت جواباً عن سؤال نشأ من الجملة السابقة تقديره : « هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر فقيل : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .^١ فهذا فصلت عما قبلها لأن بين الجملتين شبه كمال الاتصال .

والفاسقون : جمع فاسق ، وهو مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة من قشرها إذا خرجت ، والفسق : الإفحاش والخروج عن طاعة الله ، وُعدت الكلمة من الألفاظ الإسلامية التي نقلت عن موضعها إلى موضع آخر بزيادات زيدت وشرائط شرطت ، وهي مثل من التطور اللغوي لدلالة الكلمات ^٢ ، فهي من الاستعارات التي تنوسيت حقائقتها لشهرتها وذيوعها .

وقد أطلق القرآن على الخارج عن طاعة الله وحدوده وشرائعه فاسقاً تشبيهاً له بالرطبة إذا خرجت عن قشرها فهو مبني على الاستعارة والعلاقة بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي هي مطلق الخروج من نظام ما .

ولا ننسى ما في التعبير بقوله « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » من طباق بديع يضيفي على اللفظ حسناً ويزيد المعنى وضوحاً تأنس به النفس .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٣٥/١ .

٢ - انظر الصحابي ، ص ٨٤ : المفردات ، ص ٣٨٠ : اللسان طبعة دار المعارف ، ٥/٣٤١٣ : مادة « فسق » : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٢/٣٢٢ .

وقال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآية الكريمة وعد الله الذي قطعه على نفسه للمؤمنين المهتدين الذين أطاعوا الله ورسوله بالاستخلاف في الأرض وبالتمكين لدينه القويم الذي ارتضاه لهم وبتبديل خوفهم أمناً ، موضحة أن هذا الوعد لن يتحقق لهم إلا بعبادة الله وحده وتنزيهه عن الشريك ، ثم تختتم الآية بالتهديد والوعيد الأكيد لأولئك الفاسقين الخارجين عن طريق الله القويم .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يستهل النظم الكريم مطلعته بكلمة « وعد » وهي كلمة تثير الانتباه بما تشيعه من دلالات موحية تبعث في النفس الطمأنينة والانشراح وفي الوجدان الفرح والسرور وبخاصة أن هذا الوعد من الله الذي لا يخلف الميعاد .

ووعد تستعمل في الخير ، وأوعد في الشر « قال الأزهري : كلام العرب : وعدت الرجل خيراً ووعدته شراً ، وأوعدته خيراً وأوعدته شراً ، فإذا لم يذكروا الخير قالوا : وعدته ولم يدخلوا ألفاً ، وإذا لم يذكروا الشر قالوا : أوعدته ولم يسقطوا الألف » . <٢>

وقد جاءت جملة « وعد الله الذين آمنوا ... » استئنافاً مقررراً لمضمون ما قبله في قوله تعالى « وإن تطيعوه تهتدوا » <٣> حيث صرح لهم بأثر الطاعة

١ - النور : ٥٥ .

٢ - انظر مقاييس اللغة ، ١٢٥/٦ : الصحاح ، ٥٥١/٢ : اللسان ، ٤٨٧٢/٦ مادة « وعد » .

٣ - النور : ٥٤ .

وبين تفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدينية التي هي من آثار
الاهتداء ومتضمناً لما هو المراد بالطاعة التي نيط الاهتداء بها . <١>

وفي التعبير بإسناد الوعد إلى الله سبحانه إشارة إلى تحققه ووقوعه
لا محالة فالله لا يخلف وعده ، وذلك يحمل على تصديقه والعمل بمقتضاه ، وفي
التعبير عن تعلق بهم الوعد باسم الموصول دون قولنا « المؤمنين » « ليفيد أنه
شامل لكل من تحققت فيه الصفات التي تنص عليها الصلة وهي الإيمان والعمل
الصالح ، فكل من اتصف بالإيمان بعد الكفر وعمل صالحاً فهو داخل في الوعد
مستحق له في كل زمان وكل مكان فلو قال « المؤمنين » لتوهم أن المقصود من هم
« مؤمنون » فعلاً وقت نزول الآية .

ففي التعبير بما عليه النظم الكريم ما يجدد الآمال دائماً لدى المسلمين
وينبهم إلى سبب ما يصيبهم عبر تاريخهم من انحسار سلطانهم وتآكل دولهم
وتداعي الأمم عليهم وسلبهم الأمن في أوطانهم وعيشهم في خوف دائم فإذا أرادوا
الخلافة في الأرض والأمن وتمكين دينهم ، فالسبيل واضحة أمامهم وسنة الله
تتاديهم : أن وقوا بواجبكم ليتحقق لكم ما تريدون ، كما أن فيها ترغيباً لغير
المسلمين في الإسلام ليحصلوا على ما تعدهم به « <٢> الآية الكريمة .

ومن روائع النظم القرآني التعبير عن الإيمان بالماضي « آمنوا » لأن
المضي في الشيء يقتضي الثبوت عليه وهو يريدون ثابتين عليه ، كما أن فيه إشارةً
إلى أن هذا الوعد لا يتحقق إلا بعد الإيمان والمضي فيه . <٣>

و « من » في قوله « منكم » بيانية عامة تشمل كل الأمة لترغيبهم فيما
يحقق لهم وعد الله ، خلافاً لما ذهب إليه أبو السعود بأنها للتبعيض ، ورفض أن

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٣٩/٤ .

٢ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٢٥ : راجع تفسير أبي السعود ، ١٣٩/٤ : مناهج الدعوة الدعوة
في القرآن الكريم ، ص ٢٠٨ بحث مقدم للحصول على درجة الماجستير كلية البنات بمكة المكرمة .

٣ - انظر مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢٠٨ .

تكون بيانية وشنع على القائلين بذلك بقوله « ومن جعل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولمن معه من المؤمنين خصوصاً على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل وأبعد عما يليق بشأنه عليه السلام بمراحل » . <١>

وفي الإقبال بالخطاب لهذه الأمة بقوله « منكم » تشریف لهذه الآية ، وقد زاد التشریف هذا الالتفات من الغيبة « الذين آمنوا » إلى الخطاب « منكم » حيث أضيفت « من » إلى ضمير المخاطبين لما في الخطاب من إشعار للمخاطب بقرب المتكلم ففي هذا من التكریم والتشريف ما لا يخفى ، وفي هذا التشریف أيضاً حث لمن هو كافر على الإيمان . <٢>

وتوسيط « منكم » بين المعطوفين « الذين آمنوا » و « وعملوا الصالحات » لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام ولإلياذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم ، فهو الأساس الذي لا تقبل الأعمال إلا إذا كانت صادرة عنه مرتكزة عليه <٣> وأضيف بأنه قد توسط بينهما للمسارعة ببث المسرة في نفوس المخاطبين ، ولإشعار بأن الإيمان صلة بينهم وبين الأعمال الصالحة خاصة وأن صفة الإيمان قد تقدمت على العمل الصالح ذلك أن الإيمان سبب في الأعمال الصالحة ، والسبب يسبق المسبب زمنياً فاقترضى تقديم الإيمان على الأعمال لأنها متسببة عنه ولأن المؤمن الحق يعمل الصالحات وهي جزء مما يتصف به ، أما من يعمل صالحاً فقد لا يكون مؤمناً والله أعلم بمراده « <٤> ، وبالإضافة إلى كل هذا فإن « منكم » تفيد أن الخطاب لأمة محمد ﷺ والفصل به

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤٠/٤ ؛ راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٥ .

٢ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٠٩ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤٠/٤ ؛ روح المعاني ، ٢٠٢/١٨ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٥ ؛ مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٧٢ .

٤ - مناهج الدعوة ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

بين المتعاطفين للاهتمام ، ويكون التعبير بالجملة الفعلية لتدخل الأجيال اللاحقة في هذا الوعد .

أما قوله « وعملوا الصالحات » فقد أضاف صفة ثانية لمن وعدهم الله بهذا الوعد الكريم ، وهو معطوف على « آمنوا » وداخل معه في حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التي أمر بها ورتب عليها ما نظم في سلك الوعد الكريم . <١>

والتعريف في « الصالحات » للاستغراق العرفي أي عملوا ما استطاعوا من الصالحات ، ونلاحظ أن البيان القرآني قد عرف الصالحات وجمعها لكي يشعر كل مؤمن أنه بإمكانه الإتيان بشيء منها فلو قصرها على نوع معين لما تيسر إتيانها للجميع ، ولكي يكثر المؤمن منها فيزداد فرحة وغبطة لقرب تحقق الوعد المنتظر فيسعى للإكثار منها فتزداد طرق الصالحات والخير . <٢>

والوصل بين هذه الجملة وما قبلها « الذين آمنوا » للتوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود المناسبة المؤيدة للوصل .
بعد ذلك يبدأ النظم القرآني بذكر أول الوعود التي وعدهم الله بها فذكر أول وعد في قوله « ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » .

والاستخلاف مشتق من مادة « خلف » فيقال لمن خلف آخر فسد مسدّه خلف فلان فلاناً إذا كان خليفته وقائماً بالأمر عنه إما معه وإما بعده قال تعالى « وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي » <٣> وقوله تعالى « ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » <٤> ، والخلافة : النيابة عن الغير إما لغيبة

١ - تفسير أبي السعود ، ١٤٠/٤ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٨٣/١٨ : مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٠٩ .

٣ - الأعراف : ١٤٢ .

٤ - الزخرف : ٦٠ .

المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض . <١>

واستخلاف الله للإنسان تشريف له وهو قديم منذ أن أمر الله آدم بالهبوط إلى الأرض ، لذلك نجد القرآن يربط بين هذه الحقيقة والإيمان بالله . <٢>

وأورد الزمخشري وتابعه بعض المفسرين رأيين حاول من خلالهما إبراز السر البلاغي لكلمة « ليستخلفنهم » .

الأول : أنها جواب لقسم محذوف تقديره : وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم ، ويكون مفعول الوعد محذوفاً تقديره وعدهم الاستخلاف والتمكين دل عليه جواب القسم .

الثاني : نُزِلَ وعد الله لتحقيقه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قيل : أقسم الله لسيخلفنهم . <٣>

والذي أرتضيه الرأي الثاني لأنه الأقوى « لأن الله لو أراد أن يقسم جرياً على عادة العرب لأقسم - والقرآن كما نعلم مليء بالقسم - لكنه و الله أعلم بمراده أثر عدم القسم وأنزل وعده منزلة القسم للإشعار بأنه متحقق لا محالة لمن يتصف بهذه الصفات المذكورة » . <٤>

وبتأمل هذه الكلمة نراها قد أضيفت إلى ضمير الغائبين « ليستخلفنهم » للإشارة إلى أن « الاستخلاف جار مجرى الزمان والمكان وليس مقصوراً على

١ - راجع المفردات ، ص ١٥٥ ؛ بصائر ذوي التمييز ، ٥٦٢/٢ ؛ معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٣٦٥/١ ؛

مقاييس اللغة ، ٢١١/٢ والصحاح ١٢٥٦/٤ ؛ اللسان ، ١٢٣٥/٢ مادة « خلف » .

٢ - انظر مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢١٠ .

٣ - انظر الكشاف ، ٧٣/٣ وما بعدها ؛ الفتوحات الإلهية ، ٢٣٥/٣ ؛ البحر المحيط ، ٤٦٩/٦ ؛ التفسير

الكبير ، ٢٦/٢٢ ؛ تفسر أبي السعود ، ١٤٠/٤ ؛ حاشية الشهاب ، ٣٩٧/ .

٤ - مناهج الدعوة ، ص ٢١١ .

المخاطبين في زمانهم ومكانهم ، ثم نجد القرآن قد انتقل من الخطاب إلى الغيبة بقوله « كما استخلف الذين من قبلهم » ليشمل هذا الجزء جميع الأزمنة ، الماضي في قوله « الذين من قبلهم » والحاضر في قوله « منكم » حيث الكاف للخطاب ، والمستقبل في قوله « ليستخلفنهم » فهو للمضارع ، وفي إيجاز بليغ ^١ لا يتوفر مثله لغير هذا البيان القرآني المعجز .

أما قوله « في الأرض » فليس المراد منه موضعاً بل جميعها ، فالأرض لمن استحق الخلافة يحققون فيها منهج الله وشريعته ، ويقررون العدل الذي أراده الله .
« ووصف الاستخلاف بجملة « كما استخلف الذين من قبلهم » للإشعار بتحقق وقوعه حيث وقع له نظير قبل ذلك » . ^٢

وفي هذا القول الكريم تأكيدات كثيرة تخللت تفصيلات الوعد الكريم فأبرزته ثابتاً محققاً أكسبته جزالة وقوة ، وجعلت له وقعاً يأخذ بمجامع القلوب ، منها « القسم المحذوف الذي دخلت اللام على جوابه تقديره : وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم ، ثم باللام الداخلة على جواب القسم ، ثم بنون التوكيد الثقيلة المتصلة بالفعل ثم بما ذكره من تنظير يؤكد تحقق وعده لهم لأنه قد تحقق لمن قبلهم من المؤمنين « كما استخلف الذين من قبلهم » وهم الأمم التي أشار إليهم بقوله « ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات » إلى قوله تعالى « فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم » . ^٣

فالمقام هنا يقتضي كل هذه التأكيدات لأهمية الوعد وتمكين الثقة به في النفوس ترغيباً لها في الإيمان . ^٤

١ - المرجع السابق الموضع نفسه .

٢ - مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٧٢ .

٣ - ابراهيم : ٨ - ١٤ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤/١٤٠ : أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٦ و ص ٣١٥ وما بعدها .

وقد حوى قول الحق - جلت عظمته « وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » ثاني الوعود التي وعدهم بها وهو تمكين الدين أي جعله ثابتاً محققاً بحيث يستمرون على العمل بأحكامه ويرجعون إليه في كل ما يأتون وما يذرون ، ففي التعبير عن هذا بالتمكين الذي هو جعل الشيء مكاناً لآخر يقال مكن له في الأرض أي جعلها مقراً له إستعارة تبعية حيث استعار التمكين لمعنى التثبيت للدلالة على كمال ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتثائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والقرار مع ما فيه من مراعاة المناسبة بينه وبين الاستخلاف في الأرض ، ثم إن تقديم الجار المجرور « لهم » على المفعول الصريح وهو « دينهم » للمسارعة إلى بيان كون الموعد به من منافعهم تشويقاً لهم إليه وترغيباً لهم في قبوله عند وروده ، وفي إضافة الدين إليهم وهو دين الإسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه . <١>

وتأمل جمال هذا القيد وما يوحى به حيث وصف الحق سبحانه هذا الدين بقوله « الذي ارتضى لهم » ليشير إلى علو هذا الدين وفضله ، وحتى لا يدع فرصة للشك في ماهيته ، كما أن في التعبير عن الرضا بصلة الموصول تقوية للمعنى فهو معروف لديهم لأنهم مؤمنون به على ما ينبيء عنه قوله « الذين آمنوا » .

ولعل السر من وراء إثارة التعبير عن الرضا بقوله « ارتضى » لما توحى به هذه الصيغة من « التراضي » التام بين الطرفين ، وهذا الرضا قد تم من الطرفين فاعل الرضا ، ومن رضى عنه ، وهذا دليل على الاقتناع ، وعبر عنه بصيغة الماضي لأنه حدث وقع مع الاستمرار لأنه أصبح حقيقة ، وأتى بالمتعلق لأهميته وإشعارهم بخصوصية هذا الرضا فهو « لهم » أي لكل مؤمن ولكل من اعتنق الإسلام . <٢>

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤١/٤ ؛ روح المعاني ، ٢٠٣/١٨ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٢٦ .

٢ - مناهج الدعوة ، ص ٢١٢ وما بعدها .

وقد قدّم البيان القرآني الاستخلاف في الأرض على تمكين الدين مع أنه « من أجلّ الرغائب الموعودة وأعظمها لأن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل فتصدير المواعيد بها أدخل في الترغيب » ^{<١>} ونضيف أن الاستخلاف يحمي التمكين للدين .

ثم يعطف النظم القرآني بعد ذلك الوعد الثالث « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » حيث جاءت هذه الجملة وما قبلها معطوفة بالواو على جملة « ليستخلفنهم » وذلك للتوسط بين الكمالين مع وجود المناسبة المصححة للوصل وهي اتحاد المتحدث عنهم .

« وفي هذا السياق نجد التأكيد المناسب لمقام الاهتمام بالمؤكد والحرص على تمكينه في القلوب ، والتعبير بالتبديل مشعر بما هم فيه من خوف دائم ينغص حياتهم ويسلبهم الراحة والاستقرار ، يوميء إلى عظم نعمة الأمن التي يعدهم بها وقد تحقق لهم . ^{<٢>}

وقد راعى القرآن في تقديم الخوف على الأمن الزمن حيث تدرج زمنياً من الحالة التي كانوا عليها وهي حالة الخوف إلى حالة الأمن التي أصبحوا فيها .

ونلاحظ أن التعبير عن الخوف قد جاء في سياق الجار والمجرور « من بعد خوفهم » ولم يأت اسماً صريحاً كقولنا « وليبدلن خوفهم » للإشعار بأن الخوف قد زال نهائياً ولم يبق له أثر وأن الأمن قد حلّ محله فقال « من بعد خوفهم » ولو أتى اسماً بدون متعلق لتوهم أنه لم يزل زوالاً نهائياً ، وفي إضافة الخوف إليهم إشعار بمدى هذه النعمة وإشارة إلى أنه خوف مقرر معروف . ^{<٣>}

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤١/٤ ؛ مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٧٢ .

٢ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٧ .

٣ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢١٤ ؛ التحرير والتنوير ، ص ٢٨٧/١٨ .

ويلاحظ ما في التعبير بقوله « من بعد خوفهم أمناً » من طباق لطيف يؤكد المعنى ويظهر نعمة الأمن بعد الخوف الذي كان يحيط بهم ، وتنكير « أمناً » للتعظيم والتفخيم المناسب لمقام الترغيب . <١>

أما جملة « يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » فهي إما حال من الموصول في قوله « وعد الله الذين آمنوا منكم » وهي تفيد تقييد الوعد بالثبات على عبادة الله وتوحيده ، وإما جملة مستأنفة لبيان المقتضى للاستخلاف وما انتظم معه في سلك الوعد الكريم ، وهذا سر فصلها عما قبلها لأنها لا تتبعها في الإعراب حيث إن ما قبلها « وليبدانهم من بعد خوفهم أمناً » معطوفة على جواب القسم « ليستخلفنهم » . <٢>

وجملة « لا يشركون بي شيئاً » حال من الضمير في يعبدونني تقديره : يعبدونني غير مشركين بي في العبادة شيئاً كما نص على ذلك أبو السعود وتابعه بعض المفسرين . <٣>

وقد فصلت جملة « لا يشركون بي شيئاً » عما قبلها « يعبدونني » لكمال الاتصال لأن الجملة الثانية جاءت مؤكدة للأول أو بياناً لها .

ومن الأسرار البيانية في هذه الجملة التعبير بالمضارع « يعبدونني » لإفادة التجدد والاستمرار فالعبادة تتجدد في الأوقات <٤> ، وأتى بالفاعل ضميراً وهو واو الجماعة ، الذي يعود على « الذين آمنوا » توخياً للإيجاز ، وأتى المفعول به

١ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٧ ؛ مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٧٣ .

٢ - انظر الكشاف ، ٧٤/٣ ؛ تفسير أبي السعود ، ١٤٢/٤ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٧ ؛ مناهج الدعوة ، ص ٢١٦ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤٢/٤ ؛ الفتوحات الإلهية ، ٢٣٥/٣ ؛ حاشية الشهاب ، ٣٩٧/٦ ؛ روح المعاني ، ٢٠٤/١٨ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٨٨/١٨ ؛ مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٧٣ .

« ضميراً » يعود على المتكلم ولم يأت اسماً ظاهراً ليبين للمخاطبين أن فاعل الوعد هو الذي يتكلم عن نفسه فهو المستحق وحده للعبادة ، وليطمئن المؤمنين بقربه ولذلك قال « بي » ولم يقل « به » استمراراً في بث الطمأنينة في نفوس المخاطبين وترقيق نفوسهم ، وفي الانتقال من الغيبة « وعد الله » إلى التكلم « يعبدونني » التفات وإيقاظ للسامعين ليشعرهم بقربه . <١>

وتنكير « شيئاً » للتحقير من شأن أي شيء يعبد مع الله فهو حقير مهما كان كبيراً أو صغيراً ، فهو يفيد نفي عموم الشركاء أيأ كان نوعهم لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ما عدا الله تعالى من أشخاص وأشياء وأهواء وذلك للإشارة إلى وجوب اخلاص النية وتطهير القلب من كل ما يشوب التوحيد ظاهراً وباطناً . <٢>

وبعد أن رغبت الآية الكريمة في الإيمان مبينة للوعود التي وعد الله بها عباده المؤمنين اتجهت إلى التحذير والترهيب من الكفر موضحة ما هية الذين يكفرون في قوله تعالى « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ومن اسم موصول بمعنى الذي ، وقد أثر النظم القرآني التعبير عن الكفر بالصلة ليقوى المعنى حيث جاء في صيغة الماضي « كفر » للإشارة إلى ثبوته واستمراره عليه وعدم تأثره بما في الآيات من الترهيب والترغيب فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف <٣> ، وقد فُسر الكفر بالكفر بعد الإيمان أو كفران النعمة ، ورجح أبو السعود الأول لأنه الأنسب بالمقام . <٤>

١ - انظر مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

٢ - انظر المرجع السابق ، ص ٢١٨ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٧ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤٢/٤ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٣٧ ؛ مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢١٨ .

٤ - انظر الكشاف ، ٧٤/٣ ؛ البحر المحيط ، ٤٧٠/٦ ؛ تفسير أبي السعود ، ١٤٢/٤ .

والتعبير بالظرف واسم الإشارة للبعيد « بعد ذلك » إشارة إلى علو منزلة الوعد وعظمة شأنه المستوجب لغاية الاهتمام بتحصيله والسعي لحيازته . <١>

وقد جاءت هذه الجملة معطوفة ، بالواو على جملة « لا يشركون بي شيئاً » للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظاً ومعنى .

وجملة « فأولئك هم الفاسقون » تحذير بعد البشارة على منهج القرآن في تعقيب التبشير بالإندار ، جيء بها للحكم عليهم بالفسق ، ونلاحظ أن هذه الجملة جاءت معطوفة على ما قبلها بالفاء لتفيد الترتيب مع التعقيب فليس هناك تراخ في الحكم بعد الكفر بل هم فاسقون ، لذلك جاء التعبير باسم الإشارة للبعيد « أولئك » وبضمير الفصل « هم » وتعريف الخبر بلام الجنس مع إفادته للحصر إشارة إلى عظم جرمهم بكفرهم وتشنيع عليهم ، وإلى تمييزهم بصفة الفسق أكمل تمييز واختصاصهم بها فهم المتناهون الكاملون في الفسق والخروج عن حدود الكفر والطغيان . <٢>

١ - راجع تفسير أبي السعود ، ١٤٢/٤ : مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢١٨ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ١٤٢/٤ : التحرير والتنوير ، ٢٨٨/١٨ : مناهج الدعوة في القرآن الكريم ،

ص ٢١٩ ؛ مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٧٣ .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب الأليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات الكريمات يرغب الله عباده المؤمنين ويشوقهم إلى تجارة تنجيهم من عذابه الأليم ، حيث أمرهم بالإيمان به و برسوله الكريم والجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم ، ثم بين مالهم من جزاء إن فعلوا ذلك بقوله « يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار في جنات عدن ومساكن طيبة ذلك الفوز العظيم » فالفوز بالجنة فوز عظيم لا مزيد عليه ، وما في هذا التعبير من حث وترغيب بحيث لا يخفى .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

تبدأ هذه الآيات بإيقاظ المخاطبين وتنبيههم إلى ما سيلقى عليهم بهذا النداء « يا أيها الذين آمنوا » ففي إقبال الله على المخاطبين ووصفهم بالإيمان تشريف وتكريم عظيم للمؤمنين ، وحث لغيرهم على الانضمام إلى هذه الجماعة كي يحظى من أقبال على الإيمان بنصيب له من هذا الإقبال والتكريم . <٢>

و « ياء » حرف وضع لنداء البعيد ، و « أي » وصلة لنداء ما فيه « أل » وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه فإذا ما جاء الموضح قرأ في النفس ، وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتقرير .

١ - الصف : ١٠ - ١٢ .

٢ - انظر وجوه الخطاب في القرآن الكريم ومواقعها البلاغية ، ص ٢٠٥ ، بحث مخطوط مقدم لنيل درجة الدكتوراه بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر وراجع البرهان ، ٢/٢٢٨ : الاتقان ، ٣/١٠٠ .

ولم يستعمل البيان القرآني من أدوات النداء سوى الياء ، وقد علل الزمخشري وكشف عن الأسرار البلاغية من وراء شيوع هذه الطريقة في النداء القرآني بقوله « فإن قلت لمكثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره ؟ قلت : لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيهِ وعظاته وزواجره ووعدهِ ووعدهِ واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليها وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ ^{<١>} ، فكأن في النداء « بياء » الموضوع للبعيد تنويهاً بشأن المنادى من أجله .

والتعبير بالاستفهام « هل أدلكم » للتشويق والترغيب في الإيمان ^{<٢>} ، وجيء بالفعل « أدلكم » لإفادة أن ما يذكر بعده هو من الأشياء التي لا يهتدى إليها بسهولة ^{<٣>} ، كما أن مادة الفعل تفيد الهداية مع دليلها .

أما الضمير المستتر في « أدلكم » فالظاهر أن يعود إلى الله تعالى لأن الخطاب موجه منه سبحانه إلى المؤمنين ، ويجوز أن يعود إلى النبي ﷺ على تقدير قول محذوف تقديره « قل هل أدلكم » والأول أظهر .

وتنكير التجارة يفيد التعظيم بالإضافة إلى ما تثيره النكرة في هذا المقام من التشويق والرغبة في معرفة هذه التجارة المنجية من عذاب الله ^{<٤>} ، أما سر مجيئها نكرة فلأنها غير معلومة لهم ، ولم يكن لهم بها سابق عهد .

١ - الكشاف ، ٢٢٦/١ ؛ انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري الطبعة الثانية ، ص ٣٧٩ ؛

البرهان ، ٣٢٤/٢ ؛ الإتيان ، ٢٤٧/٣ وما بعدها ؛ معترك الأقران ، ٤٤٨/١ وما بعدها ؛ من أسرار

التعبير في القرآن للدكتور عبدالفتاح لاشين ، ص ١٧٦ .

٢ - انظر أساليب الاستفهام في القرآن ، ص ١٠٣ ؛ التحرير والتنوير ، ١٩٤/٢٨ ؛ أساليب بلاغية

للدكتور أحمد مطلوب ، ص ١٢٤ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٩٤/٢٨ .

٤ - من بلاغة القرآن ، ص ١٣٠ .

وفي التعبير بالتجارة عن العمل الصالح إستعارة تصريحية أصلية لمشابهة العمل الصالح التجارة في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكد فيه ، ويجوز أن يكون إستعارة تمثيلية .

أما جملة « تنجيكم من عذاب أليم » فهي في محل جر صفة للتجارة ، ووصفها بأنها تنجي من العذاب الأليم تجريد للاستعارة - فالإنجاء من العذاب ليس من شأن التجارة وإنما هو من مناسبات المعنى الحقيقي للعمل الصالح - جيء به لقصد الصراحة بهذه الفائدة حثاً لهم على الإكثار من الأعمال الصالحة . <١>

وفي إسناد الإنجاء إلى التجارة مجاز عقلي علاقته السببية ، أو إستعارة مكنية شبه التجارة بإنسان أو بذي إرادة ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الإنجاء .

وفي التعبير بقوله « عذاب أليم » مجاز عقلي أي عذاب مؤلم لكم فيه مؤنزه بكم ، فالمؤلم ليس هو العذاب وإنما هو المعذب <٢> ، وتنكيره يفيد التعظيم والتهويل ، ووصفه بأليم زيادة في الترهيب والتحذير من هوله وشدته .

ولعلك تلحظ في هذا السياق أن « الله سبحانه هو الذي يسأل عباده المؤمنين ويشوقهم إلى الجواب في قوله « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » ومن ذا الذي لا يشترق لأن يدلّه الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهي الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق ، ثم يأتي الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع <٣> ، « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » فهذه الجملة - كما نعلم - جملة مستأنفة إستئنافاً بيانياً ولذلك فصلت عن الجملة السابقة لأنها وقعت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى تقديره

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٩٤/٢٨ .

٢ - انظر خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٧٢ وما بعدها .

٣ - في ظلال القرآن المجلد السادس ، ص ٣٥٥٩ .

« قالوا كيف نعمل أو ماذا نصنع ؟ قيل : تؤمنون بالله وتجاهدون في سبيله » <١>
 فبين الجملتين شبه كمال الاتصال ، ويجوز أن تكون هذه الجملة بياناً للجملة
 السابقة فيكون بين الجملتين كمال الاتصال .

ومن روائع البلاغة القرآنية في هذا النظم الكريم التعبير بالمضارع الدال
 على التجدد والاستمرار « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله » فهو خبر
 في معنى الأمر جيء به على صورة الخبر « للإيذان بوجوب الامتثال وكأنهم امتثلوا
 فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين » <٢> ويؤيده قراءة عبدالله بن مسعود
 « آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا » . <٣>

وتقديم الله على الرسول للفضل والشرف أو لأن الإيمان بالله هو الأصل
 وما عداه تابع ، أما السر من وراء تقديم الإيمان على الجهاد فهو للسبق لأنه
 الأصل ، أما تقديم الأموال على النفس فلعزتها في ذلك الوقت أو لأنها قوام النفس
 أو لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق . <٤>

« ذلكم » يعني ما ذكر من الإيمان والجهاد ، والتعبير باسم الإشارة
 « ذلكم » الموضوع للبعيد للإشارة إلى علو الإيمان بالله والجهاد في سبيله ،
 وللتنويه بفضل المشار إليه تنزيلاً لبعيد المكانة منزلة بعد المكان ، وهو مبتدأ ، خبره
 « خير لكم » أي هذا الفعل خير لكم على الإطلاق ، فجمع التعبير بقوله « خير
 لكم » خيري الدنيا والآخرة . <٥>

١ - تفسير أبي السعود ، ٢٢٥/٥ .

٢ - الكشاف ، ١٠٠/٤ ؛ راجع التفسير الكبير ، ٣١٨/٢٩ ؛ البحر المحيط ، ٢٦٣/٨ ؛ تفسير أبي
 السعود ، ٢٢٥/٥ ؛ الفتوحات الإلهية ، ٢٣٨/٤ ؛ حاشية الشهاب ، ١٩٣/٨ ؛ فتح القدير ، ٢٢٢/٥ ؛
 حاشية زاده ، ٤٩١/٤ ؛ أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص ٣٩٠ بحث
 مخطوط للباحث بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى .

٣ - انظر الكشاف ، ١٠٠/٤ ؛ البحر المحيط ، ٢٦٣/٨ .

٤ - الفتوحات الإلهية ، ٢٣٩/٤ .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٢٥/٥ ؛ فتح القدير ، ٢٢٢/٥ ؛ التحرير والتنوير ، ١٩٥/٢٨ .

ثم يختتم النظم الجزيل هذه الآية بقوله « إن كنتم تعلمون » أي إن كنتم من أهل العلم فإن الجهلة لا يُعتدّ بأفعالهم أو إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيراً لكم لأنكم إن علمتم ذلك واعتقدتموه أحببتهم بالإيمان والجهاد فوق ما تحبون أنفسكم وأموالكم فتفلحون » ^١ ، ولا يخفى ما في هذه الجملة الشرطية من إلهاب وتهييج نحو المطلوب ، ومفعول تعلمون محذوف إما لتنزيل الفعل المتعدي منزلة اللازم لقصد التعميم وإما للاختصار ورعاية الفاصلة .

ومجيء الفعل « يغفر مجزوماً لوقوعه في جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ، وقد أشار الفراء * إلى أن السبب في جزمه لوقوعه في جواب « هل أدلكم » ^٢ ووافقه الزمخشري قائلاً بأن « متعلق الدلالة هو التجارة ، والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد فكأنه قيل : هل تتجرون بالإيمان والجهاد . » ^٣

وقد ردّ كثير من المفسرين هذا القول حيث يقول أبو السعود « وجعله جواباً لهل أدلكم بعيد لأن مجرد الدلالة لا يوجب المغفرة » . ^٤

ولعل إثارة التعبير بالفعل « يغفر » الدال بجرسه السريع وحركاته المتوالية وخفته على اللسان - مع دلالاته على الاستمرار - مناسب لهذه السرعة التي

١ - تفسير أبي السعود ، ٢٢٥/٥ ؛ راجع الكشاف ، ١٠٠/٤ .

٢ - انظر معاني القرآن للفراء ، ١٥٤/٣ .

* هو أبوزكريا يحيى بن زياد بن عبدالله الديلمي المعروف بالفراء ولد سنة ١٤٤ وتوفي سنة ٢٠٧ ، امام مدرسة الكوفة في وقته ، وكان أعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، كان يقال : الفراء أمير المؤمنين في النحو ، من آثاره : معاني القرآن ، والمصادر في القرآن ، وآلة الكتاب ، والمقصود والممدود وغيرها . انظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ص ١٣١ - ١٣٢ ؛ بغية الوعاة للسيوطي ، ٣٣٣/٢ ؛ وفيات الأعيان ، ١٧٦/٦ - ١٨٢ ؛ الأعلام ، ١٤٥/٨ - ١٤٦ ؛ معجم المؤلفين ، ١٩٨/١٣ - ١٩٥ .

٣ - الكشاف ، ١٠٠/٤ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٢٢٥/٥ ؛ راجع الإنصاف ، ٩٩/٤ وما بعدها ؛ تفسير البيضاوي ؛ حاشية الشهاب ، ١٩٣/٨ ؛ حاشية محي الدين زاده ، ٤٩١/٤ .

اقتضاها المقام وهي تعجيل المسرة للمخاطبين بمغفرة ذنوبهم ، وبأنها تتجدد في كل الأحوال ، كما أن تقديم الجار والمجرور « لكم » على المفعول به « ذنوبكم » للمسارعة أيضاً إلى بث المسرة في نفوس المؤمنين .

وتتكير « جنات » للتفخيم والتعظيم ، وفي إسناد الجري إلى الأنهار مع أن الماء يجري فيها مجاز عقلي علاقته المكانية ، وهذا التعبير دون ريب يشعرك بتدفق الماء وانحداره وسرعة جريه حتى لكأن المكان كله يجري .

والمساكن الطيبة هي القصور التي في الجنة قال تعالى « ويجعل لك قصوراً » ^١ وقد أثر النظم المعجز التصريح بالمساكن في هذا السياق لأن في الجهاد مفارقةً لمساكنهم فوعدهم الله على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية قال تعالى « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ... » إلى قوله « ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله » . ^٢

وقد فصلت جملة « ذلك هو الفوز العظيم » لأنها نُزِلت مما قبلها منزلة بدل الاشتمال فهي هي الفوز العظيم ، فبين الجملتين كمال الاتصال . وأل في « الفوز » لتعريف العهد أو للاستغراق .

١ - الفرقان : ١٠ .

٢ - التوبة : ٢٤ ؛ انظر التحرير والتنوير .

الفصل الأول
المبحث الثاني
الترهيب من الكفر
في القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترهيب من الكفر

لقد أفاض القرآن في الحديث عن الكفر وحذر من المصير المؤلم الذي ينتظر الكفرة في كل أمة وجيل ، فإذا كان اريمان نوراً وهدى وأهناً فإن الكفر ظلام وضلال وموت وقلق واضطراب ، وإذا كان الله - ورسوله - ولي المؤمنين فإن الشيطان ولي الذين كفروا يخرجهم من النور إلى الظلمات ، ومن كان الشيطان وليه فقد خسر الدنيا والآخرة وتكب سواء الصراط .

وقد سلك القرآن مسالك شتى للترهيب من الكفر وأهله ، فكشف جنايا نفوسهم وتأصل الكفر فيها « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » وقضى عليهم باللعة الدائمة منه ومن خلقه في الأرض وفي السماء « أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » وعمد إلى السخرية منهم والاستهزاء بهم « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » « ذوقوا مس سقر » « اخسأوا فيها ولا تكلمون » وهددهم وتوعدهم بعذابه الأليم « فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » وصور أعمالهم وعدم انتفاعهم بها وذهابها ببداء لأنها لم تقم على أساس من الإيمان بالله في صورة سراب خادع يحسبه الظمان الشديد العطش ماءً حتي إذا جدّ في الوصول إليه لم يجده ماءً ووجد الله عند فوفاه حسابه ، أو في صورة رماد تطيره الريح في يوم عاصف .

وعمد القرآن إلى التصوير البياني للترهيب من الكفر حيث صور الكافر وهو يتردى في بؤر الهلاك والضياع بمن خر من السماء فتخطفه الطير وتمزقه أشلاءً أو تهوي به الريح في مكان سحيق .

وللترهيب من الكفر عرض القرآن لجزاءات المعذبين فبين أن من مات على الكفرة فجزاؤه جهنم خالداً « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » وبين ما أعدّه لهم من صفوف العذاب في نار جهنم حيث يقرن بعضهم إلى بعض في السلاسل والأصفاد ، وثيابهم من نار ومن قطران ، ولهم مقامع من حديد ، أما طعامهم فهو الغسلين لا يأكله إلا الخاطئون ، وشرابهم الحميم والغساق يقطع أمعائهم أجارنا الله من النار .

في هذا المبحث نكتفي بذكر بعض النصوص القرآنية نستجلي لطائفها البلاغية وصورها البلاغية .

قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ء أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تتحدث الآيات عن إعراض الكفار عن سماع دعوة الرسول ﷺ ، وشدة تصميمهم على الكفر وتأصله في نفوسهم باستواء الإنذار وعدمه ولذلك قضى الله عليهم - في سابق علمه - بعدم الإيمان ونفاه عنهم ، ثم تكشف الآيات عن سطوة القدرة الربانية في تعطيل حواس الكفرة وطمسها لعدم انتفاعهم بها ، وامتناعهم من نفاذ الحق إليها ، ثم تختم بالوعيد الشديد بأن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

تصدير هذه الآيات بحرف التأكيد « إن » « إما مجرد الاعتناء والاهتمام بالخبر دون رد الإنكار أو الشك لأن الخطاب للنبي ﷺ وللأمة ، وإما أن تكون « إن » هنا لرد الشك تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن حرص النبي ﷺ على هداية الكافرين تجعله لا يقطع الرجاء في نفع الإنذار لهم وحاله كحال من شك في نفع الإنذار ، أو لأن السامعين لما أجرى على الكتاب من الثناء ببلوغه الدرجة القصوى في الهداية يطمعهم أن يؤثر هدايته للكافرين المعرضين وتجعلهم كالذين يشكون في أن يكون الإنذار وعدمه سواء فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ونزل غير الشاك منزلة الشاك » . <٢>

وتعريف الموصول إما للعهد والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم ، وإما للجنس فيكون متناولاً لكل من صمم على الكفر

١ - البقرة : ٦ - ٧ .

٢ - التحرير والتنوير ، ٢٤٨/١ ، وراجع روح المعاني ، ١٢٦/١ .

تصميماً لا يرعوي بعده ، وغيرهم ، ودلّ على تناوله للمصرين الحديث عنهم
 باستواء الإنذار وعدمه لديهم . <١>

وسواء : اسم بمعنى الاستواء فهو اسم مصدر دل على ذلك لزوم إفراده
 وتذكيره مع اختلاف موصوفاته ومخبراته فإذا أخبر به أو وصف كان ذلك كالمصدر
 في أن المراد به معنى اسم الفاعل لقصد المبالغة ، وعليهم جار ومجرور متعلق
 بسواء ومعناه عندهم ، ويبدو - والله أعلم بمراده - أن السر من وراء تعديّة سواء
 بعلى هنا ولم يعلق بعند للإشارة إلى تمكن الاستواء عند المتكلم وأنه لا مصرف له
 عنه ولا تردد له فيه فالمعنى سواء عندهم الإنذار وعدمه . <٢>

وقد تعددت آراء المفسرين في إعراب سواء فقليل : إنه خبر لإن ، وأنذرتهم
 أم لم تنذرهم في موضع المرتفع به على الفاعلية كأنه قيل : إن الذين كفروا مستو
 عليهم إنذارك وعدمه ، أو تكون جملة « أنذرتهم ... » في محل رفع مبتدأ ، وسواء
 خبراً مقدماً بمعنى : سواء عليهم إنذارك وعدمه والجملة خبر لإن . <٣>

وتأمل دقة البيان القرآني وروعته حيث عبر بضمير الغائب « عليهم » دون
 المخاطب « عليك » للإشارة « إلى أن الإنذار وعدمه ليسا سواء لديه ﷺ لفضيلة
 الإنذار الواجب عليه على تركه ، كما أن العدول إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد
 والتوصل إلى إدخال الهمزة ومعاد لها عليه لإفادة تقرير معنى الاستواء وتأكيد
 كما أشير إليه ، والاقتصار على الإنذار دون البشارة لأنهم ليسوا بأهل لها أصلاً ،
 ولأن الإنذار أوقع في القلوب وأشد تأثيراً ، فإن رفع المضار أهم من جلب المنافع ،
 فحيث لم يتأثروا به فلأن لا يرفعوا للبشارة رأساً أولى » . <٤>

١ - انظر الكشاف ، ١٥٠/١ ، وتفسير أبي السعود ، ٦٢/١ ، وحاشية البيضاوي ، ٢٦٢/١ ، وحاشية
 زاده ، ١٠٧/١ .

٢ - انظر الكشاف ، ١٥٠/١ ، وتفسير أبي السعود ، ٦٣/١ ، والتحرير والتنوير ، ٢٤٩/١ .

٣ - انظر الكشاف ، ١٥٠/١ ، وتفسير أبي السعود ، ٦٣/١ ، وإعراب القرآن وبيانه ، ٢٨/١ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٦٣/١ ، وراجع خصائص التشبيه في سورة البقرة ، ص ٤٠ .

وفي هذا التعبير القرآني نجد الاستفهام بالهمزة وأم قد أفاد معنى التسوية ، فلفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر كما صرح بذلك أبو علي الفارسي . <١>

وفي دراسة لأحد الباحثين عن التشبيه القرآني في سورة البقرة جعل التشبيه في هذه الآية بين الإنذار وعدمه قائلاً « فالمشبه هو الإنذار للذين كفروا ، والمشبه به عدم الإنذار ، والأداة سواء ، أي أن إنذارهم يشبه عدم إنذارهم في كونهم لا يؤمنون » . <٢>

ولا شك أن جعل التشبيه بين الإنذار وعدمه بعيد فيه تكلف لأن الإنذار وجودي وعدم الإنذار عدمي ، غير أنه من الممكن جعله من باب تنزيل الموجود منزلة العدم ، وتشبيه الموجود بالعدم من إبداعات التمثيل البلاغي ، وله أسرار البلاغية وفي هذا الصدد يقول الشيخ عبدالقاهر « والقول الجامع في هذا أن تنزيل الوجود منزلة العدم إذا أريد المبالغة في حط الشيء والوضع منه ، وخروجه عن أن يعتد به كقولهم : هو والعدم سواء ، معروف متمكن في العادات ، وربما دعاهم الإيفال وحب السرف إلى أن يطلبوا بعد العدم منزلة هي أدون منه » . <٣>

أما قوله « لا يؤمنون » فهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هم لا يؤمنون <٤> ، وفي هذا التعبير القرآني دقائق وأسرار بلاغية منها حذف المسند إليه إما للاختصار وإما تحقيراً لشأنهم ، وصوناً للسان عن ذكره ، ومنها التعبير بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار « لا يؤمنون » للإشارة إلى انتفاء

١ - انظر الحجة في علل القراءات السبع ، ١٩٨/١ ، وراجع الكشاف ، ١٥٢/١ ، وما بعدها وتفسير أبي السعود ، ٦٣/١ ، والتفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم للدكتور : عبدالعظيم المطعني ، ص ٩ ، وما بعدها وأساليب بلاغية ، ص ١٢٣ .

٢ - خصائص التشبيه في سورة البقرة ، ص ٢٦ ، وانظر شروح التلخيص ، ٣٩٢/٢ .

٣ - أسرار البلاغة ٧٦ ، تحقيق محمود شاكر .

٤ - انظر فتح القدير ، ٣٩/١ .

حدوث الإيمان منهم في الحاضر والمستقبل ، ففي هذه الآية إخبار بالغيب وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

وقد جاءت هذه الجملة مستأنفة إستئنافاً بيانياً ولذلك فصلت عما قبلها لأنها وقعت جواباً لسؤال مقدر تقديره « كأنه قيل : هؤلاء الذين استوى حالهم مع الإنذار وعدمه ماذا يكون منهم ؟ فقيل : لا يؤمنون <١> » ، ففصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها جاءت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة السابقة ، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال على هذا التفسير . أما الإمام عبدالقاهر فيرى أنها مؤكدة لما قبلها ولذلك فصلت عن الجملة السابقة حيث يقول « وقوله تعالى : « لا يؤمنون » تأكيد لقوله « سواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم » وقوله « ختم الله على قلوبهم » تأكيد ثان أبلغ * من الأول ، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل ، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة » . <٢>

وفي قوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » استعارة تبعية حيث استعير الختم لمنع الهداية والجامع هو ما يترتب على كل منهما من الحيلولة من نفاذ الحق إليها ، ثم اشتق من الختم الفعل « ختم » على سبيل الاستعارة التبعية <٣> ، ويشير أبو السعود إلى مافي هذا التركيب القرآني من لطائف قائلاً : « وإعادة الجار والمجرور للتأكيد والإشعار بتغاير الختمين ، وتقديم ختم قلوبهم للإيدان بأنها الأصل في عدم الإيمان وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية بختم سمعهم » . <٤>

١ - السابق الموضع نفسه .

* المراد من الأبلغية - هنا - الأكثر توكيداً لمناسبة المقام .

٢ - دلائل الإعجاز ، ص ٢٢٨ ، تحقيق محمود شاكر .

٣ - انظر الكشف وحاشية السيد عليه ، ١٥٦/١ ، وتفسير أبي السعود ، ٦٥/١ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٦٧/١ .

وقد إتفق القراء على الوقوف على قوله : « على سمعهم » لعدم تعلقه بما بعده فهو معطوف على قوله « على قلوبهم » للإشارة إلى طمس قلوبهم وأسماعهم وعدم انتفاعهم بها .

وإسناد الختم إلى الله على حقيقته على مذهب أهل السنة وهو الذي أرتضيه وذلك بأن نثبت ما أثبتته الله لنفسه من غير تحريف أو تبديل أو تعطيل ، أما المعتزلة فلهم تأويلات كثيرة ذكر الزمخشري جملة منها إلى أن قال « الشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر إلا أنه سبحانه لما أقدره ومكنه أسند الختم إليه كما يسند الفعل إلى المسبب » ^(١) فالزمخشري يرى أن إسناد الختم إلى الله من قبيل المجاز العقلي علاقته السببية ، وقد تابع الزمخشري عدد من العلماء كالسيد الشريف * وغيره ، أما ابن كمال باشا * فهو يذهب كما ذهب الزمخشري غير أنه يخالفه حيث يرى أن إسناد الختم إلى الله ليس فيه قبح إنما هو للكاسب لا إلى الفاعل الحقيقي . ^(٢)

وتقديم الجار والمجرور « على أبصارهم » على المبتدأ « غشاوة » لتصحيح الابتداء بالنكرة ، ونلمح مع التقديم القياسي الاهتمام بالحكم وفي ذلك تشنيع عليهم وذم لهم ، مع ما فيه من مراعاة للتلاؤم الصوتي ، ولو جاء النظم بتقديم المبتدأ « غشاوة » لانفرط العقد وتناثرت حباته ، وفقدنا لا محالة ذلك التلاؤم

١ - انظر الكشاف وحاشية السد والانتصاف ، ١٥٧/١ ، وما بعدها والبحر المحيط ، ٤٨/١ ، وروح المعاني ، ١٣٢/١ .

* هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف ، من كبار العلماء بالعربية والأصول ولد بجرجان سنة ٧٤٠ وتوفي سنة ٨١٦ هـ بشيراز من كتبه حاشية على شرح التنقيح للتفتازاني في الأصول ، وحاشية على المطول ، وحاشية على تفسير البيضاوي انظر ترجمته في الأعلام ، ٢٧/٥ ومعجم المؤلفين ، ٢١٦/٧ .

* شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي التركي توفي سنة ٩٤٠ هـ بالقسطنطينية من مؤلفاته المهمات في فروع الفقه الحنفي ، ومحيط اللغة وطبقات المجتهدين وغيرها انظر ترجمته في الأعلام ، ١٣٣/١ ، ومعجم المؤلفين ، ٢٣٨/١ .

٢ - انظر البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ١١٣ .

الصوتي الذي يحدثه تقديم الخبر في النظم ، إضافة إلى أننا لا ندري على من تكون الغشاوة أهي عليهم أم على غيرهم .

ثم تأمل روائع التصوير القرآني في قوله « غشاوة » حيث استعيرت من معناها الأصلي لحالة في أبصارهم مقتضية لعدم اجتلائها آيات الله ودلائله ، والجامع كما ذكرنا في التبعية ، ففي التعبير بالغشاوة إستعارة تصريحية أصلية ، ويجوز أن يكون في الختم والغشاوة إستعارة تمثيلية بأن يقال : شبهت حال قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم مع الهيئة الحادثة فيها المانعة من الانتفاع بها في الأغراض الدينية التي خلقت هذه الآلات لأجلها بحال أشياء معدة للانتفاع بها في مصالح مهمة مع المنع عن ذلك بالختم والتغطية ، ثم يستعار للمشبه اللفظ الدال على المشبه به فيكون كل واحد من طرفي التشبيه مركباً من عدة أمور ، والجامع عدم الانتفاع بما أعد له بسبب عروض مانع تمكن فيه كالمانع الأصلي ، وهو أمر عقلي منتزع من تلك العدة على سبيل الاستعارة التمثيلية . <١>

والتأمل لحرف الاستعلاء « على » وتكراره ثلاث مرات في هذا السياق يشعر بروعة انسجامها وجمال ترابطها ، فتكرارها هنا يرسم صورة واضحة للقدرة الإلهية النافذة واستعلائها فوق الأسباب وظواهرها وهي تلمس رؤى البصر والبصيرة فإذا العلم لا يفلح في إضاءة أقطار نفس شاء الله لها أن تعيش في ظلامها ، وإذا السمع لا ينفذ منه صوت الحق ، وإذا القلب مختوم عليه لا يتسلل إليه شعاع من نور الإيمان . <٢>

ويكشف التعبير بقوله « على سمعهم وعلى أبصارهم » عن دقة نظم القرآن وبيانه المعجز حيث جاء لفظ السمع مفرداً والأبصار جمعاً ليشير « إلى أن الحاستين ليستا سواء في مبلغ كل من عدد المدركات وفي حظ كل من التلقي عن

١ - انظر الكشاف وحاشية السيد عليه ، ١٥٦/١ ، والتشبيه القرآني في سورة البقرة ، ص ٤٣ ، وما بعدها .

٢ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ٧٦ ، وما بعد وانظر ، ص ١١٨ .

الحياة والعمل لصاحبه ، فالسمع يدرك شيئاً واحداً هو الصوت ، والبصر يدرك
أشياء من المرئيات كأنه جمع من الحواس ، لا حاسة واحدة ، فذكر السمع مفرداً
يعني المطابقة بين لفظه ومسماه ، وبين لفظه وعمله في وقت واحد ، وذكر البصر
بلفظ الجمع يعني التفرقة بينه في عدد المدركات من جانب ، ثم المطابقة بين لفظه
وتعدد مدركاته بما يجعله شبيهاً بالجمع وأهلاً لأن يعامل معاملته في التعبير عنه
من جانب آخر . « <١>

وقد جاء لفظ القلب والبصر مجموعاً للنكته السابقة وهي للإشارة إلى أن
القلوب والأبصار تتصرف في مدركات كثيرة فكأنها صارت بذلك كثيرة فجمعت ،
أما السمع كما قلنا فلا يدرك إلا شيئاً واحداً فلذلك أفرد أما السمع في اختصاص
القلب والسمع بالختم دون الأبصار « فلأن السمع كالقلب يدرك ما يدركه من جميع
الجهات فناسب أن يقرب معه بالختم الذي يمنع من جميعها وان اختص وقوعه
بجانب إلا أنه لا يتعين ، ولما كان إدراك البصر لا يكون عادة إلا بالمحاذاة والمقابلة
جعل المانع ما يمنع منها وهو الغشاوة لأنها في الغالب كذلك كغاشية
السرج . « <٢>

وتتكبر غشاوة للتنوع أي نوع من الغشاوة لا يتعارفه الناس بحيث يغطي
ما يغطيه شيء من الغشاوات وهو غطاء التعامي عن آيات الله ، ويضيف ابن
يعقوب المغربي * قائلاً : « وإنما قلنا التعامي للإشارة إلى أنهم يعرفون حقيقة

١ - مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة للأستاذ علي النجدي ناصف ، ص ٦٤ - ٦٥ ، وراجع روح
المعاني ، ١٣٥/١ ، وخصائص التشبيه القرآني في سورة البقرة ، ص ٤٥ ، وما بعدها .

٢ - روح المعاني ، ١٣٦/١ ، وانظر خصائص التشبيه القرآني ، ص ٤٦ ، وما بعدها .

الآيات ويظهرون خلاف ذلك فالحاصل منهم التعامي لا العمى الذي هو عدم ظهور الآيات لهم أصلاً ، وقيل إن التنوين في الآية الكريمة للتعظيم أي وعلى أبصارهم غشاوة عظيمة وهو أنسب لما فيه من بيان بعد حالهم عن الإيمان دون النوعية « <١> وهو بهذا لا يرتضي بأن يكون التنوين للتنويع ، ويتابع السكاكي * ومن سار على نهجه الذي نص على أنه للتعظيم المراد به التهويل .

أما قوله « ولهم عذاب عظيم » ففيه قصر إضافي وليس حقيقة لأن غيرهم له هذا العذاب ، فتقديم الجار والمجرور « لهم » على المبتدأ « عذاب عظيم » لإفادة القصر حتى لكانهم هم المخصوصون بالعذاب ولموافقة رؤوس الآي ، وتنكير العذاب للنوعية أي لهم في الآخرة نوع من العذاب غير متعارف ، وقيل للتعظيم والتفخيم كما ذكر أبو السعود في قوله « ووصف العذاب به لتأكيد ما يفيد التنكير من التفخيم والتهويل والمبالغة في ذلك ، والمعنى أن على أبصارهم ضرباً من الغشاوة خارجاً عما يتعارفه الناس وهي غشاوة التعامي عن الآيات ، ولهم من الآلام نوع عظيم لا يبلغ كهنه ولا يدرك غايته » . <٢>

وقد رد العلامة الألويسي رأي أبي السعود بقوله « وحمله على التعظيم يستدعي حمل ما يستفاد من الوصف على التأكيد ولا حاجة إليه » . <٣>

١ - مواهب الفتاح وعروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ، ٢٤٨/١ ، وما بعدها ، وراجع مفتاح العلوم ، ص ١٩٣ ، وبغية الإيضاح ، ١٠٢/١ ، وتجريد البناني ، ٢٤٢/١ ، وما بعدها ، والبحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ١٠٩ .

* هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي الخوارزمي سراج الدين ، عالم في النحو والتصريف والمعاني والبيان والعروض ولد بخوارزم سنة ٥٥٥ وتوفي بها سنة ٦٢٦ هـ من مؤلفاته مفتاح العلوم ورسالة في علم المناظرة ، انظر ترجمته في بغية الوعاة ، ٣٦٤/٢ ، والأعلام ، ٢٢٢/٨ ، ومعجم المؤلفين ، ٢٨٢/١٢ ، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ٢٤٨/٥ والبلاغة تطور وتاريخ ، ٢٤٨/٥ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٦٨/١ .

٣ - روح المعاني ، ١٣٧/١ .

ويؤيد الطاهر بن عاشور الألويسي قائلاً « التنكير وإن كان صالحاً للدلالة على التعظيم إلا أنه ليس بنص فيه ، ولا يجوز أن يكون « عظيم » تأكيداً لما يفيدته التنكير من التعظيم لأن دلالة التنكير على التعظيم غير وضعية ، والمدلولات غير الوضعية يستغنى عنها إذا ورد ما يدل عليها وضعاً ، فلا يعد تأكيداً ، والعذاب في الآية إما عذاب النار في الآخرة ، وإما عذاب القتل والمسغبة في الدنيا . » <١>

وقد عطف هذه الجملة على ما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى . وفاصلة الآية تحمل قدراً من الترهيب والتهديد الشديد لهؤلاء الكفرة ، وتلك كما يقول صاحب الظلال « هي النهاية الطبيعية للكفر العنيد ، الذي لا يستجيب للنذير ، والذي يستوي عنده الإنذار وعدم الإنذار ، كما علم الله من طبعهم المطموس العنيد . » <٢>

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ . <٣>

المعنى الإجمالي :

تبرز هذه الآيات غضب الله وسخطه الشديد على الكافرين ، وتبين استحقاقهم لهذه اللعنة المركبة الصادرة من قبل الحق سبحانه ومن ملائكته ومن الناس أجمعين بسبب إصرارهم على الكفر وموتهم عليه ، فهم منبوذون مطرودون من رحمته ، لهم في الآخرة عذاب شديد مستمر لا يخفف عنهم ولا هم ينظرون .

١ - التحرير والتنوير ، ٢٥٨/١ .

٢ - في ظلال القرآن المجلد الأول ، ص ٣٦ .

٣ - البقرة : ١٦١ - ١٦٢ .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

من الأسرار البلاغية لهذا النظم الكريم إفتتاحه بحرف التأكيد « إن » ولعل السر في ذلك إما لزيادة الاعتناء بالخبر ، وإما لتحقيق الوعيد ببقاء اللعن وتأكيد دوامه واستمراره لهؤلاء الكافرين . <١>

وتعريف الموصول « الذين » بأل إما للجنس فيشمل جميع الكفار ، وإما للعهد فيكون المراد به أولئك الذين يكتمون الآيات ولم يتوبوا ، <٢> ومجيء صلة الموصول فعلاً ماضياً « كفروا » للإشارة إلي استقرارهم على الكفر ومضيهام فيه ، وتعريف المسند إليه بالموصول لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام ، وهو ثبوت اللعنة ودوامها على كل من مات على كفره . <٣>

وتأمل دقة النظم القرآني في ترابط جملة بعضها ببعض في قوله « وما توا وهم كفار ، فهي جملة معطوفة جاءت تنمة لجملة الصلة السابقة « كفروا » للإشارة إلى أن الكافر لا يستحق اللعنة لكفره فقط وإنما يستحقها إذا مات على كفره .

والتعبير باسم الإشارة « أولئك » للإشارة إلى تمييزهم أكمل تمييز ، وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامي أثرهم وبعد منزلتهم في الفساد مما يستتبع بعدهم وطردهم عن رحمة الله والجزاء من جنس العمل ، وفي تقديم الجار والمجرور « عليهم » على المبتدأ « لعنة الله » قصر حقيقي تحقيقي أي عليهم هم لا على غيرهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ومع هذا يفيد سرعة الحكم باللعنات عليهم ولو أخر لكان فيه تباطؤ .

وإضافة اللعنة إلى لفظ الجلالة توحى بالتفخيم والتعظيم لأمرها فهي صادرة منه وحسبك بذلك طرداً وبعداً وقرىء « الملائكة والناس أجمعون ، بالرفع ،

١ - راجع تفسير أبي السعود ، ٢٩١/١ ، وخصائص التراكيب ، ص ٦١ .

٢ - انظر الكشاف ، ٢٢٥/١ ، والتفسير الكبير ، ٨٤/٤ ، وحاشية الشهاب ، ٢٦١/٢ .

٣ - راجع البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ١٠٢ .

وقد ذكر المفسرون لهذه القراءة توجيهات كثيرة منها : العطف على « لعنة » والتقدير لعنة الله ولعنة الملائكة ... ، فحذف المضاف من الثاني وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل : إنه مبتدأ لخبر محذوف تقديره « الملائكة والناس أجمعون يلعنونهم » ، وقيل إنه فاعل لفعل محذوف أي « يلعنهم الملائكة والناس أجمعون » ^١ ، ونرى أن هذا الوجه الذي جاء عليه النظم هو الجزل الفخم .

ففي هذه الجملة إيجاز حذف تقديره عليهم لعنة الله ولعنة الملائكة والناس ، ولذلك لم تكرر اللعنة هنا كما تكرر الفعل « يلعنهم » في الآية السابقة ^٢ اكتفاء بها وافتناناً في النظم ومناسبة لما يشعر به التأكيد بقوله « أجمعين » ^٣ .

ومما يسترعي النظر في هذه الآية الكريمة هذا الترتيب المحكم الدقيق فقد بدأ تعالى بنفسه لعلو منزلته وشرفه زيادة في طردهم وإبعادهم عن رحمته ، ثم ثنى بالملائكة لعظم شأنهم وعلو منزلتهم وطهارتهم ثم ثلث بالناس لأنهم من جنسهم ، ^٤ ولم يكتف بهذا فحسب بل زاد هذا التأكيد « أجمعين » ليشمل جميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، فهم ملعونون مطرودون منبوزون من العباد ومن رب العباد في الأرض وفي الملأ الأعلى على السواء ^٥ ، وفي تقديم اسم الجلالة لأن لعنة غيره تابعة للنعته .

ولنتأمل روائع التعبير القرآني بحرف الاستعلاء وما يشيعه في هذا السياق من معان وظلال ، فقد عدت اللعنة بحرف الاستعلاء وكان مقتضى الظاهر أن

١ - انظر الكشاف ، ٢٢٥/١ ، والبحر المحيط ، ٤٦٠/١ ، وما بعدها ، وتفسير أبي السعود ، ٢٩٢/١ ،

وروح المعاني ، ٢٩/٢ ، إملاء ما من به الرحمن بهامش ، الفتوحات الإلهية ، ٢٩٢/١ .

٢ - البقرة : ١٥٨ .

٣ - انظر روح المعاني ، ٢٩/٢ .

٤ - انظر البحر المحيط ، ٤٦٢/١ .

٥ - انظر في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١٤٥ .

تعدى باللام والسر في ذلك - والله أعلم بمراده - للإشارة إلى شدة غضب الله النازل بهم ، وانصباب لعنته عليهم حتى لكأنها قد غشيتهم ، وهذا ما كشف عنه أبوحيان بقوله « وبالغ في اللعنة بأن جعلها مستعلية عليه وقد تجللته وغشيته فهو تحتها » . <١>

أرأيت كيف عدل النظم الكريم إلى إيثار التعبير بحرف الاستعلاء وكيف نبض بهذه المعاني التي لا نجدها لو جاء التعبير بحرف الاختصاص « اللام » لأنه يدل فقط على ثبوت اللعنة وحصولها واستحقاقهم لها .

ففي هذا النظم إستعارة حرف لحرف ، أو إستعارة مكنية شبيه حلول اللعنة بهم بانصباب الماء الغزير ثم حذف المشبه به ورمز له بإثبات لازمه وهو « على » الذي هو قرينة المكنية . ووضع الضمير موضع الظاهر في قوله « خالدين فيها » يتناسب مع مقام الترهيب لما فيه من المبالغة في التفخيم من شأن النار والتهويل لأمرها ، أي خالدين في اللعنة ، أو في النار لأنها معروفة من المقام ، ولكثرة ما جاء في القرآن الكريم من قوله « خالدين فيها » وهو عائد إلى النار . <٢>

وقوله « خالدين فيها » منصوب على الحالية ، والحال لا تفصل عن صاحبها .

أما جملة « لا يخفف عنهم العذاب » فللمفسرين في إعرابها توجيهان : أحدهما : أنها حالية إما من الضمير في قوله « عليهم » وإما من الضمير في

١ - البحر المحيط ، ١/٤٦٠ ، وراجع من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ٢٣٩ .

٢ - انظر الكشاف ، ١/٣٢٥ ، والبحر المحيط ، ١/٤٦٢ ، وتفسير أبي السعود ، ١/٢٩٢ ، وحاشية

الشهاب ، ٢/٢٦٢ ، وراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٢٣٦ ، وما بعدها .

« خالدين » ، الثاني : أنها مستأنفة لبيان كثرة عذابهم من حيث كيف إثر بيان
كثرتهم من حيث الكم . <١>

والذي أميل إليه وأرتضيه أن هذه الجملة حالية لا أنها مستأنفة لأنه أولى
بالسياق ، وهذا الاستئناف الذي ذكره المفسرون نحوي لا بياني .

ومن بدائع النظم القرآني في هذه الآية بناء الفعل « لا يخفف » للمجهول
لإبراز شدة غضب المولى عليهم سبحانه وإعراضه عنهم زيادة في تئيسهم
وتقنيطهم ، ويؤكد هذا المعنى ويؤازره إيثار التعبير بحرف المجاوزة « عن »
وما يثيره من معنى المجاوزة والإعراض ، بالإضافة إلى ما في حذف الفاعل من
إيجاز بليغ قصد منه تئيسهم أي لا يخفف عنهم العذاب الله ولا الملائكة
ولا الأنداد . وتعريف العذاب بأل يفيد الاستغراق زيادة في الترهيب والتحذير منه .

أما تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله « ولا هم ينظرون » فيفيد
الاختصاص أي هم خصوصاً لا ينظرون وإنما غيرهم <٢> ، بالإضافة إلى أن هم
« توكيد للفاعل » الضمير ، وتكرار للإسناد مع ما فيه من مراعاة للفاصلة
القرآنية .

كما أن إيثار التعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار في قوله
« ينظرون » لأن الحديث عما يستقبل من أحداث .

ثم تأمل أسرار تنوع الصياغة في هذا البيان القرآني بالجملتين الاسمية
والفعلية وما تدلان عليه من معان بلاغية دالة على الجمال والإعجاز .

فقد آثر القرآن التعبير بالإسم لما يدل عليه من الثبوت والدوام في قوله
« خالدين فيها » ليشير إلى استقرارهم وثبوتهم في النار ، وحين كان المقام مقام
التجدد والحدوث آثر التعبير بالفعلية للدلالة على عدم نفي العذاب عنهم

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٩٢/١ ، وروح المعاني ، ٢٩/٢ .

٢ - انظر دلالات التراكيب ، ص ١٧٨ ، وما بعدها .

وتجدهه حالاً بعد حال ، ثم عدل مرة أخرى إلى الاسمية في قوله « ولا هم ينظرون » حين أراد دوام النفي واستمراره ، فانظر إلى إحكام نظم القرآن وقدرته على اختيار التراكيب المناسبة للمعنى والسياق ، فكل شيء عنده بمقدار ، ولكل شيء سره البلاغي الذي يتطلبه المعنى ويقتضيه المقام .

وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع

إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

يبين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة حال الكفار مع داعي الله بأنهم كالبهائم لا تفقه نداء .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

عمد القرآن الكريم في هذه الآية من خلال هذا التشبيه إلى تصوير الكافرين بصورة مزرية تليق بهم بسبب انهماكهم في التقليد والجمود ، حيث شبههم بالبهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا صاح بها راعيها سمعت مجرد صوت لا تفقه ماذا يعني ، بل هم أضل من هذه البهيمة ، لأن البهيمة ترى وتسمع وتصيح ، وهم صم بكم عمي ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون ما داموا لا ينتفعون بها ولا يهتدون بها فكأنها لا تؤدي وظيفتها التي خلقت لها وكأنهم إذن لم توهب لهم آذان وألسنة وعيون ، فنزلت حواسهم منزلة العدم .

« وهذه منتهى الزرارية بمن يعطل تفكيره ويغلق منافذ المعرفة والهداية ، ويتلقى في أمر العقيدة والشريعة من غير الجهة التي ينبغي أن يتلقى منها أمر

العقيدة والشريعة » . <٢>

١ - البقرة : ١٧١ .

٢ - في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ١٤٩ ، وما بعدها .

ففي هذا النظم القرآني تشنيع وضم للكفار وتصوير لهم بصورة البهيمة لإصرارهم على الكفر تقليداً لآبائهم بلا تعقل ولا إدراك ، ورفضهم للدين الجديد الذي جاء به الرسول ﷺ .

وفي هذه الآية تشبيهان : الأول في قوله « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء » والثاني في قوله « صم بكم عمي » .

أما التشبيه الأول : فقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من يرى أنه تشبيه مفرق على تقدير حذف مضاف ، ولهم فيه توجيهات كثيرة : منها : أن المثل مضروب لتشبيه الكافر في دعائه الأصنام بالناعق على الغنم ، وقيل هو مضروب لتشبيه الكافر في دعاء الرسول له بالمنعوق به وهي البهائم ، وقيل هو مضروب لتشبيه الداعي للكافر بالناعق على الغنم ، وقيل هو مضروب لتشبيه الداعي والكافر بالناعق والمنعوق ، وبعضهم جعل التشبيه في هذه الآية مركباً ^(١) ، وذلك بأن شبهت حال الكافرين عند سماع دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع من ينعق بها في أنهم لا يفهمون بجامع البلادة في كل .

أما قوله « لا يسمع إلا دعاء ونداء » فهو كناية عن عدم الفهم والاستجابة ، وفيه تأكيد لهذا التصوير الأسر ، إذ الاستثناء هنا مفرغ ، وهو قصر تنزيلي ، قصر صفة على موصوف ، ويضيف أبوحيان قائلاً « فإن قيل قوله « لا يسمع إلا دعاء ونداء » ليس المسموع إلا الدعاء والنداء فكيف ذمهم بأنهم لا يسمعون إلا الدعاء ، وكأنه قيل لا يسمعون إلا المسموع وهذا لا يجوز ؟ فالجواب أن في الكلام إيجازاً وأن المعنى : لا يفهمون معاني ما يقال لهم كما لا تميز البهائم بين معاني الألفاظ التي لا تصوت بها وإنما تفهم شيئاً يسيراً وقد أدركته بطول

١ - انظر الكشاف ، ٢٢٨/١ ، والتفسير الكبير ، ٩/٥ ، والبحر المحيط ، ٤٨١/١ ، وحاشية الشهاب ، ٣٦٧/٢ ، والتبيان للطبي ، ص ٢١٤ ، تحقيق الدكتور : هادي عطية مطر الهلالي والتشبيه القرآني في سورة البقرة ، ص ٢٨٩ ، وما بعدها ، والبحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ٢٦٠ ، وما بعدها ، وأسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ، ص ١١٠ ، وما بعدها ، بحث مخطوط مقدم للحصول على درجة الماجستير كلية اللغة العربية جامعة الأزهر .

الممارسة وكثرة المعادة فكأنه قيل : ليس لهم إلا سماع النداء دون إدراك المعاني والأغراض « <١> ، أي يسمعون جرس الألفاظ غير فاقهين معانيها .

والدعاء والنداء بمعنى واحد ، وقيل الدعاء للقريب والنداء للبعيد ، وقيل إن

المراد بالنداء هنا نداء الرعاء بعضهم بعضاً للتعاون على ذود الغنم . <٢>

ولا يخفى مافي هذا التصوير البياني من تشنيع وذم للكفار لتقليدهم

آباءهم وعدم رفعهم رأساً إلى اتباع الرسول ﷺ وإعراضهم عن دعوته .

والذي أميل إليه هو أن التشبيه في هذه الآية الكريمة تشبيه تمثيلي ، لأن

السياق والاستقراء دالان على أن التشبيه الذي في أحد طرفيه « مثل » هو تشبيه

تمثيلي ، وهذا ما رجحه الإمام عبدالقاهر بقوله « ينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي

والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح

ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر » . <٣>

وذهب أبو عبيدة * - وتابعه ابن قتيبة * - إلى أن الآية من قبيل القلب <٤>

وذلك بأن التشبيه بالراعي وقع في ظاهر الكلام والمعنى للمنعوق به وهو الغنم ، غير

١ - البحر المحيط ، ٤٨٤/١ .

٢ - راجع روح المعاني ، ٤١/٢ والتحرير والتنوير ، ١١٣/٢ .

٣ - أسرار البلاغة تحقيق محمود شاكر ، ص ١٠٨ .

* هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء ولد سنة ١١٠هـ وتوفي سنة ٢٠٩هـ ، من أئمة العلم بالأدب

واللغة ، وكان مولده ووفاته بالبصرة ، وقد أخذت عليه شعوبيته ، بالإضافة الى كونه خارجياً من

مصنفاته مجاز القرآن ، ونقائض جرير والفرزدق ، ومعاني القرآن ، انظر ترجمة في طبقات التحويين

اللغويين ، ص ١٧٥ ، وما بعدها ، وبغية الوعاة ، ٢٩٤/٢ - ٢٩٦ ، وفيات الأعيان ، ٢٤٦/٣ - ٢٤٨ ،

والأعلام ، ٢٠٤/٤ ، معجم المؤلفين ، ٢٥١/٦ - ٢٥٢ .

* أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ولد سنة ٢١٢ وتوفي سنة ٢٧٦ أحد أئمة العلم والأدب

واللغة والأخبار ، كان ثقة ديناً فاضلاً ، تولى قضاء الدينور فترة من الزمن فنسب إليها ومن كتبه :

تأويل مختلف الحديث ، أدب الكاتب ، الشعر والشعراء ، عيون الأخبار ، المعارف ، معاني القرآن ،

غريب القرآن ، انظر ترجمته في بغية الوعاة ، ٦٣/٢ ، وما بعدها ، وإنباه الرواة ، ١٤٣/٢ - ١٤٧ ،

وفيات الأعيان ، ٤٢/٣ - ٤٤ ، والأعلام ، ١٣٧/٤ ، معجم المؤلفين ، ١٥٠/٦ - ١٥١ .

٤ - هذا من القلب المعنوي كقول العرب عرضت الناقة على الحوض ، وتعريفه : أن يجعل جزء من الكلام

مكان آخر يجعل مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر ، بغية الإيضاح ، ١٦٣/١ .

أن الإمام أبا حيان رد هذا الرأي قائلاً « ينبغي أن ينزه القرآن عنه لأن الصحيح أن القلب لا يكون إلا في الشعر أو إن جاء في الكلام فهو من القلة بحيث لا يقاس عليه » . <١> واعتراض أبي حيان مدفوع بما ورد في القرآن الكريم من شواهد كما في قوله تعالى : ﴿ ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة أولي القوة ﴾ <٢> وقوله تعالى : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ . <٣>

وجعل برهان الدين البقاعي * هذه الآية من الاحتباك <٤> ، وأنها مثلان لامثل واحد وأنها جاءت على هذا الإيجاز والتقدير : ومثل الذين كفروا ومثل داعيهم كمثل الراعي ومثل ما يرعى من البهائم ، فحذف من الأول مثل الراعي لدلالة الناقع عليه ، ومن الثاني المنعوق به لدلالة المدعويين عليه . <٥>

وهذه الجملة : « ومثل الذين كفروا ... » إما أن تكون معطوفة على الجملة السابقة وإما أن تكون استئنافية نحوياً واردة لتقرير ما قبلها بطريق التصوير ، وتعريف الموصول « الذين » بال للجنس والمراد به جميع الكفار .

وفى التعبير بقوله : « ومثل الذين كفروا » عدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر « الذين » لزيادة زهمهم بما في حيز الصلة ، ولإشعار بما أثبت لهم من الحكم . <٦>

١ - انظر مجاز القرآن ، ٦٢/١ ، تحقيق محمد فؤاد سزكين وتأويل مشكل القرآن تحقيق السيد أحمد صقر ، ص ١٩٩ ، والبحر المحيط ، ٤٨٢/١ ، وراجع البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ٢٦١ .

* هو أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي البقاعي ، مؤرخ أديب ، أصله من البقاع في سورية ، ولد سنة ٨٠٩ ، وسكن دمشق ورحل الى بيت المقدس والقاهرة ، وتوفي بدمشق ، سنة ٨٨٥ هـ ، من مؤلفاته نظم الدرر ، وعنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران ، وأسواق الأشواق وغيرها ، انظر ترجمته في الأعلام ، ٥٦/١ .

٢ - القصص ، ٧٦ .

٣ - العاديات : ٨ .

٤ - تعريف الاحتباك : أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه .
٥ - نظم الدرر ، ٢٣٢/٢ - ٢٣٤ ، وراجع من أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١١١ ، والتعبير في علم التفسير للسيوطي ، ص ٢٨٤ ، تحقيق : د. فتحي فريد .

٦ - انظر تفسير أبي السعود ، ٣٠١/١ .

وذكر صاحب الفتوحات الإلهية أن الباء في قوله « بما لا يسمع » بمعنى على والمعنى : كمثل الذي ينطق على ما لا يسمع . <١>

ويبدو أن السر في إثارة حرف الإلصاق « الباء » دون حرف الاستعلاء : في هذا النظم القرآني إبراز شدة حرص الداعي على المدعوين لسماع دعوته واتباعه ، وأنه يواصل دعوتهم ليلاً ونهاراً ملتصقاً بهم ومختلطاً حريصاً على هدايتهم وهم عنه معرضون ، فهم كالأنعام لا تسمع ولا تفقه شيئاً ، أما حرف الاستعلاء في قولنا « ينطق على ما لا يسمع » فهو لا يزيد عن الإشارة إلى أن الداعي صار مستغنياً عنهم يدعوهم من مكان بعيد .

أما التشبيه الثاني : فهو تشبيه بليغ محذوف الأداة أي كالصم وكالبكم وكالعمي ، ولما شبههم الحق سبحانه وتعالى بالبهائم زاد في تقبيح حالهم فقال « صم بكم عمي » على التشبيه البليغ لأنهم صاروا بمنزلة الصم في أن الدعاء الذي سمعوه لم يسمعوه وبمنزلة البكم في أنهم لم يستجيبوا لما دعوا إليه وبمنزلة العمي من حيث إعراضهم عن الدلائل كأنهم لم يشاهدوها . <٢>

وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها جاءت مؤكدة لها فبين الجملتين كمال الاتصال .

وتقديم الضمير « هم » على الفعل « لا يعقلون » ليس لإفادة الحصر بل لتوكيد الإسناد حيث نفى عنهم الفعل من جهتين من ناحية أنه أسند الفعل إلى الواو في قوله : « لا يعقلون » ومن ناحية تقديم الضمير « هم » على الفعل فكأن في السياق تكراراً أي لا يعقلون هم ، لا يعقلون هم .

ولا شك أن هذا التركيب يفيد عند البلاغيين التوكيد قطعاً بيد أن لهم فيه مذهبين : أولهما : مذهب الإمام عبدالقاهر ، فهو يرى أن تقديم المحدث عنه

١ - انظر الفتوحات الإلهية ، ١٢٧/١ .

٢ - انظر التفسير الكبير ، ٩/٥ ، وحاشية محي الدين شيخ زاده على البيضاوي ، ٤٧٩/١ .

يقتضى تأكيد الخبر واعتناءً به وإثارة ذهن السامع نحوه فإذا جاء الخبر قر وتمكن في نفس السامع ، ودخل على القلب دخول المأنوس به وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأدخل في التحقيق <١> .

الثاني : مذهب السكاكي والجمهور ، والتوكيد عندهم مستفاد من تكرار الإسناد . <٢>

أما حذف المفعول في قوله « لا يعقلون » فلإرادة التعميم أي لا يعقلون شيئاً أي شيء .

ولما تقرر فقد الكفار لهذه الحواس قضى بأنهم لا يعقلون ، لأن طريق التعقل هو التدبر في مبادئ الأمور المعقولة والتأمل في ترتيبها وذلك إنما يحصل بالاستماع إلى آيات الله ومشاهدة حجه الواضحة والمفاوضة مع من يؤخذ منه العلوم ، فإذا كانوا صمماً بكماً عمياً فقد انسد عليهم أبواب التعقل وطرق الفهم بالكلية . <٣>

وقد ختمت هذه الآية بقوله « فهم لا يعقلون » وختمت نظيرتها وهي في وصف المنافقين بـ : لا يبصرون وبـ : لا يرجعون قال تعالى « مثلهم كمثل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون <٤> » ، فلم ختمت كل آية بما يخالف الأخرى رغم أن هاتين الطائفتين تشتركان في الإعراض عن سماع الحق ؟

الجواب عن ذلك هو أنهما وإن اشتركتا في الإعراض عن الحق إلا أن المنافقين لم يعرضوا عنه من أول الأمر بل دخلوا في الدين وانتفعوا به ، فشبهت

١ - انظر البحر المحيط ، ٤٨٤/١ ، وتفسير أبي السعود ، ٣٠٢/١ .

٢ - راجع دلائل الاعجاز ، ص ١٣٢ - ١٣٨ .

٣ - انظر الإيضاح ، ١٣٩/١ - ١٤٢ ، نظرات في البلاغة والإسناد ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

٤ - البقرة : ١٧ - ١٨ .

حالهم بحال مستوقد النار لطلب الإضاءة وأنه لما أضاعت ما حوله أذهبها الله وطفئت فلم يكن له ما يستضيء به ويرجع إليه فنفى عنهم وجود ما يرجعون إليه ، يدفع حيرتهم ولذلك قال « ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » ، فليس هناك أمل في رجوعهم إلى الإسلام ، أما هؤلاء الكفار فقد أعرضوا عن الداعية كلية إذ أنهم لم يعقلوا أصلاً ولم يسمعوا داعي الله فهم كالبهائم تسمع ولا تعقل شيئاً ، فناسب كل آية ما ختمت به . <١>

وهذا كما ترى نمط فريد من بلاغة القرآن لا يتأتى مثله لغير هذا الكتاب المعجز .

وقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ . <٢>
المعنى الإجمالي :

يشبه الحق سبحانه وتعالى أعمال الكفار وعدم انتفاعهم بها في اليوم الآخر بسبب كفرهم برماد تفرقه الرياح بدءاً في يوم شديد العصف فلا يقدرون على الانتفاع بها .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

تأمل جمال التعبير القرآني كيف أبرز أعمال الكفرة في صورة حسية تراها العين من خلال هذا التشبيه التمثيلي ، حيث شبه الله عز وجل ما يعمله الكفار في الدنيا من أعمال الخير والبر في هبوطها وذهابها هباءً منثوراً لبنائها على غير أساس من الإيمان بالله ، وكونها لغير الله وعلى غير أمره برماد طيرته

١ - انظر ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي ، ١٨٠/١ ، مابعدا تحقيق : سعيد الفلاح ، التشبيه القرآني في سورة البقرة ، ص ٢٩٥ .

٢ - إبراهيم : ١٨ .

الريح في يوم عاصف <١> ، ووجه الشبه كما ذكر الرماني * أن المشبه والمشبه به قد اجتمعا « في الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات » . <٢>

أما الرازي * فيرى أن وجه الشبه بين هذا المثل وبين أعمال الكفار هو أن الريح العاصف تغير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى له أثر ولا خبر فكذلك كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق لها أثر . <٣>

وفي هذا التشبيه تجسيد للضياع والهلاك وهذا ما تؤكد عناصر الصورة وهي الرماد والريح واليوم العاصف .

فانظر كيف سلك القرآن الكريم للترهيب من الكفر والتحذير من التشبه بالكفار حيث صور أعمالهم وعدم انتفاعهم بها يوم القيامة برماد تشتد به الريح

١ - انظر الكشف ، ٢٧٢/٢ ، الجمان في تشبيهات القرآن لابن نايقا تحقيق الدكتور : مصطفى الجويني ، ص ١٣٠ ، القرآن إعجازه وبلاغته ، الدكتور : عبدالقادر حسين ، ص ١٢٥ ، إعراب القرآن وبيانه ، ١٧٤/١٣ ، أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٢١٣ .

* هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبدالله الرماني كان إماماً في العربية متبحراً في علوم الفقه والقرآن والنحو والكلام على مذهب المعتزلة ولد سنة ٢٧٦ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ من كتبه النكت في إعجاز القرآن ، وكتاب الحروف ، والألفات ، والخلاف بين النحويين ، انظر ترجمته في إنباه الرواة ، ٢٩٤/٢ - ٢٩٦ ، بغية الوعاة ، ١٨٠/٢ - ١٨١ .

٢ - النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٨٢ ، انظر الإعجاز البلاغي للدكتور : محمد أبو موسى ، ص ١٠٤ وما بعدها .

* الرازي : هو أبو عبدالله محمد بن الحسين بن الحسن التيمي البكري الملقب بفخر الدين الرازي ولد سنة ٥٤٤ هـ وتوفي سنة ٦٠٦ هـ ، الفقيه الشافعي ، فريد عصره ونسيج وحده ، فاق عصره في المعقول والمنقول ، وهو قرشي الأصل ، من آثاره : مفاتيح الغيب في تفسير القرآن ، وشرح الوجيز في فروع الفقه الشافعي ، والسر المكتوم في مخاطبة النجوم ، والمحصول في أصول الفقه ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز انظر ترجمته في وفيات الأعيان ، ٢٤٨/٤ - ٢٥٢ : الأعلام ، ٣١٣/٦ : معجم المؤلفين ، ٧٩/١١ .

٢ - التفسير الكبير ، ١٠٧/١٩ : راجع إعراب القرآن وبيانه ، ١٧٤/١٣ .

في يوم عاصف فيبلغ القرآن في تحريك المشاعر نحوه والتنفير منه ما لا يبلغه التعبير الذهني عن ضياع الأعمال وذهابها بدياً . <١>

ولعلك تلاحظ معي أن القرآن الكريم قد ركز وهو يرهب من الكفر في هذه الآية الكريمة على حاسة البصر عن طريق الرؤية والحركة حيث أبرز أعمال الكفار في صورة رماد تراه العين ، وعلى حاسة السمع من خلال ما ينشأ عن هذه الريح وصوتها الشديد من قصف وجلبة وصفير .

وهكذا نرى أن النظم القرآني قد اعتمد على هاتين الحاستين للترهيب من الكفر حين صور أعمال الكفار بهذه الصورة المزرية التي لا تليق إلا بالكفر وأهله ، ثم هل هناك عاقل يرضى أن تحبط أعماله ولا ينتفع بها في الآخرة « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » <٢> وحين ننعم النظر في صياغة هذا التشبيه نجد السياق يفيض بروائع البلاغة القرآنية ، منها التعبير بكلمة رماد وما فيها من معنى الاحتراق والضياع والخفة وقلة الشأن ولهذا أوثرت على كلمة التراب لأن التراب قد يكون فيه نفع كما أنه ليس فيه معنى الاحتراق ، وتنكير كلمة « رماد » يفيد معنى التحقير والضالة ، أما الكاف وهي للتشبيه فجعلت أعمال الكفار في مرتبة أدنى من الرماد وفي ذلك استخفاف بها وذم شديد لهم .

وتأمل جمال التعبير القرآني بحرف الباء وما توحى به في قوله « اشتدت به الريح » فهي تفيد أن الريح قد اقتلعت وذهبت به بخلاف قولنا « اشتد عليه » فقد تشتد وهو ثابت لا يتبدد أما تعريف الريح بال فللجنس .

وتنكير يوم وعاصف في قوله « في يوم عاصف » يفيد التهويل والتفطيع ، وفي هذا التعبير مجاز عقلي علاقته الزمانية لأن العصف وصف للريح لكن النظم القرآني أسند العصف إلى اليوم للإشارة إلى شمول العصف واستغراقه اليوم كله

١ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٠٩٤ .

٢ - الشعراء : ٨٩ .

ولو قال اشتدت به ريح عاصفة لأوحى هذا التعبير بأن الريح تعصف ساعة ثم تهدأ ، ففي هذا المجاز إشارة إلى استمرار العصف الشديد بهذا الرماد والذهب به في كل أفق وليس بعد ذلك ضياع . <١>

وجاءت جملة « أعمالهم كرماد » مفصولة عما قبلها لأنها جاءت مبدلة منها ولذلك فصلت عنها ، فبين الجملتين كمال الاتصال .

أما جملة « لا يقدرّون على شيء » فهي توكيد لجملة التشبيه <٢> ، وهي كناية عن محق أعمال الكفار ، ففي هذه الجملة كناية عن صفة ، وفي ذلك تئيس لهم وإقناط لهم من الانتفاع بأعمالهم ، وتجسيد لعنى الضياع والهلاك الذي يومض به التشبيه .

وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها جاءت مؤكدة لها فبين الجملتين كمال الاتصال .

وفي هذه السورة جاء التعبير بقوله « لا يقدرّون مما كسبوا على شيء » وفي البقرة جاء قوله « لا يقدرّون على شيء مما كسبوا » تعقيباً على تشبيه الذي ينفق ماله رثاء الناس في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرّون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم لكافرين » . <٣> فما سر اختلاف الصياغة في الآيتين ؟

لا شك أن الخطاب في آية إبراهيم للكفار ، وفيها شبه الله أعمالهم برماد طيرته الريح في يوم عاصف ، وفي ذلك تئيس وإقناط لهم من الانتفاع بأعمالهم لأنها قائمة على غير أساس من الإيمان بالله .

١ - انظر الإعجاز البلاغي ، للدكتور : محمد أبو موسى ، ص ١٠٥ وما بعدها دراسة في البلاغة والشعر

للدكتور : محمد أبو موسى ، ص ٢٩ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٢١٣/١٣ .

٣ - البقرة : ٢٦٤ .

أما آية البقرة فالخطاب فيها موجه للمؤمنين وليس للكفار ، وفيها تحذير للمؤمنين الذين ينفقون أموالهم طلباً للثواب ويعقبون صدقاتهم بالمن والأذى ، من خلال تشبيهه رائع شبه فيه حال الذي ينفق ماله في عدم حصوله على جزاء لإنفاقه بحجر أملس لا ينبت ، عليه طبقة رقيقة من تراب نزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه وتركه أملس صلباً لا ينبت بشيء .

فكلا التشبيهين يتفقان في محق الأعمال إلا أن تشبيهه سورة البقرة أكثر تصويراً لمحق العمل من سورة إبراهيم ، لأن عناصر الصورة فيه : هي صفوان ، تراب ، وابل ، صلباً ، وهي بلا ريب تصور المرئي خير تصوير وتكشف طويته المريضة ، فالتعبير بصفوان وهو الحجر الأملس وما يوحي به من قساوة قلب المرئي في كونه خالياً من معاني الإنسانية والرحمة ، وأنه لا ينتظر منه ما ينفع أو يغير ، وقوله « عليه تراب » فيه إشارة إلى ما يغطي به المرئي حقيقته بما يبيده من رياء الإنفاق ، ولكن هذا كالغشاء الزائف الذي يستر به حقيقته لا يجديه نفعاً فسرعان ما ينكشف ويتبدد ولا يجني من ورائه خيراً ، أما قوله « وابل » فهو المطر الغزير الشديد ، يدل على أن ذرات التراب تبددت مع السيل وجرفها إلى مكان بعيد يزول معه كل أمل يحدوهم في الوصول إلى هذه الأعمال والحصول عليها ، أما التعبير بكلمة « صلباً » فتدل على عدم النفع أي لا يمكن بحال من الأحوال صلاحية الزراعة فيه فهو أملس صلب لا يمكن أن يأتي بخير ، وفي ذلك تينيس وإقنات لهم من الانتفاع بأعمالهم ما عليه مزيد . <١>

ويبدو أن السر في اختلاف صياغة الآيتين هو التفنن في العبارة ، غير أن الاكتفاء بهذا القول لا يجدي في الدرس البلاغي ، وعلى هذا يمكننا أن نلتمس سراً آخر ، فنقول وبالله التوفيق .

إن التعبير بقوله « لا يقدر على شيء مما كسبوا » أدخل في التينيس والتقنيط ، لأن النكرة « على شيء » للتحقير ، وهنا نفى قدرتهم على أي شيء نفياً

عاماً ثم خصص بقوله « مما كسبوا » ، فهو من باب نفي الشيء بإيجابه لأن المراد زهاب عملهم ، فلا وجود له ، وغير الموجود لا يقدر عليه .

أما قوله « لا يقدرון مما كسبوا على شيء » فليس فيه مبادرة إلى نفي القدرة نفيّاً تاماً لأن قوله « على شيء » داخل في حيز « مما كسبوا » كما أنه دون مراعاة « مما كسبوا » من آية البقرة يكون المعنى تاماً « فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء » أما في آية إبراهيم فلا يمكننا عدم مراعاة « على شيء » والوقوف على « مما كسبوا » لأن فيه إخلالاً بالمعنى ، وعلى هذا فعدم مراعاة جزء من العبارة يغني عنه الآخر كما في آية البقرة ، أما في آية إبراهيم فلا يسد جزء من العبارة مسد الآخر على الإطلاق .

أما قوله « ذلك هو الضلال البعيد » فهو تذييل جامع لخلاصة حالهم ، وهي

أنها في ضلال بعيد . <١>

والتعبير باسم الإشارة « ذلك » ودلالته على البعد للإشارة إلى بعدهم في الضلال وهو مناسب لكلمة بعيد . وللاعتناء بالضلال وصفه بقوله « بعيد » زيادة في ذمهم فهم أبعد ما يكونون عن الحق .

وتعريف الطرفين وتوسيط ضمير الفصل « ذلك هو الضلال البعيد »

للحصر أي ذلك هو الضلال البعيد لا غيره ، فهو قصر حقيقي تنزيلي .

وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآية الكريمة يصور الله عز وجل أعمال الكفار الصالحة التي يحسبون أنها تنفعهم عند الله وتنجيهم من عذابه ، ثم تخيب أمالهم فلا ينتفعون بها يوم القيامة بسراب يراه الكافر في الصحراء وقد غلبه عطش شديد فيحسبه ماءً حتى إذا جد في الوصول إليه لم يجد ما كان يرجوه وإنما يجد الحق سبحانه فيوفيه حسابه وهو سبحانه سريع الحساب .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يتجلى في نظم الآية الكريمة التصوير البياني المعجز فيملك على الإنسان عقله وقلبه ومشاعره لإبرازه الأمور المعنوية في صورة مرئية محسوسة تراها العين .

فالتعبير القرآني في هذا المشهد الحافل بالحركة والحياة يصور أعمال الكافرين في الآخرة في صورة محسوسة هي صورة السراب الذي يلتمع التماعا في الصحراء يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جد في الوصول إليه لم يجده ماءً ، ووجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال حيث يجد عنده الحق سبحانه فيفجؤه هول رهيب . <٢>

ففي الآية تشبيه تمثيلي ، شبه ما يعمله الكفار من أعمال البر والخير في اضمحلالها وعدم الانتفاع بها يوم القيامة بسراب في أرض مستوية يراه الظمآن وهو في شدة الحاجة إليه فيحسبه ماءً فيسرع نحوه متلهفاً لاهتاً حتى إذا وصل

١ - سورة النور : ٣٩ .

٢ - راجع الإعجاز البلاغي ، ص ١٠١ ، وما بعدها ، في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٥٢١ .

إليه بعد عناء شديد لم يجده شيئاً ففتحطم آماله وتشتد حسرته ، ويفاجأ بما لم يخطر له على بال وهو في غفلة وذهول إذ يجد الله عنده فيوفيه حسابه من غير مهلة ولا انتظار . <١>

ووجه الشبه كما ذكر الرماني أنهما « اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة » <٢> أما غرض التشبيه فهو تقرير حال المشبه في ذهن السامع ، « وهذا الغرض يُسعى إليه حين يراد إبراز الأمور المعنوية الذهنية في صورة حسية حتى تستقر في نفس السامع وتتمكن في ذهن المخاطب » . <٣>

وبناء التشبيه على هذا النسج المحكم - مع ما تضمن من حسن النظم وعذوبة اللفظ وكثرة الفائدة وصحة الدلالة كما ذكر الرماني <٤> - يفصح عن لطائف بلاغية ينبض بها السياق - بألفاظه وتراكيبه منها التعبير بالموصول « الذين كفروا » للإيماء إلى وجه بناء الخبر مع ما فيه من تقييح لأعمالهم بسبب كفرهم ، ولو قال وأعمال الذين كفروا كسراب فقدنا لا محالة هذا الذم والتشنيع للكفار ، ثم إن إلقاء الكفر في صدر المثل فيه شين لكل عمل بعد وإسقاط لكل بناء يبني على هذا الجرف الهاري . <٥>

كما أن التعبير بحرف التشبيه « الكاف » جعلت أعمالهم في مرتبة أدنى من مرتبة السراب ووراء ذلك استخفاف بها وازدراء لها ، وتتكبير كلمة « سراب »

١- انظر الكشاف ، ٦٩/٣ ، البحر المحيط ، ٤٦٠/٦ ، حاشية الشهاب ، ٣٨٨/٦ ، الجمان في تشبيهات القرآن ، ص ١٧٠ ، مفتاح العلوم ، ص ٣٢٨ ، المثل السائر ، ١٢٨/٢ ، القرآن إعجازه وبلاغته ، ص ١٢٥ ، وما بعدها ، مع النظم القرآني في سورة النور ، ص ١٢٨ ، أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٢٢١ وما بعدها .

٢ - النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٢ ، راجع الإعجاز البلاغي ، ص ١٠٥ .

٣ - القرآن إعجازه وبلاغته ، ص ١٤٨ ، وما بعدها .

٤ - انظر النكت ضمن ثلاث رسائل ، ص ٨٢ .

٥ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٢٢٢ .

للتحقير والتقليل فهو سراب ضئيل تافه ، وتذهب هذه الخصوصية لو قلنا :
 أعمالهم كالسراب ، وقيد السراب بقوله « بقية » وهي الأرض المستوية لما في
 استواء الأرض من خداع في قرب المسافة أيضاً ، فالسراب يخدع والأرض نفسها
 تخدع ، وهذا الظمان يسير ولا يبالي ويقطع هذه المسافة بعد عناء شديد ، كما أن
 التعبير بكلمة « الظمان » يصور الالهة وشدة الفاقة ، جيء به لتكميل التشبيه ببيان
 شدة حسرته وندمه حيث لم يجد الماء مع شدة حاجته إليه وفي ذلك إيحاء إلى شدة
 تعلق الكافر بعمله الصالح وظنه إياه طوق النجاة .

وتنكير لفظ الماء يفيد التقليل لكن الأمل كائن فيه مع قلته ، ثم يسير
 الظاميء ويسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، فحتى تشير هنا إلى رحلة شاقة
 ومعاناة طويلة يجده فيها الظماً ويحفره إليها الأمل ، وفي قوله « جاءه » إيجاز
 بالحذف حيث حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه تقديره : جاء موضعه ، وفي
 هذا الحذف إشارة إلى أنه أجهد نفسه وأرهقها حتى جاء إلى غير موجود ، ويرشد
 إلى هذا الفهم قوله « لم يجده شيئاً » حيث وقعت كلمة « شيئاً » مفعولاً به لقوله
 « لم يجده » وكان يمكن أن نقول : لم يجده ماءً لكن كلمة « شيئاً » جعلته عدماً
 مطلقاً ، ثم في ذكر ضمير السراب في قوله « لم يجده » وكان يمكن أن نقول « لم
 يجد شيئاً » لكن الضمير نص على الأمل المنشود وصيره عدماً وفي ذلك إبراز
 للمغزى وخيبة الأمل ، وشيء آخر في هذه الهاء هو تهئية الكلام لقوله بعد ذلك
 « ووجد الله عنده » لأنه لو قال : حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً بدون الهاء لكان
 متناقضاً مع قوله « ووجد الله عنده » ثم في هذا الشرط « إذا » الذي ربط العدم
 بالسعي وجعله جواباً ونهاية له .

وتأمل جمال البيان القرآني في قوله « ووجد الله عنده فوفاه حسابه »
 وما فيه من هول مذهل رهيب حيث قال « وجد الله » وفي ذلك من الرهبة ما فيه ،
 وخاصة أن الكافر ينكر وجود الله ، ثم تفجؤه هذه الحقيقة وهو في تلك اللحظات
 القاهرة ، وانظر إلى الفاء في قوله « فوفاه حسابه » تشير إلى سرعة الكفح ونزول
 العذاب ، كما أن إسناد التوفية إلى ضمير ذي الجلال - فالله هو الذي يتولى
 تعذيبه - بنفسه - دال بلا شك على شدة الغضب

ثم تأمل كلمة « حسابه » وما تشير إليه من الإنصاف ، فكل ما أشار إليه الكلام من الرهبة وسرعة المكافحة بالعذاب ، وشدة الغضب ليس فيه مجاوزة وإنما هو بحساب دقيق . <١>

أما قوله « والله سريع الحساب » فهو تذييل يقرر مضمون ما سبق من الحساب والتوفية ، ويبين أنه لا تمهل فيه ولا تأخير ، لأن الله فاعله وهو سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار الروعة وتربية المهابة ، وللدلالة على تفرد الألوهية عز وجل .

وقد جاءت هذه الجملة - كما ترى - معطوفة « بالواو » على الجملة السابقة لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود المناسبة المصححة للوصل .

بيد أن الأولى بالسياق حمل هذه الجملة على الاستئناف النحوي أي إن الله في كل الأحوال سريع الحساب ، وكلمة الحساب من جوامع الكلم إذ تفيد : أولاً : إحصاء ما عمله العباد ، وثانياً : مواجهتهم به ، وثالثاً : تقريرهم بما عملوا ، ورابعاً : الحكم بما يستحقه كل عامل ، وأخيراً : إلحاق كل عامل بمصيره المناسب .

١ - انظر الإعجاز البلاغي ، ص ١٠٥ ، وما بعدها وأسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٢٢٢ ، وما بعدها .

وقال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ، ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات الكريمات إشارة إلى تغيير الكون واختلاف أوضاعه يوم القيامة تنبئ عن عظمة الخالق المدبر وقدرته على تبديل الأرض والسموات ، ثم تختتم ببيان نهاية المجرمين بعد خروجهم من قبورهم وبروزهم أمام الواحد القهار للجزاء والحساب حيث تلفح وجوههم النار وهم مقرنون في السلاسل والأصفاد وقد لاقوا جزاءهم العادل « ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

تبرز هذه الآيات الكريمات مشهداً من مشاهد الآخرة ، تصور ما فيه من هول شديد يشمل الطبيعة كلها الأرض والسموات وما فيهن ، ويغشى النفس الإنسانية ويهزها من خلال بيان حال المجرمين ومآلهم في النار حيث نراهم مقرنين في الأصفاد تلفح وجوههم النار المحرقة . أجازنا الله منها .

وفي هذا المشهد تعنى الآيات بتصوير العذاب وتجسيده مادياً ومعنوياً بحيث يلمسه الحس وتدركه النفس . <٢>

وقد جاءت جملة « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » كاشفة لزيادة الإنذار بيوم الحساب لأن فيه تبييناً لبعض ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وعلى هذا يمكننا أن نجعل « يوم تبدل الأرض » متعلقاً بقوله « إن الله سريع الحساب »

١ - إبراهيم : ٤٩ - ٥١ .

٢ - راجع مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ص ٥٢ .

قدّم عليه للاهتمام بوصف ما يحصل فيه ، فجاء على هذا النظم ليحصل منه التشويق إلى وصف هذا اليوم لما فيه من الأحوال ، كما يمكن أن نجعله متعلقاً بفعل محذوف قدره : انكر يوم تبدل الأرض ، وتكون جملة « إن الله سريع الحساب » على هذا تذييلاً ، أو متعلقاً بفعل محذوف دل عليه قوله « ليجزي الله كل نفس ما كسبت » والتقدير : يجزي الله كل نفس بما كسبت يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . <١>

وفي التعبير بقوله « يوم تبدل الأرض » إيجاز بالحذف حيث حذف الفاعل للعلم به تقديره : يبدل الله الأرض غير الأرض ، أما قوله « والسموات » ففيه إيجاز حذف كذلك حيث أغنى العطف عن إعادة العامل والمعمول الثاني معاً : والتقدير : وتبدل السموات غير السموات ولعل السر من وراء تقديم تبديل الأرض وإيقاع الفعل عليها وإضماره في السموات لكونها معلومة لدينا ، ولكون تبديلها أعظم أثراً بالنسبة إلينا لأننا نعيش ملاصقين لها . <٢>

وحاصل معنى الآية : استبدال عالم جديد بالعالم المعهود ، لكننا لا ندري كيف يتم هذا التبديل ، ولا طبيعة الأرض ولا طبيعة السماوات ، غير أن النظم القرآني يبرز عظمة الخالق عز وجل وقدرته الفائقة التي تبدل الأرض وتبدل السماوات ، وفجأة نرى ذلك قد تحقق <٣> - طاوياً عنا السياق قصة هذا التبديل - من خلال التعبير القرآني « وبرزوا لله الواحد القهار » .

وقد وصلت هذه الجملة بالواو على الجملة السابقة « يوم تبدل الأرض » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى ، والعدول عن المضارع إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه حتى لكأنه قد وقع . <٤>

-
- ١ - التحرير والتنوير ، ٢٥٢/١٣ ، راجع الكشاف ، ٢٨٤/٢ ، تفسير أبي السعود ، ٢٨٢/٣ ، روح المعاني ، ٢٥٣/١٣ ، وما بعدها .
 ٢ - راجع الفتوحات الإلهية ، ٥٣٣/٢ .
 ٣ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٥٣/١٣ ، في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢١١٣ .
 ٤ - انظر روح المعاني ، ٢٥٥/١٣ .

ومن البديه عند البلاغيين أن في هذا التعبير القرآني ونظائره إستعارة
تبعية في زمن الفعل - وهذا يكثر في أحداث القيامة - حيث استعير البروز في
الماضي للبروز في المستقبل للإشارة إلى تحقق وقوعه ثم اشتق من البروز في
الماضي الفعل « برزوا » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وليس بخاف ما يفيض به السياق من روائع البيان فقد عبر القرآن عن
ظهور الكفار من أجداثهم بقوله « برزوا » ليشير إلى أنهم شاخصون في مكان
بارز يتأتى لكل شخص رؤيتهم ، لا يسترهم ساتر ولا يقيهم واق من الله ، ليسوا
في دورهم أو في قبورهم وإنما هم في العراء أمام الواحد القهار . <١>

وحرف اللام في قوله « لله » يهمس بمعاني الهيمنة والسيطرة والإحكام أي
« لحكمه سبحانه ومجازاته » <٢> ففي الكلام إيجاز بحذف المضاف كما ترى .

ويكشف التعبير بقوله « الواحد القهار » بجرسه وظلاله عن هول رهيب
وخطب شديد ، فهذان الوصفان الكريمان جيء بهما لتحويل العذاب ولتربية المهابة
والروعة لأنهم إذا كانوا واقفين أمام ملك عظيم لا يشاركه غيره كانوا على خطر
عظيم إذ لا مقاوم له ولا مغيث سواه . <٣>

والعدول إلى صيغة المضارع في قوله « ترى » لاستحضار الصورة فكأنهم
هكذا الآن ، أما قوله « مقرنين في الأصفاد » فهو إما حال من المجرمين إن كانت
الرؤية بصرية ، وإما مفعول به ثان إن كانت الرؤية علمية <٤> ، وهذه الجملة جاءت
بياناً لحالهم في الموقف قبل أن يكب بهم في النار .

١ - انظر في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢١١٣ .

٢ - انظر روح المعاني ، ٢٥٥/١٣ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٨٢/٣ ، روح المعاني ، ٢٥٥/١٣ .

٤ - انظر روح المعاني ، ٢٥٥/١٣ ، وما بعدها ، حاشية محي الدين زاده ، ١٤٢/٣ .

وانظر كيف أثر القرآن التعبير بحرف الظرفية في قوله « مقرنين في والأصفاً » أي مقرنين بالأصفاً لكن النظم أثر التعبير بحرف الظرفية دون حرف الإلصاق للدلالة على التمكن والاستقرار حتى لكأن الأصفاً صارت ظرفاً لهم فغمرتهم وأحاطت بهم من كل ناحية كما يحيط الظرف بمظروفه .

فهل يمكن أن ينهض بهذه المعاني ويوحي بهذه الأغراض حرف غير حرف الظرفية ؟ وهل تجد ما وجدت لو جاء النظم هكذا : مقرنين بالأصفاً ؟

أما جملة « سراييلهم من قطران » فهي إما أن تكون حالاً من « المجرمين » أو من الضمير في « مقرنين » وإما مستئنفاً إستئنافاً بيانياً وقعت جواباً لسؤال تضمنته الجملة السابقة تقديره « إذا كان هذا حالهم في الموقف فكيف يكون حالهم وهم في جهنم خالدون ، فأجيب بقوله « سراييلهم من قطران » ^١ ولهذا فصلت عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

والمراد بقوله « سراييلهم » ما يلبس من قميص أو درع ^٢ ، وفي هذا التعبير الكريم تشبيهه بليغ لأن الأداة محذوفة ، لأن المقصود أنه تطلى جلود أهل النار بالقطران حتى يعود طلاؤه كالسراييل . ^٣ فاللفظ هنا مستعمل في حقيقته لأن السراييل في اللغة معناها الألبسة والأعطية .

ويجدر بنا أن نتساءل لما أثر البيان القرآني التعبير بقوله « سراييل من قطران » دون « لباسهم » في هذا السياق ؟

أرى — والله أعلم — أن السرف في إثارة القرآن التعبير بالسراييل دون الملابس للإشارة إلى أن القطران ملاصق لأجسادهم ومحيط بها وفي ذلك زيادة تعذيب وتنكيل لهم ، أما كلمة اللباس فهي لا تومض بهذه المعاني التي يشيعها لفظ

١ — انظر حاشية محي الدين زاده ، ١٤٢/٣ ، راجع روح المعاني ، ٢٥٧/١٢ .

٢ — انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٥٨١/١ .

٣ — انظر روح المعاني ، ٢٥٦/١٢ .

السراييل وإنما تشير بدلالاتها إلى الترف والجمال ، فلهذا آثر القرآن هذا اللفظ دون غيره لأنه أدخل في بلاغته وأليق بنظمه الفريد .

و « من » في قوله « من قطران » بيانية ، والقطران هو عصارة شجر الأبهل يطبخ فتطلى به الإبل الجربى ، وهو مادة شديدة الاشتعال <١> ، وقرىء « قطرانٍ » <٢> بالتثوين على أنهما كلمتان ، فالقطر : هو النحاس المذاب ، والآني اسم فاعل من أنى يأتي أي تناهي في الحرارة . <٣>

ويروعك جلال النظم القرآني حين تتأمل كلمة « القطران » وما توحى به من ذل وخزي وتحقير وتعذيب في هذا المشهد المهول ، فهاهي ذي سراييلهم من مادة شديدة الاشتعال ، وهي في الوقت ذاته قذرة سوداء ، فاجتمع لهم من خلال هذا التعبير الأنواع الأربعة من العذاب المعدة لهم وهي لذع القطران بحرارته وحرقته ووحشة لونه ورائحته النتنة كما ذكر كثير من المفسرين . <٤>

ويمضي السياق في تصوير العذاب مادياً ومعنوياً بقوله « وتغشى وجوههم النار » وهاته الجملة حوت كثيراً من فنون البلاغة منها أن في التعبير بقوله « تغشى » استعارة تبعية حيث شبه التغطية بالتغشية بجامع الإحاطة والشمول في كل ثم استعير اللفظ الدال على المشبه وهو « التغشية » للمشبه وهو « التغطية » ، ثم اشتق من التغشية الفعل « تغشى » بمعنى « تغطي » على سبيل الاستعارة التبعية .

١ - انظر مفردات الراغب ، ص ٤٠٧ ، معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٤٠٣/٢ ، راجع الكشاف ، ٢٨٥/٣ .

٢ - هي من القراءات الشاذة وقد قرأ بها ابن عباس وأبو هريرة وعلقمة وابن جبير وابن سيرين والحسن وسنان ابن سلمه وعمرو بن عبيد والكلبي وعيسى الهزاني وقتادة والربيع وعمرو بن فائد انظر المحتسب لابن جني ، ٣٦٦/١ .

٣ - انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٤٠٣/٢ ، وما بعدها والكشاف ، ٢٨٥/٣ ، البحر المحيط ، ٤٤٠/٥ ، حاشية زاده ، ١٤٣/٣ .

٤ - راجع الكشاف ، ٢٨٥/٣ ، تفسير أبي السعود ، ٢٨٤/٣ ، روح المعاني ، ٢٥٦/١٣ حاشية زاده ، ١٤٣/٣ ، في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢١١٣ .

وذهب الشيخ محي الدين زاده إلى أن هذا التركيب استعارة تمثيلية بقوله « ويحتمل أن يكون في قوله « سراييلهم من قطران » استعارة تمثيلية » <١> ، وذلك بأن تشبه النفس المتلبسة بالملكات الرديئة كالكفر والجهل والعناد والغباوة بشخص لبس ثياباً من زفت وقطران ، ووجه الشبه تحلي كل منهما بأمر قبيح مؤذ لصاحبه يستكرهه عند مشاهدته ويستعار لفظ أحدهما للآخر .

غير أن الألووسي رحمه الله استبعد هذا الرأي ورده بقوله « ولا يخفى ما في توجيه الاستعارة التمثيلية بهذا من المساهلة وهو ظاهر ، على أن القول بهذه الاستعارة أقرب ما يكون إلى كلام الصوفية » . <٢>

وفي التعبير بقوله « وجوههم » مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد الكل زيادة في تحقيرهم والسخرية منهم ، ووجه « تخصيص الوجوه بهذا الحكم المذكور مع شموله لسائر أعضائهم لكونها أعز الأعضاء وأشرفها كقوله تعالى « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » <٣> ولكونها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره » . <٤>

وتأمل روعة التصوير القرآني في إسناد الفعل إلى النار ، فهو إما أن يكون من قبيل المجاز العقلي ، وإما أن يكون استعارة مكنية ، غير أنني أميل إلى الاستعارة المكنية وأجد لها في هذا السياق طعماً ومذاقاً لا أجده في المجاز العقلي ، فقد شبه النار بعدو ذي إرادته وانتقام ثم حذف المشبه به ورمز له بإثبات لازم المشبه به للمشبه وهو التغطية على سبيل الاستعارة المكنية .

١ - حاشية زاده ، ١٤٣/٣ .

٢ - روح المعاني ، ٢٥٧/١٣ .

٣ - الزمر : ٢٤ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٢٨٤/٣ ، انظر روح المعاني ، ٢٥٧/١٣ ، حاشية زاده ، ١٤٣/٣ .

ولا يخفى ما في تقديم المفعول به « وجوههم » على الفاعل « النار » من زيادة نكاية بهم مع ملامته للفاصلة القرآنية .

ووصلت هذه الجملة بالواو على سابقتها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى ، وهذا العطف دل على أن لهم بعد دخولهم النار عذابين هما : أن سراييلهم من قطران ، وأن النار تغشى وجوههم .

ونلاحظ أن الأولى إسمية لتفيد الثبوت والاستقرار ، أما الجملة الثانية فقد جاءت فعلية وصدرت بالفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث لاستحضار الصورة والدلالة على تجدد الغشيان حالاً فحلاً . <١>

أما قوله « ليجزي » فهو متعلق بمحذوف تقديره : يفعل بالمجرمين ذلك ليجزي سبحانه كل نفس ما كسبت ، وفي قوله « كل نفس » إيجاز بالحذف أي كل نفس مجرمة لدلالة السياق والمقام عليه ، أو يحتمل هذا اللفظ العموم أي كل نفس من مجرمة ومطبعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم . <٢>

ثم تختتم الآية بقوله « إن الله سريع الحساب » أي لا يشغله حساب عن حساب ، وقد جاءت هذه الجملة مستأنفة إستئنافاً بيانياً لكونها تعليلاً للجزاء والعقاب ، ولذلك فصلت عن الجملة السابقة لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

ولبلاغة القرآن نمط فريد وإحكام دقيق في اختيار ما يلائم السياق من ألفاظ بحيث لا يغنى عنها غيرها ، فانظر إلى قوله « إن الله سريع الحساب » كيف جاء ملائماً لمقامه ، لأن سرعة الحساب تتناسب مع المكر والتدبير الذي أشار إليه قول الحق تبارك وتعالى قبل هذه الآيات في قوله « وقد مكروا مكروهم وعند الله

١ - راجع حاشية زاده ، ١٤٣/٣ ، روح المعاني ، ٢٥٧/١٣ .

٢ - انظر الكشاف ، ٢٨٥/٣ ، البحر المحيط ، ٤٤١/٥ ، تفسير أبي السعود ، ٢٨٥/٣ ، روح المعاني ،

٢٥٧/١٣ ، حاشية الشهاب ، ٢٨٠/٥ .

مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » . <١> فهم كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم الذل والتعذيب ، فالله سريع الحساب ، والسرعة في الحساب هنا تناسب هذا المكر الذي يحسبونه ينفعهم ويحميهم ويخفيهم ، فهاهم يجزون ما كسبوا ذلاً وألماً وسرعة حساب . <٢>

وهذه الآيات تصور بألفاظها وتراكيبها الهول والعذاب « فالهول هول مادي ومعنوي ، في تبدل الأرض والسموات ، وفي البروز للواحد القهار ، والعذاب عذاب حسي ومعنوي في غشيان النار لوجوههم ، وفي قرنهم في الأصفاد ، وهذه سمة الإهانة والاحتقار » . <٣>

وفوق ذلك فإن « إن الله سريع الحساب » خبر أريد به التهديد على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقيد .

١ - إبراهيم : ٤٦ .

٢ - في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢١١٣ .

٣ - مشاهد القيامة في القرآن ، سيد قطب ، ص ١٩٧ .

قال تعالى : ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تتناول هذه الآيات مشهداً من مشاهد القيامة يتجلى فيه الإكرام والهوان ، في صورة خصومة تكون بين خصمين تعرض للعيان .

أما الفريق الأول فهم أعداء الله ولهم عذابهم المعد لهم حيث تقطع لهم ثياب من نار ، ولهم هذا الحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم يصهر أمعائهم وجلودهم ، ولهم سياط من نار ، أما الفريق الثاني فهم المؤمنون ولهم التكريم والإنعام .
خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يبرز البيان القرآني في هذه الآيات صورة من صور العذاب والخزي التي ينالها الكفار في الآخرة أبلغ تصوير حيث بدأ بتقسيم الناس قسمين بقوله « هذان خصمان اختصموا في ربهم » وفي هذا النظم تتجلى البلاغة القرآنية في أجلى وأبهى صورها .

منها التعبير باسم الإشارة « هذان » إلى الخصمين حتى لكأن طرفي الخصومة ماثلان يراهما السامع رأي العين . على أن هذه الخصومة لم تقع وإنما ستقع في الآخرة ، وإنما عبر عنها بالماضي لتحقيق وقوعها .

وتأمل روعة جناس الاشتقاق في قوله « خصمان اختصموا » وما فيه من تجانس صوتي يزيد اللفظ حسناً وبهاءً ، وما في المخاصمة من مفاعلة تشير إلى أن الخصومة لم تكن من طرف واحد بل إن كل فريق يسعى جاهداً لدحض خصمه

بالحجة والبرهان ، أما قوله « في ربهم » ففيه إيجاز بالحذف لأن المراد اختصموا في شأن ربهم ودينه وصفاته . <١>

ولا ننسى أن نلفت الأنظار إلى مافي التعبير من بيان بعد إبهام في قوله « هذا خصمان » ففيه إجمال فصله قوله تعالى « فالذين كفروا ... » وقوله « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ... » لأنهما طرفا الخصومة .

وهذا الأسلوب قادر على الإثارة وتحريك المشاعر ، وهو لذلك وسيلة من وسائل تمكن المعاني في القلوب ، يقول الخطيب القزويني * في بيان ذلك « إن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم » . <٢>

ومن بلاغة القرآن أنه كان من المنتظر عندما قال « هذا خصمان اختصموا في ربهم » أن يفصل القول في هذه الخصومة ، ويبين عقيدة كل خصم وأفكاره لكن القرآن عدل عن ذلك كله وطوى الحديث عن واقع الخصومة وركز على بيان المصير المقدر لكل خصم حيث النار للكفار ، والجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات .

١ - انظر الكاف ، ٩/٣ ، تفسير أبي السعود ، ١٨/٤ ، روح المعاني ، ١٢٢/١٧ ، مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢٩٢ .

* هو أبوالمعالى جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الشافعي المعروف بخطيب دمشق « ٦٦٦ - ٧٣٩هـ » فقيه أصولي أديب عالم بعلوم العربية ، ولد بالموصل وولي القضاء في ناحية بالروم ثم تولى قضاء دمشق فقضاء القضاة بمصر ، من مصنفاته : تلخيص المفتاح ، والإيضاح في شرح التلخيص والسور المرجاني من شعر الأرجاني ، انظر ترجمته في الأعلام ، ١٩٢/٦ ، معجم المؤلفين ، ١٤٥/١٠ - ١٤٦ ؛ البلاغة تطور وتاريخ ، ص ٢٢٥ وما بعدها .

٢ - الإيضاح ، ٢٠١/٢ ، تحقيق الدكتور : محمد عبدالمنعم خفاجي ، راجع قراءة في الأدب القديم . ص ٢٩٧ .

وفي عدول القرآن عما كان مرتقباً إلى ما عليه النظم الكريم أسرار بلاغية يمكننا أن نذكر بعضاً منها : أن سورة الحج من أواخر السور المدنية ، وكثيراً ما عرض القرآن لبيان عقائد أهل الباطل وتنفيذها واحدة واحدة في كثير من سورته حتى أصبحت كل فرقة معروفة بعقائدها وشبهها لذلك طوى البيان القرآني الحديث عن تلك الخصومة مكتفياً ببيان أنها فرقت الناس فرقتين إحداهما على الحق والأخرى على الباطل ، فليس المقام مقام سرد وتفصيل وإنما المقام مقام حسم إما إيمان ونجاة وإما كفر وهلاك ، لذلك عمد القرآن زيادة في الترهيب إلى بيان مصير كل فرقة حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة . <١>

وفي التعبير بقوله « قطعت » إستعارة تبعية فقد استعير التقطيع في الماضي للتقطيع في المستقبل للإشارة إلى تحقق وقوعه حتى لكأنها قد قطعت لهم ثياب بالفعل ، ثم اشتق من التقطيع في الماضي الفعل « قطعت » بمعنى « تقطع » على سبيل الاستعارة التبعية ، فالاستعارة في زمن الفعل .

وقيل إن في التقطيع مجازاً مرسلأً بذكر المسبب وهو التقطيع وإرادة السبب وهو التقدير والتخمين كما ذكر الشهاب الخفاجي . <٢>

ولعلك تلاحظ أن هذا الفعل جاء مضعف العين للدلالة على التكثير أي قطعت لهم ثياب كثيرة العدد وفي هذا ترهيب شديد وتحذير أكيد من عقوبة الكفر وأهله ، وفي بناء الفعل للمفعول مع ما فيه من إيجاز اعتناء بالحدث نفسه « التقطيع » لأنه محط الاعتبار بغض النظر عن الفاعل من هو ؟

وفي تقديم الجار والمجرور « لهم » على نائب الفاعل « ثياب » مسارعة إلى تخويف الكفار ، ومحافظة على جزالة النظم الكريم ، لأنه لو أخرجنا بلاريب ذلك التلاؤم الصوتي الذي كنا نجده في أعطاف النظم القرآني ، وبذلك يتضح الفرق الكبير بين ما عليه البيان القرآني وبين قولنا « قطعت ثياب من نار لهم » .

١ - انظر مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، بتصرف ، ص ٢٩٣ ، وما بعدها .

٢ - حاشية الشهاب ، ٢٨٩/٦ .

أما تنكير « ثياب » فهو للتهويل من شأنها ، وقد زاد قوله « من نار » هذا التهويل تفضيلاً وغبابة فهي ثياب غير معهودة لأنها من نار ، وهل رأى إنسان ثياباً مصنوعة من نار أم ناراً تصنع منها ثياب ؟ . <١>

هذا إذا اعتبرنا الألفاظ هنا على حقيقتها ، أما أكثر المفسرين فقد سلكوا مسلك التأويل فلم يقولوا بأن لهم ثياباً من نار بل هي « نيران هائلة تحيط بهم إحاطة الثياب بلباسها » ، أو كأن الله تعالى يقدر لهم نيراناً على مقادير جنثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة . <٢>

ففي التعبير بقوله « ثياب من نار تشبيهه بليغ - لعدم ذكر الأداة - وليس استعارة لأن المشبه والمشبه به موجودان ، فالثياب مستعملة على حقيقتها ولكنها من نار بدليل قوله « قطعت » .

أما جمع الثياب فلإيذان بتراكم النار المحيطة بهم وكون بعضها على بعض <٣> ، زيادة في الترهيب من العذاب والتحذير من عاقبة الكفر لأن هذا سيكون مصيرهم .

وهكذا نرى النص القرآني يحتمل وجوهاً عديدة من النظر ، غير أنني أميل إلى جعل بعض الألفاظ على حقيقتها خاصة فيما يتعلق بالآخرة وما فيها من ظواهر وأحوال تختلف اختلافاً كلياً عما هي عليه الآن في الحياة الدنيا .

ولنعد إلى النص نجد البيان القرآني يترقى في الترهيب من الكفر ببيان ما أعد لهم من عذاب شديد حيث يصب الحميم من فوق رؤوسهم ، يصهر به ما في

١ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٩٥ .

٢ - انظر الكشاف ، ٩/٢ ، البحر المحيط ، ٣٦٠/٦ ، تفسير أبي السعود ، ١٨/٤ ، روح المعاني ، ١٣٤/١٧ ، تفسير البيضاوي ، حاشية الشهاب ، ٢٨٩/٦ ، حاشية زاده ، ٣٧٩/٣ ، مناهج الدعوة ، ص ٢٩٥ .

٣ - انظر حاشية الشهاب ، ٢٨٩/٦ ، روح المعاني ، ١٣٤/١٣ .

بطونهم والجلود ، وهذه مقامع الحديد تهوي فوقهم ، وهذا الخلود الدائم في العذاب ، ولا شك أن من كان هذا مصيره فهو مؤلم غاية الإيلام ، نعوذ بالله من عذابه وسخطه .

والحميم : الماء الشديد الحرارة ^١ ، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله : « لو سقطت من الحميم نقطة على جبال الدنيا لأذابتها » ^٢ فما بالك بالإنسان وهو من لحم ودم ، ما أشقاه إذا حل به هذا العذاب إذا لم تتداركه رحمة من الله .

ومن لطائف القرآن وأسراره التي لا تتناهي في قوله « يصب من فوق رؤوسهم الحميم » فالصب معناه : الكثرة والتدفق ، وقد وقعت هذه الجملة حالاً أي حال كون الحميم مصبواً عليهم من فوق رؤوسهم ، وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف حيث حذف الفاعل للعلم به وبنى الفعل للمفعول لتوفير العناية بالحدث نفسه .

وآثر النظم الكريم التعبير بقوله « من فوق رؤوسهم » دون قولنا « فوق رؤوسهم » لأن ما عليه النظم الحكيم أبلغ لأن مجرد الفوقية لا يلزم منها إسالة الحميم عليهم ، وإن لزم فإنه قد يتبادر إلى الفهم أنه يفقد شيئاً من حرارته قبل أن يصل إليهم لأن الفوقية غير مضبوطة ، ولكن لما قال « من فوق رؤوسهم » بين بكلمة « من » مبدأ الفوقية أي أن الحميم يصب من فوق رؤوسهم مباشرة لا من جهة أعلى منها ، وأفادت « من » إلى ما تقدم معنى التمكين . ^٣ زيادة في النكاية بهم وبث الخوف والهلع في نفوسهم عليهم يسلكون طريق الرشاد فينجوا من العذاب الأليم .

١ - مفردات الراغب ، ص ١٢٠ .

٢ - انظر الكشاف ، ٩/٣ ، البحر المحيط ، ٣٦٠/٦ ، مناهج الدعوة ، ص ٢٩٦ .

٣ - مناهج الدعوة في القرآن الكريم ، ص ٢٩٦ .

وجملة « يصهر به مافي بطونهم والجلود » حالية ، والصهر : الإذابة <١> ،
ومن سوء مصير الكفار أن الحميم هو شرابهم وهو المصبوب على رؤوسهم على
نحو ما يفهم من السياق ، ويضيف أبوحيان قائلاً « لما ذكر ما يعذب به الجسد
ظاهره وما يصب على الرأس ذكر ما يصل إلى باطن المعذب وهو الحميم الذي
يذيب مافي البطن من الحشا ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر وهو الجلد فيؤثر
في الظاهر تأثيره في الباطن <٢> ، كما قال تعالى « وسقوا ماء حميماً فقطع
أمعاهم » . <٣>

« فالحميم الذي يشربون يقطع أمعاهم ، والذي يصب من فوق رؤوسهم
يذيب مافي بطونهم كما يذيب جلودهم ، وكان الحميم المشروب - لأنه مشروب -
أقل حرارة من المصبوب فكان تأثير المشروب تقطيع الأمعاء ، وكان تأثير المصبوب
إذابتها » . <٤>

وأل التعريف في قوله « الجلود » عوض عن المضاف إليه أي وجلودهم ،
وهو معطوف على « ما » في قوله « يصهر به مافي بطونهم » أي الجلود تذاب
كما تذاب الأحشاء .

ويبدو أن سر تأخره عنها إما « لمراعاة الفاصلة أو للإشعار بغاية شدة
الحرارة بإيهام أن تأثيرها في الباطن أشد من تأثيرها في الخارج » . <٥>

١ - انظر معجم مقاييس اللغة ، ٣/٢١٥ ، أساس البلاغة ، ص ٢٦٠ ، المفردات ، ص ٢٨٧ ، معجم ألفاظ

القرآن الكريم ، ٢/٩٢ .

٢ - البحر المحيط ، ٦/٣٦٠ .

٣ - محمد : ١٥ .

٤ - مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٩٦ .

٥ - انظر البحر المحيط ، ٦/٣٦٠ ، تفسير أبي السعود ، ٤/١٨ ، حاشية الشهاب ، ٦/٢٨٩ ، روح

المعاني ، ١٧/١٣٤ .

والمقامع : جمع مقمع : وهو ما يضرب به ، وفسره بعض أئمة التفسير

بالسياط أو بالمطارق . <١>

ومن في قوله « من حديد » بيانية أي أن هذه المقامع من حديد .

والضمير في « لهم » عائد على الكفار ، واللام هنا بمعنى على أي وعليهم

مقامع من حديد كقوله « ولهم اللعنة » أي وعليهم كما ذكر أبوحيان في تفسيره

وتابعه بعض المفسرين <٢> ، غير أن صاحب الفتوحات الإلهية ضعفه قائلاً « وفي

اللام حينئذ قولان : أحدهما للاستحقاق والثاني أنها بمعنى على كقوله ولهم اللعنة

وليس بشيء » . <٣>

وأرى أن اللام بمعنى « على » وأسمع لها في هذا السياق همساً لا يمكن

أن ينبض به حرف الاستعلاء ، فحرف اللام يوحى بثبوت هذا العذاب لهم

واستحقاقهم له مع ما فيه من ذم وتهكم لهم وزيادة تنكيل بهم . ولفظ المقامع

يجسد بجرسه وظله هول العذاب وشدته ، ويبرزه شاخصاً تتملأه العين وترقبه

النفس .

وفي قوله تعالى « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها »

حرص القرآن على كشف محاولتهم اليائسة في الخروج من النار لشدة ما يلقونه

فيها من غم وعذاب شديد لكنهم يعادون إليها ، حيث حكم عليهم الحق سبحانه

بالبقاء والخلود فيها على نحو ما يكشف عنه قوله تعالى « وما هم بخارجين من

النار » <٤>

١ - انظر المفردات ، ص ٤١٣ ، الكشاف ، ٩/٣ ، البحر المحيط ، ٢٦٠/٦ ، روح المعاني ، ١٣٥/١٧ .

٢ - البحر المحيط ، ٢٦٠/٦ ، انظر روح المعاني ، ١٣٥/١٧ .

٣ - الفتوحات الإلهية ، ١٦٠/٣ .

٤ - البقرة : ١٦٧ .

وكلما هنا حاصره ، ففي أي وقت أو حال أرادوا أن يخرجوا من النار أعييدوا فيها جبراً وقسراً ، والإرادة في قوله « أرادوا » مجاز عن المشاركة والقرب ^١ ، لكن النظم القرآني أثر هذا التعبير لأنه يشير إلى شدة حرصهم وكثرة محاولتهم في الخروج من النار ، ونلاحظ أن البيان القرآني حرص في هذه الأفعال « قطعت ، يصب ، يصهر ، أعييدوا ، على بناء الفعل للمفعول إلا في قوله « أرادوا » فإنه أظهر فاعله بخلاف الأفعال السابقة ليؤكد على أن خروجهم من النار لا يريد له مريد سوى أنفسهم ، وأن إرادتهم الخروج من النار إرادة مشلولة لأنها لا تلقى استجابة من أحد ، وليس لديهم المقدرة علي إنفاذ ما أرادوا » . ^٢

أما قوله « من غم » فهو إما بدل اشتمال من الضمير في قوله « منها » والتكثير للتكثير والتفخيم والمراد من غم عظيم من غمومها ، وإما مفعول له للخروج أي كلما أرادوا الخروج منها لأجل غم عظيم يلحقهم من عذابها . ^٣

ولعل السر البلاغي من وراء التعبير بقوله « من غم » هو « التصريح بقبح ما يلقونه من سوء المصير في النار ، لأن إضمار النار في « منها » لا يشعر بذلك ففي الضمير نوع هوادة بخلاف الغم فهو قابض بلفظه قابض بمعناه » . ^٤

وتأمل جمال حرف الظرفية وسره البلاغي في قوله « أعييدوا فيها » ففي هنا بمعنى إلى أي أعييدوا إليها ، وقد كشف بعض الباحثين سر إثارة على حرف الإنتهاء في هذا السياق مستضيئاً بإشارة للألوسي أماط من خلالها النقاب عن بلاغة القرآن ونظمه المعجز بقوله « أما قوله تعالى « كلما أرادوا أن يخرجوا منها

١ - انظر حاشية الشهاب ، ٢٩٠/٦ ، روح المعاني ، ١٣٥/١٧ .

٢ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٩٧ .

٣ - انظر البحر المحيط ، ٣٦٠/٦ ، تفسير أبي السعود ، ١٩/٤ ، حاشية الشهاب ، ٢٩٠/٦ ، روح المعاني ، ١٣٥/١٧ .

٤ - راجع مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٩٧ بتصرف .

من غم أعيديا فيها « فذلك ما لا سبيل إلى حرف الانتهاء فيه ، لأنهم لم يخرجوا من النار ولم يفارقوها حتى يعادوا إليها ، وإنما هم فيها يحاولون الخروج ويسعون له ، ويتركون استدراجاً لهم حتى إذا شارفوه أعيديا في نفس المكان من وسط جهنم أو مقرها ، وفي ذلك من الدلالة على شدة العذاب وتمكنه منهم وإحاطته بهم ، يقول الألويسي « أعيديا فيها » أي في قعرها ، بأن ردوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أن يخرجوا منها إذ لا خروج لهم كما هو المشهود من حالهم واستدل بقوله تعالى « وما هم بخارجين » وفي اختيار « فيها » دون « إليها » إشعار بذلك . <١>

وانظر إلى جمال التصوير القرآني في هذه السخرية اللاذعة والإهانة الشديدة « وذوقوا عذاب الحريق » فالعذاب لا يذاق كما يذاق الطعام باللسان ، وإنما في التعبير بالذوق إستعارة للاحساس والشعور بالعذاب والجامع بين المستعار له والمستعار منه شدة الاحساس في كل ، ولعل سر إثارة القرآن للتعبير بالذوق عن إدراك العذاب والشعور به للإشارة إلى أن إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث أنه لا يدخله نقصان بدوام الملابس أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث القوة الذائقة وهي اللسان أشد الحواس تأثراً وأسرعها إدراكاً به . <٢>

ولا ننسى أن نشير إلى أن الأمر في قوله « ذوقوا » للإهانة .

ونلاحظ أن قوله « ذوقوا » جاء معطوفاً على قول مضمرة على قوله « أعيديا » تقديره : يقال لهم ذوقوا لأن جملة « أعيديا » خبرية ، وهو إنشاء ، وقضية عطف الإنشاء على الخبر دار حولها نزاع كبير بين النحاة والبلاغيين ، والأظهر المنع وعليه جرى البلاغيون وكثير من المفسرين ، وقد أشار إلى هذا

١ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ١٢٧ ، راجع روح المعاني ، ١٣٥/١٧ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٧٢٠/١ ، مناهج الدعوة ، ص ٢٩٧ ، وما بعدها .

الخلاف السبكي بقوله « أعلم أن الخبر والإنشاء المتمحضين لا يعطف أحدهما على الآخر ، فيجب الفصل بلاغة وأما لغة فاختلفوا فيه ... ، وحاصله أن أهل هذا الفن متفقون على منعه وظاهر كلام النحاة جوازه » . <١>

وقال تعالى : ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه

الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

بين الله سبحانه في هذه الآية حال المشرك بالله حين يصر على كفره ويعرض عن سماع دعوة الحق فيهوي من أفق الفطرة القويمة إلى منحط الضياع والهلاك فيتمزق شر ممزق حيث تتخطفه الطير أو تهوي به الريح بعيداً في مكان سحيق ليس له قرار .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

يرسم النص القرآني للمشرك بالله صورة فريدة حين يعرض عن دعوة التوحيد فتزل قدماه ويهوي إلى درك الشرك والضلال فإذا هو ضائع ذاهب بديداً تتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق .

وفي نظم الآية تتجلى دقة البيان القرآن من خلال هذه الصورة التي نسجت خيوطها هذه الكلمات دون أن يكون لهذه الصورة وجود في عالم الواقع ، فعناصرها - كما ترى - هي الرجل والسماء والطير والريح كلها كائنة في الوجود ، لكنها في هيأتها هذه ليست كائنة في الوجود . <٣>

١ - انظر روح المعاني ، ١٣٥/١٧ ، راجع أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، بحث مخطوط للباحث بكلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، ص ٢٠١ .

٢ - الحج : ٣١ .

٣ - راجع التصوير البياني ، ص ٩١ ، وما بعدها ، في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٤٢١ .

وفي توجيه هذا التشبيه القرآني رأيان : أحدهما أن يكون مركباً وسيأتي بيانه في السطور القادمة بإذن الله .

والثاني : أن يكون مفرقاً حيث شبه الإيمان في علوه بالسماء ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء ، وشبه الأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة ، والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة بالريح تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة . <١>

فالتشبيه هنا محتمل للإفراد والتركيب لكنني أرى أن التركيب في مثل هذه الصورة أولى من الأفراد لأنه لا يخلو أحياناً من التكلف في التخريج كما ذكر الدكتور عبدالعظيم المطعني . <٢>

ففي الآية تشبيهان تمثليان أولهما : شبه المرتد بعد الإيمان المتذبذب المتماذي على الشك والتصميم على ضلاله بمن سقط من السماء فاخطفته الطير بجامع الهلاك في كل ، والثاني شبه المصمم على كفره الثابت على معتقداته الباطلة بمن سقط من السماء فهوت به الريح في مكان سحيق بجامع الهلاك في كل <٣> ، والتشبيه في كليهما تمثيلي لتركيب الوجه .

ويكمن الترهيب في هذه الآية في هذه الصورة الصادقة وهذه النهاية المؤلة التي رسمها القرآن لحال من يشرك بالله فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى منحط الضياع والضلال ، حيث نرى إنساناً يهوي من السماء ساقطاً على

١ - انظر الكشاف والإنتصاف ، ١٢/٢ ، وما بعدها ، البحر المحيط ، ٣٦٦/٦ ، تفسير أبي السعود ، ٢٤/٤ ، حاشية الشهاب ، ٢٩٥/٦ ، حاشية زاده ، ٣٨٣/٣ ، روح المعاني ، ٤٩/١٧ ، وما بعدها ، التحرير والتنوير ، ٢٥٤/١٧ ، وما بعدها .

٢ - راجع خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للدكتور : عبدالعظيم المطعني ، ص ٢٢٩ .

٣ - انظر الإنتصاف ، ١٣/٣ وحاشية الشهاب ، ٢٩٥/٦ ، أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٤٦ ، وما بعدها ، إعراب القرآن وبيانه ، ٤٢٨/١٧ ، وما بعدها .

الأرض ، وهنا يفترق الطريق شعبتين كل واحدة منهما تؤدي إلى خطر ماحق :
إما أن تتخطفه الطير فيتمزق ويصير غذاءً لها ، وإما أن تهوي به الريح في مكان
سحيق . <١>

ولا يمكن أن نغفل سياق التشبيه لأنه يكشف العلاقات والروابط الخفية التي
تربط التشبيه بما قبله ، ولأن له أثراً كبيراً في بناء التشبيه وصياغته .

فقد ورد التشبيه في سياق يبين فيه الحق سبحانه تفاوت من يعظم حرماته
ويجتنب نواهيه وبين من يشرك به قال تعالى « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير
له عند ربه وأحلّت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان
واجتنبوا قول الزور » . <٢>

بل إن التشبيه جاء معطوفاً على قوله « حنفاء لله غير مشركين به » <٣>
حيث جاءت هذه الجملة مقدمة وتوطئة للتشبيه ، وهي تكشف بوضوح هذه الروابط
القوية ، وتبرز شدة تفاوت هذين الصنفين .

ولنعد إلى النص نستجلي دقائقه وأسواره البلاغية ، منها التعبير بقوله
« ومن يشرك بالله » جيء به لتأكيد ما قبله « من الاجتناب عن الإشراك ، وإظهار
الاسم الجليل لإظهار كمال القبح » . <٤>

ومما يلفت النظر في صياغة التشبيه سرعة الحركة المناسبة للمقام ، والتي
تتضح من الجملة الشرطية وبخاصة في جواب الشرط « خرّ » أي سقط سقوياً
يُسمع منه خريز كما ذكر الراغب <٥> ، ولذا أثر القرآن التعبير بالفعل « خرّ » دون

١ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٤٢١ ، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ص
٢٢٨ .

٢ - الحج : ٢٠ .

٣ - الحج : ٣١ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٢٤/٤ .

٥ - المفردات ، ص ١٤٤ .

« سقط » لأنه يدل بجرسه وإيقاعه السريع على هذه السرعة التي تتناسب مع المقام ، فهذا اللفظ يسهم بمعناه وجرسه في إبراز المعنى فالساقط من مكان مرتفع يشق بجسمه الهواء فتسمع لهوية صوتاً يشبه خرير الماء . <١>

كما أن فاء التعقيب في قوله « فتخطفه دالة على السرعة فما يكاد يسقط من السماء حتى تتخطفه الطير ، ومادة الفعل نفسه دالة على السرعة لأن الخطف « الأخذ في سرعة واستلاب » . <٢>

وتأمل جمال التعبير القرآني في قوله « فتخطفه الطير » وما يدل عليه من التحقير والازدراء لهذا المشرك فهو تافه ضئيل ، تقوى الطيور الضعيفة على حمله وتمزيقه أشلاءً تتوزعه في حواصلها فيصير غذاءً لها .

وفي إثارة التعبير بالمضارع « فتخطفه » مع أنه معطوف على الماضي « خرّ » استحضار لتلك الحالة العجيبة التي تصوره مزعاً في حواصل الطير تعجباً للمخاطب . <٣>

أما قوله « أو تهوي به الريح في مكان سحيق » فهو تنوع في نتيجته التشبيهية أو فيه للتنوع ، وفي هذا النظم القرآني تجسيد للضياع والهلاك على نحو ما ينبىء عنه قوله « تهوي به الريح » حيث آخر الفاعل ولم يقل تهوي الريح به ، ولم يقل تطير به الريح لأن في الهوي دلالة على السقوط لا نجدها في الطيران .

وبناء التشبيه يريك تمكن الريح منه فهو يركبها فتُهوي به كالناقة تهوي براكبها <٤> ، فالذلول صارت مذلة ومهلكة . <٥>

١ - انظر خصائص التعبير القرآني ، ٢٢٩/٢ ، أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٤٦ .

٢ - انظر لسان العرب ، ١٢٠٠/٢ ، مادة خطف .

٣ - انظر روح المعاني ، ١٤٩/١٧ ، إعراب القرآن وبيانه ، ٤٢٩/١٧ ، وما بعدها .

٤ - انظر أساس البلاغة ، ص ٤٨٩ .

٥ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٤٧ .

وحرف الظرفية يومض بمعان جلييلة في قوله « فى مكان سحيق » أي أن
الريح تهوي به في مكان يحيط به السحق - أي الهلاك - من كل جانب ، كما أن
تنكير « مكان » يفيد التهويل لأنه مكان غير معروف ، فالتنكير يوحي بالغرابة ،
وهنا تكمن بواعث الخوف والرهبة . <١>

ومن بلاغة القرآن إثارة التعبير بكلمة « سحيق » دون قولنا « بعيد » لأنها
تصور بلفظها وجرسها معاني الهلاك والفناء ، أما كلمة « بعيد » فهي لا تدل
إلا على بعد المكان ، ومعنى البعد في الآية مأخوذ من قوله « تهوي به الريح »
فأغنى عنه ، لأن الهوي معناه السقوط من مكان بعيد ، ولهذا أثر القرآن التعبير
بكلمة « سحيق » لأنها دالة على البعد والهلاك معاً .

ففي التعبير بقوله « سحيق » مجاز عقلي علاقته المكانية ، لأن المكان
لا يهلك وإنما يهلك من فيه كقولهم « طريق سائر » .

١ - راجع خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ٢٢٨/٢ .

الفصل الأول

المبحث الثالث

الجمع بين الترغيب في الإيمان

والترهيب من الكفر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بين الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر

جمع القرآن الكريم بين الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر في كثير من المواضع ، فإذا بدأ مرغباً انتهى مرهباً وإذا بدأ مرهباً انتهى مرغباً ، وقد قابل بين الإيمان والكفر ليظهر مزايا الإيمان ومحاسنه ومعائب الكفر ومساوئه العقيمة ، وهذا التنظير المباشر بين هاتين الطائفتين إنما هو ترق في أسلوب الدعوة ترغيباً وترهيباً لأن الأمور المتضادة تتجلى محاسن الحسن فيها إذا ما قورنت في آن واحد بمساوئ السئ منها فالضد كما يقولون يظهر حسنه الضد ، وهذا ما نهجه أسلوب الدعوة القرآنية في الترغيب في الإيمان والترهيب من الكفر في معارض الجمع بينهما فخذ إليك مثلاً هذا المشهد الذي يصور في بلاغة معجزة حال الفريقين يوم القيامة : هما فريقان : أحدهما من سماته إبيضاض الوجوه ، والآخر إسوداد الوجوه ، كنى بالأول عن المؤمنين الصاد في الإيمان الكامل الصلاح ، وكنى بالثاني عن الكفار ، وحين فرّق بينهما من حيث لون الوجوه فرّق بينهما كذلك في المصير والمآل ، فالملائكة تتلقى سود الوجوه بالإهانة قولاً وعملاً : أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، أما بيض الوجوه فهم أهل لكل تكريم من قول ومآل « ففي رحمة الله هم فيها خالدون » هكذا يقود الإيمان أهله إلى دار الرضوان ، ويسحب الكفر أهله إلى دركات الجحيم « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

هذا هو موضوع حديثنا في هذا المبحث الذي ندلي وجوهنا شطره الآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

بعد أن قررت هذه الآية الكريمة في مطلعها مبدأً تجلى فيه تكريم الله للإنسان واحترام إرادته فيما يتصل بالاعتقاد « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » فله أن يختار طريق الضلال أو طريق الهدى دون إكراه أو قسر ، انتقلت بعد ذلك إلى إبراز حقيقة الكفر وحقيقة الإيمان ، فالكفر ينبعي أن يوجه إلى ما يستحق الكفر وهو الطاغوت ، والإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو « الله » فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله وحده فقد نجا ، وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها . <٢>

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يؤثر القرآن الكريم التعبير بالاستعارة « لأنها أصدق أداة تجعل القارئ يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه ، وتصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت للأذن وتجعل الأمر المعنوي ملموساً محسناً » <٣> وفي هذه الآية صورة حسية لحقيقة معنوية حيث استعيرت كلمة « العروة الوثقى » للإيمان بالله ، فالمسك بها لا يضل طريق الهداية والنجاة .

١ - البقرة : ٢٦ .

٢ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٢٨٦ .

٣ - من بلاغة القرآن ، ص ٢١٧ .

ومن الأسرار البلاغية في هذا النظم القرآني تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله للاهتمام بوجوب تقديم التخلية على التحلية أو مراعاة الترتيب الواقعي أو للاتصال بلفظ « الغي » . <١>

وجملة « ويؤمن بالله » معطوفة على جملة الشرط « فمن يكفر » للإشارة إلى أن « نبذ عبادة الأصنام لا مزية فيه إن لم يكن عوضها بعبادة الله تعالى » . <٢>

وفي التعبير بالعروة إستعارة تصريحية أصلية فقد شبه الإيمان بالعروة الوثقى بجامع الهداية والنجاة في كل ثم حذف المشبه وتنوسي التشبية وجعل المشبه فرداً من أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وهي من استعارة المحسوس للمعقول لإبراز المعقول في صورة المحسوس اعتناءً بشأنه وتجسيماً لعناه حتى كأنه يلمس ويرى .

« فمن أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه ، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها وصفها الله تعالى بالعروة الوثقى » . <٣>

ومعنى استمسك : تمسك ، فالسين والتاء للطلب ، وعبر عنه القرآن ببناء استفعل للإشعار بأن تمسكه ذلك مسبوق بالقصد والإرادة المنزلة منزلة الطلب ، أي طلب التمسك بكتاب الله وبالغ فيه حتى كأنه وهو متلبس به يطلب من نفسه الزيادة والثبات عليه . <٤>

١ - انظر روح المعاني ، ١٤/٣ ؛ راجع تفسير أبي السعود ، ٢٨٧/١ .

٢ - التحرير والتنوير ، ٢٩/٣ .

٣ - حاشية زاده ، ٥٧٠/١ .

٤ - انظر حاشية زاده ، ٥٧٠/١ ؛ وتفسير أبي السعود ، ٢٨٧/١ ؛ روح المعاني ، ١٣/٣ .

والتعبير بالاستمساك هنا حسي ليناسب العروة الوثقى ، فهو ترشيح للاستعارة ، دال على أن كل من آمن بالله متمسك بعروته الوثيقة التي لا تنفصم ولا تنقطع ، موصول قلبه بربه .

وقوله : لا انفصام لها « ترشيح بليغ لم تقف قيمته البلاغية على تناسي التشبيه بل أضيف على الصورة المشبه بها قوة ومتانة إذ أفاد أن العروة في غاية الإحكام لا تنفصم أبداً .

وانفصام الشيء : انكساره من غير تفرق لأجزائه ، وانقصام الشيء : انكساره مع البينونة والتفرق ، والتعبير بالانفصام أليق بهذا المقام لأنه إذا لم يكن لها انفصام فلأن لا يكون لها انقطاع أولى . <١>

وقد فصلت جملة « لا انفصام لها » عن جملة استمسك بالعروة الوثقى « لما بين الجملتين من كمال الاتصال لأن الثانية مؤكدة لمفهوم الأولى فهي منزلة منزلة التوكيد المعنوي من الجملة الأولى .

ويجوز أن يكون في التعبير بالاستمساك بالعروة الوثقى إستعارة تمثيلية وذلك بتشبيه هيئة المؤمن المستعصم بالإيمان عقيدة وسلوكاً بهيئة المتدلي من شاهق وهو ممسك بأقوى سبب للنجاة من الهلاك ، والجامع هو أن كلاهما آخذ بالأسباب الصحيحة الموصلة لحسن العقبى .

وهي هيئة معقولة شبهت بهيئة محسوسة لإبراز المعقول في صورة المحسوس اعتناءً بشأئه . فهي إستعارة تمثيلية وقد نص على ذلك الزمخشري بقوله « وهذا تمثيل للمعلوم والنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به » <٢> وتختتم الآية الكريمة

١ - انظر حاشية زاده ، ٥٧٠/١٥ .

٢ - الكشاف ، ٢٨٧/١ .

بفاصلة مناسبة لسياقها ملائمة لمقامها « و الله سميع عليم » أي سميع بالأقوال عليم بالعزائم والاعتقاد ، وهذه الجملة تذييل حامل على الإيمان رادع للكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد .

وفي نظم الآية - على قصرها - جمع الحق سبحانه وتعالى بين الترهيب من الكفر والترغيب في الإيمان ، ونرى أن البيان القرآني قد اعتمد على حاسة البصر من خلال تصوير المؤمن بالله الثابت على دينه بصورة من تمسك بعروة حبل متين لا ينقطع ولا ينفصم .

قال تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات الكريمات إخبار ببياض وجوه وسواد وجوه يوم القيامة ، فأهل الباطل والضلال وجوههم اسودت من الكآبة والحزن واغربت من الغم وليست مع هذا متروكة إلى ما هي فيه بل يقال لهم - بسبب كفرهم وإعراضهم عن الإيمان بالله - في سخرية لازعة وتهكم ساخر « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » أما أهل الحق فوجوههم مبيضة تفيض بشراً وبشاشة ونوراً في رحمة الله وجنته هم فيها خالدون .

خصائص أنظمه وأسواره البلاغية :

يصور البيان القرآني في هذه الآيات مشهداً من مشاهد الآخرة حافلاً بالإهانة والتكريم ، ولا ريب أن في عرض القرآن لأحوال المنعمين وأحوال المعذبين في الآخرة تسليطاً للضوء أكثر على الإهانة والتكريم حين يتقابل الضدان .

وعندما ننعم النظر في هذا النص نجده - على قصره - مفعماً بروائع البلاغة القرآنية ، منها أن في التعبير بقوله : « يوم تبيض وجوه ... » كناية عن موصوف وهو « يوم القيامة » ، وفي الكناية عن هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه « تهويل لأمره وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة والوجوه المسودة ترغيباً لفريق وترهيباً لفريق آخر » . <١>

ويوم منصوب إما على الظرفية للإشارة إلى ثبوت العذاب لهم ، وإما على أنه مفعول به لفعل مضمّر - خوطب به المؤمنون تحذيراً لهم من عاقبة التفرق بعد مجيء البيئات وترغيباً في الاتفاق على التمسك بالدين - تقديره : اذكروا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . <٢>

وفي قوله « تبيض وجوه وتسود وجوه » كنيتان عن صفة <٣> ، فبياض الوجه كناية عن البهجة والسرور ، وسواد الوجه كناية عن كآبة المنظر وشدة الغم والحزن ، ولما كان المكنى عنه من الأمور المعنوية المعقولة عبر عنها بما يحس به ويدركه من رآه ، وإذا كان الوجه أشرف أجزاء الجسم فقد جعله طريقاً لأحسن شيءٍ ودليلاً على الجنة ومظهراً للأسوأ شيءٍ وهو النار ، ولا مانع من الحقيقة وهو البياض الحسي الذي يرسم به أهل الحق والسواد الحسي لأهل الباطل وهم أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد قبل البعثة وكفروا عند مبعثه » <٤> ولا يخفى ما في التعبير بقوله « تبيض ، وتسود » من طباق لطيف زاد اللفظ جزالة والمعنى وضوحاً .

١ - التحرير والتنوير ، ٤٤/٤ .

٢ - انظر الكشاف ، ٤٥٢/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٢٠/١ وما بعدها .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٣١/١ ؛ تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، ٥٤/٣ ؛ حاشية زاده ، ٦٥٨/١ .

٤ - المجاز اللغوي ، دراسة بلاغية تحليلية ، للدكتور عبده أحمد هليل عليان ، ص ٦٠ وما بعدها .

ومن الفنون البلاغية في هذا النظم القرآني التفصيل بعد الإجمال فقد أجمال أولاً فقال : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » ثم فصل ثانياً بقوله : « فأما الذين اسودت وجوههم ... ، وأما الذين ابيضت وجوههم ، ولهذا الفن سره البلاغي وهو تشويق النفس لمعرفة ما يذكر بعد الإجمال فإذا ورد عليها تلقته بالقبول وتمكن منها فضل تمكن .

وتأمل بلاغة القرآن في هذا السياق فقد « قدم عند وصف اليوم ذكر البياض الذي هو شعار أهل النعيم تشریفاً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته ، ولأن رحمة الله سبقت غضبه ، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم عقب وعيد غيرهم حسرةً عليهم إذ يعلم السامع أن لهم عذاباً في يوم فيه نعيم عظيم ، ثم قدم في ذكر التفصيل سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساعتهم » . <١>

وقد اشتمل البيان القرآني على اللف والنشر غير المرتب في قوله : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » . <٢>

وفي الآية فن التديج* وهو فن دقيق المسلك حلو المأخذ رشيق الدلالة « فالبياض والسواد لونان متضادان والتضاد يعني التطابق ولكنه كنى بهما عن فريقين من الناس ، فمن كان من أهل الحق وسم ببياض اللون ونصاعته ومن كان من أهل الباطل وسم بسواد الليل وحلخته ، ولا يخفى ما في ذلك من التهويل ، وتباين المصير المحتوم لكل من الفريقين . <٣>

١ - التحرير والتنوير ، ٤/٤٤ وما بعدها .

٢ - انظر حاشية الشهاب ، ٣/٥٥ ؛ حاشية زاده ، ١/٦٥٩ .

* تعريفه : أن يذكر الناظم أو الناثر ألواناً يقصد بها الكناية أو التورية بذكرها عن أشياء من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك من الأغراض . انظر تحرير التخبير لابن أبي الإصبع ، تحقيق الدكتور حفني شرف ، ص ٥٣٢ ؛ خزانة الأدب للحموي ، تحقيق عصام شعيتو ، ٢/٤٥٣ ؛ الإيضاح ، ٢/٤٨٣ ؛ معجم المصطلحات البلاغية ، ٢/١١٧ وما بعدها .

٢ - إعراب القرآن وبيانه ، ٤/١٦ .

وتعريف المسند إليه بالوصول في قوله : « فأما الذين اسودت وجوههم »
للتسجيل عليهم بالصلة وجعلها علة في المصير ، مع ما فيه من إيماء إلى ذمهم
وتوبيخهم .

أما الاستفهام بالهمزة في قوله : « أكفرتم بعد إيمانكم » فيرى الزمخشري
أنه « للتوبيخ والتعجيب من حالتهم » ^{<١>} وخالف الرازي الزمخشري قائلاً
« هذا استفهام بمعنى الإنكار وهو مؤكد لما ذكر قبل هذه الآية » ^{<٢>} والحقيقة أنه
لا تدافع بين هذين الرأيين فكثيراً ما يصاحب التوبيخ الإنكار ، بل إن الاستفهام
في هذا السياق ينبض بمعان عديدة كالتحسير والتقريع الشديد . ^{<٣>}

وفي التعبير بقوله : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم »
إيجاز بالحذف تقديره : فأما الذين اسودت وجوههم فهم الكافرون ويقال لهم
أكفرتم بعد إيمانكم . وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب وسره زيادة النكايه بهم
ومواجهتهم بالتوبيخ .

وللمفسرين أقوال كثيرة في الكفر بعد الإيمان : قيل هم أهل الكتاب
وكفرهم بعد إيمانهم أي كفرهم برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، وقيل هم جميع الكفار
لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم قال
تعالى : « ألسنت بربكم قالوا بلى » ^{<٤>} وقيل هم المنافقون لكفرهم بقلوبهم وإيمانهم
بأسنتهم ^{<٥>} . وللتقديم والتأخير حكمة يقتضيها البيان القرآني فقد قدم في

١ - الكشاف ، ٤٥٢/١ ؛ انظر تفسير أبي السعود ، ٥٢١/١ ؛ البحر المحيط ، ٢٥/٣ ؛ روح المعاني ،
٢٥/٤ .

٢ - التفسير الكبير ، ١٨٨/٨ ؛ راجع التحرير والتنوير ، ٤٥/٤ .

٣ - راجع التفسير البلاغي للإستفهام ، ص ١٤٢ وما بعدها .

٤ - الأعراف : ١٧٢ .

٥ - انظر روح المعاني ، ٢٤/٤ وما بعدها .

التفصيل أحوال الذين اسودت وجوههم لمجاورته قوله : « تسود وجوه » وليكون مطلع الكلام ومنتهاه شيئاً يسر الطبع ويشرح الصدر . <١>

وانظر إلى جمال التصوير القرآني في قوله : « ذوقوا » حيث جسد العذاب شيئاً محسوساً يذاق باللسان زيادة في إهانتهم والسخرية بهم ، ففي التعبير بالذوق إستعارة مكنية وذلك بأن شبه العذاب بالطعام الشديد المرارة ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وخواصه وهو الذوق على سبيل الاستعارة المكنية ، وسر حسن هذه الاستعارة وبلاغتها ما توحى به من تهكم لاذع حيث يقدم لهم ما لا يذاق طبعاً وجبلة في صورة شيء يذاق طبعاً وجبلة وهو الطعام . ويجوز أن يكون استعارة تبعية كما أشرت في موضع سابق .

والأمر في قوله : « ذوقوا » للإهانة والسخرية ، والخطاب كما هو واضح موجه للكفار يوم القيامة ، وبهذا تكون السخرية لوناً من ألوان العذاب النفسي بجانب العذاب البدني الذي أعده الله للكفار في النار .

والفاء في قوله : « فذوقوا » للإيذان بأن الأمر بالذوق مترتب على كفرهم المذكور أي ذوقوا العذاب بسبب كفركم . <٢>

ولا يخفى ما في قوله : « أكفرتم » وقوله : « تكفرون » من جناس الاشتقاق ، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار كفرهم ومضيه في الدنيا . <٣>

وفي التعبير بقوله : « ففي رحمة الله » مجاز مرسل علاقته الحالية ، من إطلاق الحال « الرحمة » وإرادة المحل « الجنة » لأن الرحمة لا يحل فيها الإنسان

١ - انظر حاشية زادة ، ٦٥٩/١ ، روح المعاني ، ٢٥/٤ ؛ راجع حاشية الشهاب ، ٥٥/٣ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٢١/١ ، روح المعاني ، ٢٦/٤ .

٣ - انظر المصدرين السابقين ، ٥٢١/١ ، ٢٦/٤ .

وإنما يحل في مكانها وهو الجنة <١> ، وأثر النظم القرآني التعبير بالرحمة ليشير إلى أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله فإنه لا ينال ما ينال إلا برحمته تعالى . <٢>

« والمجاز أبلغ في الوفاء بالمعنى لما ذكرت من أن دخول الجنة برحمة الله ، ولأن الرحمة مضافة إلى الله تشمل الجنة وما فيها من منح وهبات ، ولأن رحمة الله ونعمه حالة في جنته ، والقرينة « هم فيها خالدون » فإن الخلود بمعنى الإقامة الدائمة إنما يكون في مكان ، ويصح أن تكون القرينة الاستحالة العقلية لامتناع الحلول والإقامة في الأمور المعنوية . <٣>

ومن روائع البلاغة القرآنية ما ينبض به حرف الظرفية من معاني التمكن والاستقرار والشمول في قوله « ففي رحمة الله » فهو يشير إلى شمول الرحمة للمذكورين شمول الظرف بمظروفه . <٤>

أما جملة « هم فيها خالدون » فهي إما حالية وإما أن تكون استئنافية وقعت جواباً عما نشأ من السياق كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقيل : هم فيها خالدون . <٥> ولهذا فصلت عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

واظهار ضميرهم « هم » وتقديمه على جملة الخبر يفيد القصر أي هم الخالدون فيها لا غيرهم ، وتقديم الجار والمجرور « فيها » لأنه عائد على الرحمة فحسن إيلاؤه إياها . وللمحافظة على رؤوس الآي .

١ - انظر نظرات في البيان ، للدكتور محمد عبدالرحمن الكردي ، ص ٢٢٤ : المجاز اللغوي ، ص ٦١ : إعراب القرآن وبيانه ، ١٧/٤ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٣١/١ : روح المعاني ، ٢٦/٤ .

٣ - المجاز اللغوي ، للدكتور عبده هليل عليان ، ص ٦١ .

٤ - راجع روح المعاني ، ٢٦/٤ .

٥ - انظر الكشاف ، ٤٥٤/١ : تفسير أبي السعود ، ٥٣١/١ : روح المعاني ، ٢٦/٤ .

ونرى القرآن الكريم في هذا النص القرآني قد استثمر الألفاظ استمثاراً جيداً ووظفها لتحقيق أغراض نبيلة ، فخاطب عن طريق اللون حاسة البصر ليرغب في الإيمان وليرهب من الكفر من خلال وصف وجوه المنعمين بالبياض ، والمعذبين بالسواد على طريقته الفريدة في التصوير باللون .

قال تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات الكريمات تفصيل لمآل كل من الأشقياء والسعداء ، حيث يساق الكفار إلى نار جهنم جماعات متفرقة حتى إذا وصلوا إليها « فتحت أبوابها » ويقول لهم خزنتها توبيخاً وتقريعاً « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا » فيجيبون في صراحة واعتراف « قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » أما الأبرار المتقون فيساقون إلى الجنة جماعات جماعات ويذهب بهم راكبين « حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها » استقبلتهم الملائكة بالترحيب والتكريم « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

للترغيب والترهيب في القرآن أساليب عديدة اتخذها القرآن لتحقيق أهدافه النبيلة ومقاصده الشريفة ، من بينها الحوار لما له من خصائص فنية تضيف على المشهد المعروض الحركة والحيوية فتزيده وضوحاً وتأثيراً .

وفي هذا المشهد الحافل بالحركة اتخذ القرآن من الحوار أداة لرسم صورتين متباينتين ، صورة الخزي والذل للكفار وهم يساقون إلى جهنم زمراً حتى إذا جاعوها فتحت أبوابها ، واستقبلتهم خزنتها بالإهانة والتحقير يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها قائلين لهم « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا » فيجيبون وهم مقررون مستسلمون « قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » فيقال لهم في سخرية لاذعة وإهانة شديدة « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » وصورة التكريم للمتقين وهم يساقون إلى الجنة فوجاً بعد فوج ، ويجدون الترحيب والتكريم من خزنتها « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » . فهو الاستقبال الطيب والثناء الطيب ، وبيان للسبب « طبتم » كنتم طيبين وجئتم طيبين فما يكون فيها إلا الطيب ، وما يدخلها إلا الطيبون ، وهو الخلود في ذلك النعيم . <١>

وفي هذا الحوار يتجلى بوضوح الترغيب والترهيب بما له من قدرة على التصوير والتأثير تجعل المستمع يحس بهذا المشهد كأنه معروض أمامه فيرى الفريقين ويتابع حركتهم ويسمع حوارهم . وأول ما يطالعنا في هذا النظم الكريم افتتاحه بقوله : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » حيث جاءت هذه الجملة معطوفة على الجملة السابقة لأنها « تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها ، أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة » . <٢>

ومن روائع التعبير القرآني بناء الفعل « سيق » للمجهول حيث حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه لكونه معلوماً ولتركيز على الحدث نفسه الذي يقتضي إبراز الفعل والمفعول بغض النظر عن الفاعل ، مع ما يدل من زيادة تحقير لهم لأن « السوق يقتضي الحث على السير بعنف » . <٣>

١ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٦٢-٦٣ وما بعدها .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٦٢٥/٤ .

٣ - انظر البحر المحيط ، ٤٤٣/٧ .

أما التعبير عن الكافرين بالصلة « الذين كفروا » فإما لكون سبق الحديث عنهم حيث تحدثت الآيات السابقة من ضمن ما تحدثت عن مصير المذكورين <١> ، وإما لتقرير الغرض المسوق له الكلام وهو قلة المبالاة بهم وإظهار ذمهم وتحقيرهم .

ولذا المتعلق « إلى النار » داع أوجبه الفعل « سبق » لأن الموقف يحتاج إلى تحديد الاتجاه ، ففي ذكره بيان لنهايتهم الأليمة حيث النار مأواهم .

وتأمل جمال القيد في قوله « زمراً » فقد جاء وصفاً لحال المسوقين ، وهو جمع زمرة ومعناه : الجماعة القليلة وهو مشتق من الزمر وهو الصوت لأن الجماعة لا تخلو عنه ، وكونهم زمراً أي أفواجاً متفرقة بعضها في إثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة . <٢>

وفي قوله تعالى : « حتى إذا جاعها فتحت أبوابها » يبين لنا القرآن وصولهم إلى منتهاهم ويحكي لنا ما يحدث لهم لأن كلمة « حتى » تشير إلى نهاية رحلتهم الشاقة ، وهي التي تحكى بعدها الجمل ، والجملة المحكية بعدها الجملة الشرطية « إذا جاعها ... » وجواب الشرط جملة « فتحت أبوابها » .

ونلاحظ في بناء تركيب هذه الجملة أن الفعل « فتحت » قد جاء على صيغة المبني للمجهول لأن المعول عليه فتح الأبواب وليس فاعله ، ففي حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول تركيز على الحدث نفسه .

كما أن إضافة الأبواب إلى الضمير في قوله « أبوابها » لسبق ذكر النار ، لأن ذكر الشيء إذا صرح باسمه ثم أعيد الحديث كان الأصل فيه الإضمار ما لم يكن في الموقف ما يستدعي تكراره . <٣>

١ - انظر الزمر الآيات ، ٦٠ - ٦١ : راجع مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٣٣٩ .

٢ - انظر المفردات ، ص ٢١٥ : الكشاف ، ٤١٠/٣ : البحر المحيط ، ٤٤٣/٧ : تفسير أبي السعود ، ٦٢٥/٤ : روح المعاني ، ٣١/٢٤ وما بعدها .

٣ - انظر مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٨٢ .

ويمضي البيان القرآني بعد ذلك يبين لنا لقاء الخزنة بالمسوقين وما يدور بينهم من حوار في قوله : « وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا » فالاستفهام في قوله « ألم يأتكم » للتوبيخ والتقريع ، وليس مطلوباً منهم الإجابة عليه ، لأنها معروفة للمستفهم وغيره ، وإنما ساقه ليكون جوابهم وهو الحقيقة التي وردت على ألسنتهم في قوله تعالى : « قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » حجة عليهم بلسانهم وتحسيراً لهم ، وتكثير كلمة « رسل » للتعظيم والدلالة على كثرتهم ، ومن في قوله « منكم » بيانية أي من جنسكم تفهمون ما ينبئكم به ويسهل عليكم مراجعته ^(١) ، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين لقطع أطماعهم الفارغة حتى لا تكون لهم حجة لأن سنة الله أن يرسل للناس رسلاً منهم ليفهموهم ويستطيعوا مخاطبتهم ومجادلتهم بلسانهم فلا يحتاجون بعدم فهمهم للرسول ، ولسبب آخر : ليشعر القوم أنه منهم وليس غريباً عنهم فيشتد نفورهم منه قال تعالى « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . ^(٢)

وجملة « يتلون عليكم آيات ربكم » إما صفة للرسول وإما حالية ، ومن الأسرار البلاغية في هذا النظم القرآني تقديم المتعلق « عليكم » على المفعول به « آيات ربكم » لقطع الحجة عليهم ، ولإبراز أنهم خصوا بالرسول وبآيات من الله ، وأضيف المفعول به إلى « ربكم » للإشارة إلى أنهم في موقف الحساب ، والحساب لا يقوم به إلا رب الخلق .

وآثر البيان التعبير بلفظ رب دون « الله » لملايمته للسياق لأن المقام مقام تعديد النعم فهو أكثر مناسبة للسياق ، وجيء به مضافاً إلى ضمير المخاطبين « ربكم » لتقريرهم بهذه الحقيقة التي تغافلوا عنها وأنكروها وتجاهلوها ، فما هي

١ - انظر روح المعاني ، ٢٤/٢٢ .

٢ - ابراهيم : ٤ : انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٤٠ .

مائلة أمامهم ، فالنص القرآني يصور موقف الحساب حيث لا مفر ولا أكاذيب ، ولم يقل المتكلمون وهم الملائكة « ربنا » لأن في ذلك زيادة في الخزي والتهم بالمخاطبين لإعراضهم عن آيات ربهم » . <١>

والمراد بالآيات هنا الأقوال الموحى بها إلى الرسل مثل صحف إبراهيم وموسى والقرآن ، وحين تطلق الآيات المنزلة من الله تعالى فلا يراد بها إلا آيات القرآن لأنها استكملت كنه الآيات باشتمالها على عظم الدلالة على الحق ، إذ هي معجزات بنظمها ولفظها وما عداها يسمى آيات على وجه المشاكلة .

وإسناد التلاوة إلى جميع الرسل وإن كان فيهم من ليس له كتاب على طريقة التغليب . <٢> وجملة « وينذرونكم لقاء يومكم هذا » جاءت معطوفة على الجملة السابقة .

والتعبير عن الوقت باليوم مراد به كما يقول الزمخشري « وقت دخولهم النار لا يوم القيامة ، وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدة » . <٣>

وإضافته إلى ضمير المخاطبين « يومكم » للإشارة إلى شدة اليوم على الكافرين المعذبين لا على غيرهم ، وللتأكيد على ذلك أشير إليه باسم الإشارة « هذا » وهو إشارة للقريب لأن النص يصور الحوار وينقله لنا كأنه مشاهد محسوس .

ثم يمضى النص القرآني يوضح إعترافهم وإقرارهم باستحقاق العذاب بسبب كفرهم « قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » .

١ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٤١ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٧٠/٢٤ .

٣ - الكشاف ، ٤١٠/٣ .

وفي قوله « بلى » إيجاز حذف لأن إجابتهم تتضمن صيغة السؤال والتقدير « بلى أتانا رسل منا وتلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا لقاء يومنا هذا » <١> ، « وداعي الإيجاز الحسرة والندم على ما فعلوا حيث يشعرون بالتمزق ، فأعمالهم محسوبة مكشوفة مفضوحة أمامهم تدفعهم إلى الإقرار لأنه لا شيء يخفى على الله فلا مجال للكذب ، وقد فصلت جملة « قالوا بلى ... » عما قبلها لأنها جواب عن الاستفهام ، والجواب لا يعطف بلاغة على السؤال . <٢>

والواو في قوله « ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، تقتضي الجمع بين المعطوفين ، وهو للاستئناف ولكن تفيد الاستدراك مع العطف أي مع إيتان الرسل وجب عليهم العذاب لإعراضهم عن إتباع الرسل والاسترشاد بهم ، وفي هذا التعبير إيجاز قصر ، وكلمة العذاب المراد بها إما الحكم بالشقاوة وأنهم من أهل النار لسوء إختيارهم ، وإما قوله تعالى « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » . <٣>

وقد أسند البيان القرآني في قوله « حقت كلمة العذاب » الفعل إلى المفعول وكان مقتضى الظاهر أن يكون التعبير هكذا « حق الله كلمة العذاب » لكنه جعل كلمة العذاب هي التي حقت بنفسها عليهم ليظهر مزيد إستحقاقهم لهذا العذاب ففيه مجاز عقلي علاقته المفعولية .

ولأن الموقف موقف صدق حتى من الكافرين فقد وصفوا أنفسهم بالكفر حيث وضع الظاهر موضع الضمير ف قيل « على الكافرين » ولم يقولوا « علينا » ليدل على أن هذا التوبيخ خاص بالكفرة وأن ذلك الحكم لكونهم كفروا ، ولتعميم الحكم

١ - روح المعاني ، ٢٤/٢٢ ؛ راجع تفسير أبي السعود ، ٤/٦٢٥ .

٢ - ص : ٨٥ ؛ انظر روح المعاني ، ٢٤/٢٢ ؛ راجع الكشاف ، ٢/٤١٠ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤/٦٢٥ .

٣ - انظر حاشية الشهاب ، ٧/٣٥٤ ؛ راجع روح المعاني ، ٢٤/٢٢ ؛ مناهج الدعوة في القرآن ،

لكل من كفر ، ففي قولهم هذا إيجاز جمع بين الاعتراف بالذنب والتصريح بالصفة التي استحقوا من أجلها العذاب . <١>

وتأمل بلاغة القرآن في هذه الإهانة التي وردت على السنة زبانية العذاب في قوله تعالى « قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .
ففي بناء الفعل « قيل » للمجهول تركيز على الحدث نفسه ، وعدم التصريح بالقائل لكونه معلوماً وهم خزنة جهنم ، وقيل يجوز أن يكون غيرهم لأن المقصود ذكر المقول المهول من غير نظر إلى قائله . <٢>

أما الأمر الآخر في قوله « ادخلوا » فلإهانة والتحقير ، ومن بلاغة النظم القرآني المطردة نتيجة استقراء لجميع سياقاته أن الأمر بالدخول ، إذا كان خطاباً للمعذبين فهو لإهانة والسخرية ، وإذا كان خطاباً للمنعمين فهو للتكريم والرضا . <٣>

وفي التعبير بقوله « ادخلوا أبواب جهنم » تهويل فظيع لشأن جهنم حتى لكان أبوابها جعلت كأنها هي جهنم نفسها زيادة في تهويل العذاب لأن أصل الكلام « ادخلوا جهنم من أبواب جهنم » فإذا كان الدخول في أبواب جهنم كفيل بأن يذيق هؤلاء الكفار العذاب ، وإذا كان ذلك شأن أبوابها فما شأنها هي يا ترى ؟

ونلاحظ أن جملة « قيل ادخلوا ... » فصلت عما قبلها لأن بينهما شبه كمال الاتصال . <٤>

١ - انظر حاشية الشهاب ، ٢٥٤/٧ : مناهج الدعوة ، ص ٣٤١ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٢٥/٤ .

٣ - انظر أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص ١٩٨ وما بعدها .

٤ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٣٤٣ .

أما قوله « خالدين » فهو حال من الضمير فى « ادخلوا » وعدل عن « مخلدون » إلى « خالدين » وأسند الفعل إلى الكفار تحقيراً لهم وتغليظاً للعذاب النفسى ، وأثر القرآن التعبير بالإسم « خالدين فيها » لدلالته على الاستمرار والدوام زيادة فى تئيسهم ببقائهم وخلودهم فى النار .

وللتعبير بالجار والمجرور « فيها » خصائص بلاغية تبرز جلال البيان القرآنى وجماله الآخاذ منها الإشارة إلى بقاءهم وخلودهم فى النار لئلا يتوهم أحد أنهم مأمورون بالدخول فى جهنم فحسب ، أما الخلود فليس بلازم أن يكون فيها ، ولزيادة الترهيب والتهويل من جهنم بتكرار ذكرها على أسماعهم صريحة مرة باللفظ ومكنى عنها بالضمير مرة أخرى . <١>

وتعريف « المتكبرين » بأل للعهد الذكرى لسبق الإشارة إليهم فى نفس السورة فى قوله تعالى « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » <٢> وليس كما ذكر الزمخشري - ومن تابعه - بأنه للجنس <٣> والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره أنفاً تقديره : فبئس مثوى المتكبرين جهنم .

« وفى التعبير « بالمتكبرين » إيماء إلى أن دخولهم النار لتكبرهم عن قبول الحق والانقياد للرسول المنذرين عليهم الصلاة والسلام ، وهو فى معنى التعليل ، ولا ينافى تعليل ذلك بسبق كلمة العذاب عليهم لأن حكمه تعالى وقضائه سبحانه عليهم بدخول النار إلا بسبب تكبرهم وكفرهم لسوء اختيارهم المعلوم له سبحانه فى الأزل . <٤>

١ - انظر المرجع السابق .

٢ - الزمر : ٦٠ .

٣ - الكشاف ، ٤١٠/٣ : انظر تفسير أبى السعود ، ٦٢٥/٤ : حاشية الشهاب ، ٢٥٤/٧ : روح المعاني ، ٣٢/٢٤ .

٤ - روح المعاني ، ٢٣٢/٢٤ وما بعدها : راجع تفسير أبى السعود ، ٦٢٥/٤ .

والمتوى : محل الثواء ، والثواء الإقامة الدائمة ، وأوثر لفظ « متوى » دون « مدخل المتكبرين » المناسب لـ « ادخلوا » لأن المتوى أدل على الخلود فهو أولى زيادة في الإهانة والتحقير ، ولأن الدخول لا يدل على الدوام فلم يبالغ في ذمه بخلاف الثواء . <١>

وهنا ينتهي الحديث عن ركب جهنم ركب المتكبرين ، أما ركب الجنة ركب المتقين ، وكيف يكون حالهم ومآلهم ؟ وما هو مصيرهم ؟

مصير المتقين :

يأتي قوله تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة ... » يبين مصيرهم ونهايتهم السعيدة حيث تستقبلهم الملائكة عند أبواب الجنة بالترحيب والتكريم .

ولعلك تلحظ أن النص الكريم افتتح بكلمة « سيق » لمشاكلته الفعل « سيق » السابق ، وفي بنائه للمجهول تركيز على الحدث نفسه الذي يقتضي إبراز للمفعول زيادة في تكريمهم والتعجيل بهم إلى دار الخلد .

وفي هذا البيان القرآني فن دقيق المسلك لا يتأتى مثله لغير هذا النظم المعجز فقد عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بكلمة « سيق » حيث تراها تارة تكون دالة على الهوان والعقاب وتارة أخرى على الرضا والتكريم وحسن الثواب ، ليشير إلى تفاوت الفريقين في الجزاء إهانةً وتكريماً .

وللزمخشري لفظة طيبة في هذا الصدد كشف فيها جانباً من بلاغة القرآن بقوله « فإن قلت : كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق ، قلت : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين ، وحثها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة

١ - انظر أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص ١٩٩ : راجع البحر المحيط ،

والرضوان كما يفعل بمن يُشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين » . <١>

وفي إيثار التعبير عنهم بالصلة « الذين اتقوا » دون قولنا « المتقون » دلالة على أنهم معروفون قبلاً فقد سبق الحديث عنهم في الآيات السابقة التي تتناول مصير المكذبين والمتقين يوم القيامة . <٢>

كما أن مجيء الصلة فعلاً ماضياً للإشارة إلى الاستمرار والمضي فيه لأن التمسك بالتقوى هو الذي يقود إلى هذا الجزاء ، بالإضافة إلى أن فيه محافظةً على التلاؤم الصوتي للآيات .

وفي ذكر المتعلق « إلى الجنة » بيان لنهايتهم السعيدة جزاء بما كانوا يعملون ، كما أن التعبير بالجنة يلقي في النفس الشعور بالبهجة والسرور ويوحى بظلاله بألوان من النعيم الحسي والروحي .

وفي الإتيان بوصف حال المسوقين إلى الجنة بكلمة « زمرا » إشارة إلى أنهم متفاوتون حسب تفاوت مراتبهم في الفضل وعلو الطبقة ، أو إلى أنهم طبقات مختلفة كالشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم ، ونلاحظ أن لمعنى الكلمة اللغوي قيمة في تصوير حالهم فأصوات المتقين مهللة مكبرة فرحة وغبطة ، ولا يتصور أن يكون هذا مصير جماعة فلا تحدث أصواتاً بالإضافة إلى دلالتها على طبقات المسوقين وطبقاتهم المختلفة . <٣>

وقد جاءت هذه الجملة معطوفة بالواو على جملة « وسيق الذين كفروا ... » لأنها تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها أي سيقوا إليها مساق إعزاز وتشريف ، فبين الجملتين التوسط في الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

١ - الكشاف ، ٤١١/٣ ؛ راجع إعراب القرآن وبيانه ، ٤٥١/٢٤ .

٢ - راجع الزمر : ٦٠ - ٦١ .

٣ - انظر الكشاف ، ٤١٠/٣ ؛ تفسير أبي السعود ، ٦٢٥/٤ ؛ مناهج الدعوة ، ص ٢٨١ .

ثم تنتقل الايات تصور لنا نهاية مطافهم قال تعالى « حتى إذا جاعوها وفتحت أبوابها ... » وللعلماء في جواب الشرط ثلاثة أوجه : أحدها : قوله « وفتحت أبوابها والواو صلة وهو رأي الكوفيين والأخفش * » ، والثاني : أن الجواب محذوف ، قال الزمخشري « وحق موقعه أن يقدر بعد خالدين <١> » تقديره إطمأنوا ، وقدره المبرد بقوله سعدوا ، وعلى هذين الوجهين تكون جملة « وفتحت أبوابها » في محل نصب على الحال ، وإنما ناسب « كونها حالاً أن أبواب الجنة تكون مفتحة لانتظار من يجيء إليها بخلاف السجون » <٢> وقيل تقديره : حتى إذا جاعوها جاعوها وفتحت أبوابها ، الثالث : أن الجواب في جملة : « وقال لهم خزنتها » . <٣>

ونلاحظ أن الفعل « فتحت » قد سبق بالواو بخلاف الجملة السابقة حيث لم تسبق بالواو ، ويبدو أن السر في ذلك أن أبواب الجنة تكون مفتوحة دائماً حيث يفتح الخزنة أبوابها ويقفون ينتظرونهم كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه منتظرة له ، وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه ، بعكس جهنم فإن أبوابها لا تفتح إلا عند دخول أحد فيها ثم تغلق كالسجون » . <٤>

ثم يمضي القرآن يصور لنا بعد ذلك لقاء الخزنة بالمسوقين إلى الجنة في قوله تعالى : « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » وقد وصلت

* هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي المعروف بالأخفش الأوسط ، قرأ النحو على سيبويه وكان أسن منه ولم يأخذ عن الخليل ، توفي سنة ٢١٥ هـ ، من مؤلفاته معاني القرآن والمقاييس في النحو والاشتقاق وغيرها . انظر ترجمته في طبقات النحويين للزبيدي ، ٧٢ وما بعدها ؛ بغية الوعاة ، ٥٩٠/١ .

١ - الكشاف ، ٤١١/٣ .

٢ - البحر المحط ، ٤٤٣/٧ .

٣ - انظر البحر المحيط ، ٤٤٣/٧ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٤/٢٤ .

٤ - راجع روح المعاني ، ٢٤/٢٤ - ٢٤ ؛ مناهج الدعوة ، ص ٣٤٠ .

هذه الجملة بما قبلها بالواو لما بينها من التوسط في الكمالين ، لكننا نلاحظ أنهما تختلفان في الإسناد ، فالمسند في الأولى « الفتح » وفي الثانية « القول » والمسند إليه في الأولى « أبواب الجنة » وفي الثانية « خزنة جهنم » وعلى الرغم من ذلك فقد اتحدتا في الخبرية لفظاً ومعنى فحسن لذلك الوصل بينهما .

وسياق الآية دال على نهاية التكريم لهؤلاء المؤمنين حيث تستقبلهم الملائكة بالترحيب « سلام عليكم » من جميع المكاره والآلام وتنكير كلمة « سلام » للتعظيم فهو سلام عظيم لا يمكن تعريفه أو وصفه ، وهي « مبتدأ » والجار والمجرور « عليكم » متعلق بمحذوف خبر المبتدأ .

أما قوله « طبتم » فمعناه : « طبتم من دنس المعاصي وطهرتم من خبث الخطايا »^١ وقد جاءت هذه الجملة مفصولة عن جملة « سلام عليكم » لما بينهما من كمال الاتصال لأن الجملة الثانية وقعت مؤكدة لما قبلها حيث أكدت سلامتهم من كل المكاره بتطهرهم من جميع الآثام والمعاصي ، وهي في موضع التعليل لما بعدها ،^٢ « فادخلوها خالدين » الفاء سببية عاطفة لأن ما قبلها سبب لما بعدها حيث « جعل دخول الجنة مسبباً عن الطهارة ، فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قدر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها » .^٣

أما قوله « خالدين » فهو حال أي : مقدرين الخلود^٤ لكم فيها « وأصلها « مخلدون » اسم مفعول عدل به إلى اسم الفاعل « خالدين » فأسند الفعل إليهم تكريماً لهم من الله سبحانه ، لأنهم طهروا أنفسهم من الذنوب ، فهم الذين ينوون نية الخلود ، فجعلهم مريدي الخلود ، وفي هذا حث للمسلمين على التطهر من الذنوب حتى ينالوا النعيم الخالد ، والحال يقتضي المفارقة والزوال ، وكلمة

١ - الكشاف ، ٤١١/٣ .

٢ - انظر روح المعاني ، ٣٤/٢٤ .

٣ - الكشاف ، ٤١١/٣ .

٤ - السابق الموضع نفسه .

« خالدين تفيد الاستمرار والدوام ، فاجتمع المعنيان من معنى الكلمة وموقعها » . <١>

بهذه البشرية تستقبل الملائكة المتقين فما كان رد المتقين إلا أن قالوا « الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبواً من الجنة حيث نساء فنعم أجر العاملين » . <٢>

وأثر القرآن في هذه الآيات التعبير بالماضي عن المضارع في قوله « سيق » ، جاعوها وفتحت « إلى آخر هذه الأحداث التي جاءت العبارة عنها بصيغة الماضي ، وهي في الحقيقة لم تقع بعد ، وإنما ستقع في حينها الذي قدره العلي القدير ، ولكن هذه الصيغة تلقي في النفس أن هذه الأحداث كأنها وقعت ، وكأنها تروى ، وكأن الزمان قد استدار ، وها هو القاريء يقف هذه المواقف وتمر به هذه الأحداث » . <٣> ففي التعبير بالماضي استعارة تبعية في زمن الفعل للدلالة على تحقق وقوعه .

وقدم القرآن الحديث عن الكافرين على الحديث عن المؤمنين ، ويبدو أن السر في ذلك - و الله أعلم بمراده - لمجاورة قولهم « الحمد لله الذي أورثنا الأرض ... » بقوله في نهاية السورة « وقيل الحمد لله رب العالمين » <٤> فلو قدم الحديث عن المؤمنين لأختل تجاوب أطراف النظم الكريم ولجاور قول الخزنة « فبئس مثوى المتكبرين » قوله تعالى « وقيل الحمد لله رب العالمين » فما جاء عليه النظم أنسب بمعاقده الكلام .

كما أن في تقديم الحديث عن الكافرين لينتهي منهم عجالاً ، ليتفرغ السياق الكريم بعد ذلك للحديث عن المؤمنين ، ولينتهي السورة بهذا الختام الطيب ليكون آخر م يعلق في ذهن القاريء منها تلك البشارة المتمثلة في قول المؤمنين « الحمد لله الذي صدقنا وعده ... » .

١ - مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٨٣ .

٢ - الزمر : ٧٤ .

٣ - التصور البياني للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٢١٠ .

٤ - الزمر : ٧٥ .

الفصل الثاني

الترغيب في الإعتصام بحبل الله

والترهيب من التفرق

واتباع السبل

المبحث الأول

الترغيب في الإعتصام بحبل الله في

القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترغب في الإعتصام

دعا القرآن الكريم إلى الاعتصام بالله وبطريقه المستقيم ورغب فيه في كثير من سوره ، فالاعتصام حصن حصين للإيمان بالله ، وقد حُبب القرآن هذه الفضيلة ورتب عليها آثارها الطيبة في الدنيا والآخرة سواء كان ذلك في محيط الفرد « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » ^١ أو في محيط الجماعة « واعتصموا بحبل الله جميعاً » ^١ لأن الاعتصام من جهة فيه توثيق الصلة بالله والتمسك بهدى دينه القويم وعروته الوثقى التي لا انفصام لها ، ومن جهة أخرى فيه للمؤمنين عزة وقوة ونصرة ، لذلك احتلت الدعوة إلى الاعتصام بالله منزلة مرموقة في البيان القرآني فجاء حديثه عنه حافلاً بالترغيب فيه ناصحاً وموجهاً ومحبباً من خلال آيات بينات تشع منها أنوار الهداية الربانية تمثيلاً وتصريحاً .

وقد عمد القرآن للترغيب في الاعتصام على التصوير البياني الأسر من خلال تمثيل الجماعة المؤمنة - وهي تهتدي بهدي ربها - بمجموعة من الناس ممسكين بحبل متين لكيلا يهواوا في بؤر الهلاك والضلال .

وكم كان للبيان القرآني من أسرار وخصائص بلاغية جذبت الفطر السليمة إلى الاعتصام جذباً لا تمك معه إلا الانقياد عن رضا واقتناع على نحو ما سنوضحه في الصفحات القادمة بعون الله وتوفيقه .

١ - آل عمران :

٢ - آل عمران :

قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

يأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بالاعتصام بحبله وبينهاهم عن التفرق واتباع السبل ممتناً عليهم بتأليف قلوبهم بعد أن كانوا متباغضين متناحرين فأصبحوا بنعمته إخوة متحابين ، ويأنقذهم من النار حيث كانوا على شفا حفرة منها لكن الله بلطفه وفضله أنقذهم منها .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

في هذه الآية الكريمة يرغب الله سبحانه وتعالى المؤمنين في الاتحاد والاعتصام بحبله والتمسك بدينه القويم وينفرهم من الفرقة والاختلاف .

وتأمل روعة التصوير وجمال التعبير في قوله « واعتصموا بحبل الله جميعاً » ففي هذا النظم القرآني إستعارتان ، فهذا التعبير إما أن يكون في جملته - بدون النظر إلى المفردات - إستعارة تمثيلية شبه فيها حال المسلمين في ثقتهم بالله وتطلعهم إليه وحده دون سواه ووثوقهم بحمايته لهم بحال المتمسك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه .

وإما أن يكون في التعبير بقوله بحبل الله إستعارة تضريرية أصلية شبه فيها دين الله أو كتابه بالحبل بجامع قوة المتمسك به في كل ثم حذف المشبه وهو دين الله وتنوسي التشبيه ثم جعل اللفظ الدال على المشبه فرداً من أفراد

١ - آل عمران : ١٠٣ .

٢ - انظر الكشاف ، ٤٥٠/١ : البحر المحيط ، ١٧/٣ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٢٦/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٥٢/٣ ؛ حاشية زادة ، ٦٥٦/١ ؛ التصوير البياني ، ص ٢١٩ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٩٥ .

المشبه به « الحبل » وداخلا في جنسه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ،
أما سرها البلاغى فهو تصوير المعقول في صورة المحسوس لزيادة الاعتناء به .

وفي قوله : « اعتصموا » استعير الاعتصام للتوثق ثم اشتق من الاعتصام
اعتصموا بمعنى توثقوا على سبيل الاستعارة التبعية ، وسرها البلاغى فوق تصوير
المعقول بالمحسوس فيه إشارة إلى قوة العمل المطلوب وتوثيق الصلة وكلتا
الاستعارتين ترشيح للآخرى .

« وبذلك تكون هذه الصورة محددة وبارزة في الحيز المحسوس ، فها هو
الحبل . كل من آمن بالله والقرآن لائذبه معتصم ، هاهي الجماعة المؤمنة بالله
كلها حول هذا الحبل ، أخذه بطرفه ، مجتمعة حوله أحمرها وأسودها في ذلك
سواء ، ذابت حوله كل الجنسيات وانقطعت دونه كل السلالات ليصير الكل في
هذا المجتمع الكريم ، ماداً يده وروحه يأخذ منه ويستتر شديده ، فالدعوة إلى تجميع
الأمّة حول شيء غير هذا الحبل تضليل لها وصرف لها عن رسالتها ومغالطة
للتاريخ لأنه لم يجمعها في تاريخها إلا هذا الأمل « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً
ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » . <١>

وإيثار القرآن التعبير بصيغة الافتعال « اعتصموا » للإشارة إلى المبالغة
في حدوث الفعل ، والدلالة على شدة اعتصامهم بالله وتمسكهم بحبله الذي
لا ينقطع .

أما قوله « جميعاً » فهو حال منصوب من الضمير في اعتصموا أى
اعتصموا حال كونكم مجتمعين ، وقد جيء به لتأكيد الاعتصام والاتحاد
والاجتماع .

والتعبير بالنهى « ولا تفرقوا » توكيد للأمر « اعتصموا » أى « ولا تفرقوا
عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلف اليهود والنصارى ، أو كما كنتم
متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادي بعضكم بعضاً ويحاربه ، أو ولا تحدثوا

١ - الأنفال : ٦٣ : انظر قراءة في الأدب القديم ، للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٢٩٠ .

مايكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم وهواتباع الحق والتمسك بالإسلام <١> .

فالتعبير بالنهي عن التفرق توكيد للمعنى السابق وهو الأمر بالاعتصام ، ولكنه في حقيقته « يطوي لوناً جديداً من حيث إنه عرض لمقابل الوحدة والتجمع وهو التفرق ونهي عن المقابل ، فلوقلت : اعتصموا بحبل الله ، اعتصموا بحبل الله مرتين لكنت مؤكداً بإعادة المعنى نفسه من غير أن تضيف لوناً جديداً ، وهذا هو محض التوكيد ، ولكنك حين تعرض المقابل الذي تحث على ضده وتوحي بما فيه من ضياع وتبدد ، فكلمة « تفرقوا » تحمل معنى الضياع والتلاشي ، فحين تعرضها لتوجه النهي إليها كأنك تحذر منها ومن محتوياتها الإيحائية » <٢> ، وإشاعاتها الموحية .

والأمر والنهي في « اعتصموا » ولا تفرقوا « للدوام والاستمرار على ما هم عليه <٣> . وفي قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » لمسة وجدانية يستثير بها القرآن الكريم دوافع الطاعة في النفس الإنسانية ، ويحثهم على الاعتصام والابتعاد عن الفرقة والاختلاف حيث يأمرهم الله عز وجل بتذكر نعمته عليهم ممتناً عليهم بتأليف قلوبهم وإنقاذهم من النار .

وإضافة النعمة إلى لفظ الجلالة تشريف وتعظيم لها ، واستشعار لمهابة جنابه العظيم حيث يتوجب عليهم شكره لإنعامه عليهم .

والوصل بين هذه الجمل الثلاث جملة « اعتصموا ... وجملة ولا تفرقوا » وجملة « واذكروا نعمة الله عليكم » لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الإنشائية لفظاً ومعنى .

١ - الكشاف ، ٤٥١/١ : راجع التفسير الكبير ، ١٧٨/٨ : البحر المحيط ، ١٨/٣ : تفسير أبي السعود ، ٥٢٦/١ .

٢ - قراءة في الأدب القديم ، ص ٢٩١ .

٣ - انظر البحر المحيط ، ١٨/٣ .

ويوضح التعبير القرآني « إن كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » ما كانوا عليه في الجاهلية من تناحر وحروب وإحن وكيف أنه سبحانه قد ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته بعد أن كانوا متباغضين متحابين متآلفين ، و « ما كان إلا الإسلام وحده هو الذي يجمع هذه القلوب المتنافرة ، وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمته إخواناً . <١>

ولاشك أن التعبير بقوله « فألف بين قلوبكم » أبلغ من قوله « فألف بينكم » لأنه يجسد معاني الأخوة والحب ، ويصور القلوب حزمة مؤلفة متآلفة بيد الله وعلى عهده وميثاقه .

وفي التعبير بقوله « فأصبحتم بنعمته إخواناً » تشبيهه بليغ لأن الأداة محذوفة أى أصبحتم بنعمته كالإخوان ، وهو من المواضع التي يصعب فيها تقدير الأداة ، والوجه محذوف كذلك .

والنظم القرآني لم يقل « كالإخوان » وإنما قال « إخواناً » - فهم إخوة بالفعل - للمبالغة في بيان شدة تألفهم ومحبتهم ، وحقيقة تأخيهم بأنها تفوق أصرة النسب لأنها إخوة في الدين ، والباء في « فأصبحتم بنعمته » للسببية أى فأصبحتم بسبب نعمة الله التي أنعم بها عليكم من التآليف بعد التفرق والمودة بعد العداوة إخواناً . <٢>

ولا يخفى ما في النظم القرآني « أعداء » و « إخواناً » من طباق يوحى بعظيم نعمة الله ورحمته بهم ، وفي قوله « أنكروا نعمة الله عليكم » أجمل البيان القرآني ذكر النعمة ثم فصلها بقوله « إن كنتم أعداء فألف بين قلوبكم . ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

١ - في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٤٣٦ .

٢ - أنظر النهر الماد من البحر المحيط ١٨/٣ .

وقد جمع النظم القرآني بقوله « إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » نعمتين ، نعمة دنيوية وهي تآلف قلوبهم وصيرورتهم إخوة في الله ، ونعمة أخروية وهي إنقاذهم من النار ، وراعى القرآن في ترتيب هاتين النعمتين السابق الزمني ، فبدأ بذكر النعمة الدنيوية لأنها أسبق زمنياً لأنها في الدنيا . <١>

ومن خلال هذا التصوير البياني في قوله تعالى « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » يبرز التعبير القرآني صورة حية ومشهداً حياً متحركاً تتحرك معه القلوب وتتبعه في خوف وهلع شديد وتكاد العيون تتملاه من وراء الأجيال . <٢>

ففي هذا التعبير إستعارة تمثيلية « شبه حالهم وهم على غير هدى ، وظل الموت يتبعهم ويوشك أن يقذف بهم في عذاب الله بحال الكائن على شفا حفرة من النار ، كلاهما على مقربة من خطر داهم ليس بينه وبين الهلاك المبير إلا حركة ضالة ، أو إهتزازة مختلة ، فيسقط في هوة متقدة ، والصورة كما ترى مليئة بالحذر والخوف والنبض المتصاعد . <٣> ، وإنها لصورة تملأ النفوس هلعاً عند ما نتصور إنساناً يقف على حافة هاوية من نار تكاد قدمه أن تزل فيسقط فيها وتكون نهايته الرهيبة . <٤> وهذا هو سر التأثير في التصوير البياني في القرآن الكريم .

ويدهي أن إضافة قيد في الجملة يتبعه زيادة في المعنى ، وفي هذه الآية لم يكتف القرآن بقوله على شفا حفرة ، وإنما أضاف قيدهم آخر بقوله « من النار » فزاد هذا القيد الحفرة تهويلاً وتفضيلاً بأنها من نار .

١ - راجع التفسير الكبير ١٧٨/٨ وما بعدها والبحر المحيط ١٨/٣ .

٢ - راجع في ظلال القرآن المجلد الأول ص ٤٣٧ .

٣ - التصوير البياني ص ٣١٩ .

٤ - المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٤١٢ وما بعدها .

ولم يقل القرآن « على حرف حفرة ، وإنما قال « على شفا حفرة » فأثر التعبير بالشفا على التعبير بالحرف لأن الشفا فيه معنى الرخاوة أما الحرف ففيه معنى القساوة والشدة ولذلك أثر القرآن التعبير بقوله « على شفا حفرة » للدلالة على سرعة الترددي وسرعة وقوعهم في الهلاك .

وهذه الآية الكريمة تصور عظيم قدرة الله ولطفه ورأفته بهم على نحو ما تنبىء عنه الفاء في قوله « فأنقذكم » فهي تشير إلى سرعة إنقاذ الله لهم من النار ، كما أن دلالة الفعل « أنقذكم » تومض بسرعة إنقاذهم من النار ، وتحقق السعادة في غمضة عين ، بعد أن غطى الشقاء على عيونهم ، وغشى أبصارهم بغشاء كثيف من الباطل . ^١ والضمير في قوله « فأنقذكم منها » للحفرة أو للنار أو للشفا وإنما أنث لإضافته إلى الحفرة كما ذكر الزمخشري ومن تابعه من المفسرين . ^٢

غير أن ابن المنير يعترض على الزمخشري بقوله « يجوز عود الضمير إلى الحفرة فلا يحتاج إلى تأويله المذكور كما تقول : أكرمت غلام هند وأحسنت إليها ، والمعنى : على عوده إلى الحفرة أتم لأنها التي يمتن بالإنقاذ منها حقيقة ، وأما الامتتان بالإنقاذ من الشفا فلما يستلزمه الكون على الشفا غالباً من الهويّ إلى الحفرة ، فيكون الإنقاذ من الشفا إنقاذاً من الحفرة التي يتوقع الهويّ فيها ، فإضافة المنة إلى الإنقاذ من الحفرة تكون أبلغ وأوقع . ، وما حمل الزمخشري على إعادة الضمير إلى الشفا إلا أنه هو الذي كانوا عليه ولم يكونوا في الحفرة حتى يمتن عليهم بالإنقاذ ، وقد بينا في إدراج هذا الكلام ما يسوّغ الامتتان عليهم بالإنقاذ من الحفرة لأنهم كانوا صائرين إليها غالباً لولا الإنقاذ الرباني . ^٣ وفي التعبير بقوله « فأنقذكم منها » كناية عن هدايتهم إلى الإسلام .

١ - راجع المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ص ٤١٢ وما بعدها .

٢ - انظر الكشاف ٤٥١/١ والبحر المحيط ١٩/٢ وتفسير أبي السعود ٥٢٧/١ .

٣ - الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ٤٥١/١ .

وقد عطفت جملة ، وكنتم على شفا حفرة من النار» فأنقذكم منها « على جملة » كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم .. « ، لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

والتعبير باسم الإشارة كذلك للإشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده أى كذلك البيان أو كذلك التبيين الواضح ، وما فيه من معنى البعد للإيدان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل وكمال تمييزه عما عداه . <١>

وتأمل جمال التشبيه القرآني في قوله « كذلك يبين الله لكم آياته » ترى أداة التشبيه « الكاف » دخلت على اسم الإشارة « ذلك » المشار به إلى مجموع الجمل السابقة باعتبار المعاني التي أدتها فيكون اسم الإشارة مشبهاً به ملحوظاً فيه معاني تلك الجمل ، أما المشبه فهو الفعل . <٢> يبين الله لكم آياته .

وفي هذه الآية قدم البيان القرآني الجار المجرور « لكم » على المفعول به « آياته للمسارعة إلى تعجيل المسرة لهم وإدخال السرور عليهم .

والمراد بالآيات في قوله « آياته » العلامات المنصوبة الدالة على طريق الحق ، وإضافة الآيات إلى ضمير الحق عز وجل لتشريف الآيات وتعظيمها .

والتعبير بالمضارع في قوله « لعلمكم تهتدون » للتجدد والحدوث أى رجاء تجدد هدايتكم . وأثر النظم القرآني التعبير بالجملة الفعلية « تهتدون » لأن التعبير بالجملة الإسمية يفيد الثبوت والدوام ، والمراد هنا تجدد هدايتهم حالاً فحالياً لأن « لعل » للتوقع ، وهذا التوقع لا يناسبه إلا التعبير بالجملة الفعلية الدالة على تجدد هدايتهم جيلاً بعد جيل ، لئلا تقف الدلالة عند حد المخاطبين في عصر النزول .

١ - أنظر تفسير أبي السعود ٥٢٧/١ .

٢ - أنظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ٢٩١/٢ .

وحين نتأمل سر ارتباط هذه الجملة « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » بما قبلها نجد القرآن في هذه الآية وفي كثير من المواطن يربط بين الجملتين اللتين بينهما التوسط بين الكمالين باسم الإشارة لما فيه من معنى الربط ولا غرابة في ذلك فإن النحاة اعتبروه رابطاً بين المبتدأ والخبر إذا كان الخبر جملة كما في قوله تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » . <١>

ففي هذه الجملة نرى اسم الإشارة أغنى عن حرف العطف ، وهذا مظهر فريد من روائع التعبير في القرآن الكريم .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

يخبر الله عباده أنه قد جاءهم برهان من ربهم وحجة قاطعة تبين صحة نبوة محمد ﷺ وأنه أنزل معه إليهم نوراً مبيناً يبين لهم السبل الهادية التي تنجيهم من عذاب الله وأليم عقابه ، <٣> ثم يخبر الحق سبحانه وتعالى أن المؤمنين بالله المعتصمين بحبله سيدخلهم في واسع رحمته وعظيم فضله ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً لا اعوجاج فيه يقودهم إلى الجنة .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

ليس بخاف أن في النداء بـ « يا أيها » لفتاً للمخاطبين وإيقاظاً وتنبهاً لهم إلى ما سيلقى عليهم بعد النداء من أمر عظيم .

١ - الأعراف : ٢٦ .

٢ - النساء : ١٧٤ - ١٧٥ .

٣ - انظر تفسير الطبري ٢٦/٦ .

وفي إقبال الله بخطاب الناس جميعهم - بعد أن كان الخطاب في الآية السابقة موجهاً إلى أهل الكتاب - بقوله « يا أيها » تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافة المكلفين إثر بيان ما عليه الكفرة من فنون الكفر والضلال وإلزامهم بالبراهين القاطعة التي تخر لها صم الجبال وإزاحة شبههم الواهية بالبينات الواضحة ، وتنبيه لهم على أن الحجة قد تمت عليهم فلم يبق بعد ذلك علة لتعلل ولا عذر لمعتذر . <١>

والتعبير بحرف التحقيق « قد » في قوله « قد جاعكم برهان من ربكم » لتأكيد الخبر أي قد وصل إليكم وتقرر في قلوبكم بحيث لا سبيل لكم إلى إنكار البرهان - المقصود به القرآن - الدال على صحة نبوة النبي ﷺ المثبت لما فيه من الأحكام التي من جملتها ما أشير إليه مما أثبتته الآيات الكريمة من حقية الحق وبطلان الباطل . <٢>

وفي إسناد المجيء إلى البرهان في قوله « قد جاعكم برهان » مجاز عقلي علاقته المفعولية . وتنكير « برهان » يفيد التفخيم والتعظيم ، ومن في قوله « من ربكم » قيل إنها لا ابتداء الغاية أي برهان كائن من ربكم ، وقيل إنها للتبعيض على تقدير حذف مضاف أي كائن من براهين ربكم . <٣>

غير أن الراجح لدى أنها بيانية تبين جهة صدور البرهان بأنه من الله سبحانه وتعالى لا من غيره .

وفي إثارة القرآن التعبير بلفظ « رب » دون لفظ الجلالة وإضافته إلى ضمير المخاطبين « لإظهار اللطف بالمخاطبين والإيذان بأن مجيئه لتربيتهم وتكميلهم » <٤> والإشعار بعظمة البرهان وصدقه .

١ - تفسير أبي السعود ٨٢٥/١ وراجع روح المعاني ٤٢/٦ .

٢ - أنظر تفسير أبي السعود ٨٢٥/١ وما بعدها .

٣ - أنظر تفسير أبي السعود ٨٢٦/١ والفتوحات الإلهية ٤٥٣/١ وما بعدها وروح المعاني ٤٢/٦ .

٤ - تفسير أبي السعود ٨٢٦/١ .

وتأمل حسن الالتفات ومغزاه البلاغي في قوله « من ربكم وأنزلنا » حيث انتقل من الغيبة في قوله « من رب » إلى التكلم في « أنزلنا » وكان مقتضى الظاهر أن يقال « وأنزل إليكم » لكن البيان القرآني انتقل إلى التكلم ليشير إلى أنه سبحانه وتعالى بذاته قد أنزل إليهم القرآن الكريم والنور المبين وجاءهم به بنفسه من غير أن يجيء به أحد وللدلالة على كمال القرآن وتشريفه ، وإظهار الرحمة بهم .

وفي التعبير بقوله « أنزلنا إليكم » إيجاز بالحذف تقديره : أنزلنا إليكم بواسطة الرسول ﷺ نوراً مبيناً ، وفي عدم ذكر الواسطة وهو النبي ﷺ إظهار لكمال اللطف بهم مبالغة في الإعذار . <١>

والمراد بالنور القرآن الكريم ، ففي هذا التعبير إستعارة تصريحية أصلية شبه القرآن الكريم بالنور بجامع الهداية إلى طريق الرشاد في كل ثم تنوسي التشبيه ثم جعل لفظ المشبه وهو القرآن فرداً من أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وتنكير « نوراً » للتعظيم والتنويه بشأنه ، ووصفه بقوله « مبيناً » لزيادة التعظيم والتفخيم لشأنه .

وفي التعبير بقوله « مبيناً » تكميل* ويسمى « احتراس » ، ومعنى الآية يتم بدونه « وأنزلنا إليكم نوراً » لكن القرآن الكريم وصف النور بأنه مبين احتراساً لدفع توهم أن يكون النور ضعيفاً ، لأن النور منه ما يكون خافتاً غير مبين ، وليس كذلك وحي الله سبحانه ونوره المبين .

١ - انظر روح المعاني ٤٢/٦ .

* تعريف التكميل : هو أن يؤتى به في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه - انظر الإيضاح ٣١٠/١ وشروح التلخيص ٢٣١/٢ وشرح عقود الجمان ص ٧٤ ومعتزك الأقران ٣٦٩/١ وتقرير الشمس الإنبائي ٢٩٠/٣ وتجريد البناني ١٢١/٢ وتحرير التحبير ص ٢٥٧ وبغية الإيضاح ١٤٢/٢ ومعجم المصطلحات البلاغية ٢٤٠/٢ .

ومن روائع البلاغة القرآنية أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن في هذه الآية بالبرهان تارة وأخرى بالنور النير بنفسه المنور لغيره للإيدان « بأنه بين بنفسه مستغن في ثبوت حقيقته وكونه من عند الله تعالى بإعجازه غير محتاج إلى غيره مبين لغيره من الأمور المذكورة وللإشعار بهدايته للخلق وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وقد سلك به مسلك العطف المبني على تغاير الطرفين تنزيلاً للمغايرة العنوانية منزلة المغايرة الذاتية » . <١>

وقد جاءت جملة « وأنزلنا إليكم » معطوفة بالواو على جملة « قد جاءكم برهان من ربكم » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

وفي التعبير بقوله « فأما الذين آمنوا بالله » تفصيل لما دل عليه قوله « يا أيها الناس » من اختلاف الناس بين قابل للبرهان والنور ، وبين مكابر جاحد ، ويكون معادل هذا الشق وهم الذين كفروا محذوفاً للتهويل والإغلاظ عليهم أي وأما الذين كفروا فلا تسل عنهم . <٢>

والفاء في قوله « فأما الذين آمنوا » للتفريع ، وفي قوله « آمنوا بالله » إيجاز حيث لم يقل النظم القرآني « آمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر » وإنما اكتفى بذكر الإيمان لأن الإيمان بالله أمر كلي يشمل الإيمان بجميع هذه الجزئيات ، فهو من جوامع الكلم . وتعريف المسند إليه بالموصول في قوله الذين آمنوا للإشارة إلى تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو تقرير فوزهم برضا الله وهدايته لهم ، وللإشارة إلى تحقيق الإيمان لديهم ومضيههم فيه .

ولا يخفى ما في التعبير بالاعتصام في قوله « واعتصموا » من جمال وتصوير أسر حيث شبه التوثق بدين الله واللياذ به بالاعتصام بجامع شدة الرغبة

١ - تفسير أبي السعود ٨٢٦/١ .

٢ - راجع التحرير والتنوير ٦٢/٦ وما بعدها .

في النجاة في كل ثم اشتق من الاعتصام الفعل « اعتصموا » بمعنى توثقوا على سبيل الاستعارة التصريحة التبعية .

وفي هذه الصورة البيانية عمد القرآن إلى إبراز المعقول في صورة ملموسة محسة لزيادة الاعتناء بشأنه والاهتمام به .

والضمير في قوله « واعتصموا به » عائد إلى الله سبحانه لقربه وصحة المعنى ، ويحتمل أن يعود على القرآن الذي عبر عنه بالنور المبين . <١>

وعطف « اعتصموا به » على قوله « آمنوا بالله » من عطف الخاص على العام للتبويه بهذا الخاص ، فالإيمان بالله أعم من الاعتصام .

والوصل بين هاتين الجملتين « آمنوا بالله واعتصموا به » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود القرينة المصححة للوصل وهي اتحاد المتحدث عنهم في كلتا الجملتين .

وفي التعبير بقوله « فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » يبرز النظم رحمة الله بعباده وعظيم كرمه حيث ينعم عليهم بالدخول في جنته رحمة وتفضلاً . وكرماً ، ويكشف سياسة القرآن الحكيمة في استجاشة النفوس واستمالة القلوب إلى الإيمان بالله والاعتصام به ترغيباً فيهما لأنهما يوصلان المتمسك بهما إلى الفوز برحمة الله وجنته ، وبهداية الله التي تكون سبباً في دخوله الجنة . والفاء في قوله « فسيدخلهم » سببية أي فبسبب إيمانهم بالله واعتصامهم به يدخلهم في جنته رحمة منه سبحانه لا قضاء لحق واجب .

والسين في « سيدخلهم » تدل على قرب الوفاء بالعهد ، وتفيد « مع تحقيق الوعد الحث على المثابرة والمداومة على العمل إشارةً إلى عزة ما عنده سبحانه » . <٢>

١ - أنظر البحر المحيط ٤٠٥/٣ .

٢ - نظم الدرر ٥٢٧/٧ وما بعدها .

أما قوله « في رحمة منه » ففيه مجاز مرسل علاقته الحالية لأن الرحمة لا يُحلُّ فيها وإنما يُحلُّ في مكانها ، وهذا التعبير المجازي يدل على أن الرحمة محيطة بهم كإحاطة الظرف بمظروفه .

والجار والمجرور « منه » متعلق بمحذوف صفة مشرفة للرحمة . <١> أى في رحمة كائنة منه سبحانه وتعالى . وتنكير « رحمة وفضل » للتفخيم والتعظيم لهما .

ومن بدائع النظم القرآني التعبير بقوله « إليه » حيث كان مقتضى السياق أن يقول « ويهديهم صراطاً مستقيماً » بحذف « إليه » لأن المعنى تام بدونها لكن النظم الحكيم عبر بقوله « إليه » للإشارة إلى أن الهداية إلى الله وإلى طريقه المستقيم لا إلى طريق آخر ، ففي التعبير بقوله « إليه » تتميم * قصد به توكيد هذا المفهوم .

وانظر إلى جمال التصوير القرآني بقوله « صراطاً مستقيماً » فقد استعير الصراط لدين الله بجامع الوصول إلى بر النجاة في كل وجعل اللفظ الدال على المشبه وهو « دين الله » فرداً من أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه على سبيل الإستعارة التصريحية الأصلية .

وتنكير « صراطاً » للتفخيم والتعظيم ، ووصفه بقوله « مستقيماً » لزيادة تعظيمه .

وفي التعبير بقوله « مستقيماً » احتراس وتكميل لأن الصراط قد يكون ملتوياً ، ولدفع هذا التوهم جيء بهذا الوصف « مستقيماً » لتأكيد أن صراط الله مستقيم لا اعوجاج فيه . وقد عطف هذه الجملة « ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً »

١ - انظر تفسير أبي السعود ٨٢٧/١ : روح المعاني ٤٣/٦ .

* تعريف التتميم : هو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكته (انظر الإيضاح ، ٣١٣/١) : وشروح التلخيص ، ٢٣٥/٣ : شرح عقود الجمان ، ص ٧٤ : معترك الأقران ، ٣٦٩/١ : البرهان في علوم القرآن ، ٧٠/٣ : تقرير الشمس الإنبائي ، ٣١٩/٣ : تجريد البناني ، ١٢٢/٢ : بغية الإيضاح ، ١٤٥/٢ وما بعدها ؛ معجم المصطلحات ، ٢٧/٢ - ٣٣ .

بالواو على جملة « فسيدخلهم ... » . فبين الجملتين التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

ومما يلفت النظر في هذه الآية الكريمة أن البيان القرآني لم يلتزم بالترتيب الوقوعي بل قدّم ذكر الوعد بالجنة - فسيدخلهم في رحمة منه - على ذكر الوعد بالهداية إليها - ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً - للمسارعة إلى تعجيل المسرة إلى نفوسهم بالدخول في الجنة . <١> ولأن الغرض من الهداية الدخول في الرحمة فقدّم الغاية على الوسيلة لتعجيل المسرة لهم ولذلك جاء العطف بالواو أي إن الله عز وجل سيجمع لهم بين هذه المكرمات واللطفائف .

قال تعالى : ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضيع أجر

المصلحين ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الذين يتمسكون بالكتاب ويعتصمون بالله ويقىمون الصلاة ، وترغب المؤمنين في الاتحاد والاعتصام بالله ببيان ما لهؤلاء المتمسكين من أجر عظيم بقوله « إنا لا نضيع أجر المصلحين » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

لعل ارتباط هذه الآية الكريمة بما قبلها يستلزم علينا أن نتحدث بشيء من الإيجاز عن الآيات السابقة لأنها مرتبطة بهذه الآية ارتباطاً وثيقاً قال تعالى : « وقطعناهم في الأرض أمماً فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق

١ - راجع تفسير أبي السعود ٨٢٧/١ .

٢ - الأعراف : ١٧٠ .

الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون
أفلا تعقلون . « <١>

تحدث هاتان الآيتان الكريمتان عن بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وانقسامهم إلى طوائف مختلفة فكان منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، ثم إن العناية الإلهية ظلت تبليهم تارة بالنعماء وتارة بالبأساء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويثوبون إلى رشدهم ، ثم خلف من بعدهم خلف هم أسوأ حالاً منهم ورثوا الكتاب ودرسوه لكنهم لم يتكيفون به ولم تتأثر قلوبهم به ولم يعملوا به كلما رأوا عرضاً من أعراض الدنيا تهافتوا عليه ، ثم تأولوا وقالوا : سيغفر لنا ، وهكذا كلما عرض لهم آخر تهافتوا عليه من جديد ، ثم تنتقل الآيتان في استفهام تقريرى توبيخى « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه » ألم يؤخذ عليهم ميثاق من الله في الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق فما بالهم وهم يعلمون أن الله إنما يغفر للذين يتوبون حقاً ويقبلون عن المعصية فعلاً ، ثم تشير إلى سوء صنيعهم وتصميمهم على الجحود والإعراض بقوله « ودرسوا ما فيه » فهم درسوا الكتاب وعرفوا ما فيه ولم يلتزموا بأحكامه بل حرفوا الكلم عن مواضعه ، ثم تنبههم إلى أن الدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون .

وهذه الآية مرتبطة بهاتين الآيتين ، وسياق الآيات فيه إشارة إلى جرائم بني إسرائيل وسوء أعمالهم ، وتفككهم وضياعهم وعدم ثقتهم بالله ، ثم تأتي هذه الآية خاتمة لهذا السياق القرآني « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ... » ففيها تعريض بهؤلاء الذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ثم لم يتمسكوا بهذا الكتاب الذي درسوه ، ولا يعملون به ، ولا يحكمونه في حياتهم وسلوكهم ، وفيها بشارة لمن لم يعملوا عمل هؤلاء ، وهم الآخذون بميثاق الكتاب بأن الله لا يضيع أجرهم لأنهم مصلحون . <٢>

١ - الأعراف : ١٦٨ - ١٦٩ .

٢ - راجع في ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٢٨٦ - ١٢٨٨ بتصريف والتحرير والتنوير ١٦٤/٩ .

ولنعد إلى الآية - بعد هذا العرض الموجز - نستجلي لطائفها وصورها
البيانية :

وأول ما يلفت أنظارنا التعبير بالموصول للإشارة إلى زيادة تقرير الغرض
المسوق له الكلام وهو تقرير أنهم مصلحون لتمسكهم بالكتاب وإقامتهم للصلاة ،
بالإضافة إلى ما فيه من التنويه بالاعتصام والاستمساك بهدي كتاب الله القويم .

وفي التعبير بقوله « يمسون » إستعارة تبعية شبه الدعوة إلى العمل
بالكتاب بالتمسك - الاعتصام - بالأسباب الموصلة إلى غاياتها النبيلة ثم اشتق من
التمسك الفعل « يمسون » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

والتعبير بالمضارع « يمسون » لاستحضار الصورة حتى لكأنها شاخصة
للعيان وللدلالة على أن تمسكهم بالكتاب يتجدد في كل الأحوال . ^(١) والتضعيف
في الفعل « يمسون » دال على كثرة الفعل وتكراره .

ثم إن هذه الصيغة اللفظية « يمسون » تصور مدلولاً يكاد يحس ويرى ،
فهو يرسم صورة التمسك بالكتاب والقبض عليه بقوة وجد وصرامة ، هذه الصورة
هي التي يحب الله تعالى أن يوخز بها كتابه وما فيه من غير تعنت ولا تنطع ولا
تزمت . ^(٢)

ويومض التعبير بحرف الملابس والإلصاق « الباء » في قوله « يمسون
بالكتاب » بشدة تمسكهم بالكتاب والتصاقهم به ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال
« يمسون الكتاب » بإسقاط الباء لكن القرآن أثر التعبير بحرف الباء لأنها تهمس
بشدة ارتباطهم بالكتاب والتصاقهم به ورغبتهم الشديدة فيه .

١ - انظر نظم الدرر ١٤٩/٨ .

٢ - انظر في ظلال القرآن المجلد الثالث ص ١٣٨٨ .

كما أن التعبير بقوله « يمسكون بالكتاب » يشير إلى أنهم يتمسكون هم بالكتاب ويمسكون غيرهم ، فهم صالحون ويصلحون غيرهم ويدعون إلى الصلاح .
وتعريف « الكتاب » بآل إما للجنس فيشمل جميع الكتب السماوية ، وإما للعهد فيكون المراد به القرآن الكريم .

ومن روائع البلاغة ما في هذا النظم القرآني من اختلاف في الصياغة فقد عبر عن التمسك بالكتاب بالمضارع « يمسكون بالكتاب » ، وعن إقامة الصلاة بالفعل الماضي « أقاموا الصلاة » ، للدلالة على أن تمسكهم بالكتاب متجدد مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها ^١ ولذلك اختلفت الصياغة .

ولعل السر في التعبير بالماضي « أقاموا الصلاة » ولم يقل « يقيمون الصلاة » للتنبيه على أن هذا عمل - أي هم أقاموا الصلاة بالفعل - وما قبله قول .
وتخصيص إقامة الصلاة بالذكر من بين سائر الطاعات مع أنها مندرجة في التمسك والاعتصام بالكتاب لأنها « أعظم العبادات بعد الإيمان - لأنها عماد الدين - للتنبيه على فضلها حتى لكأنها ليست من جنس التمسك به تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات » . ^٢

وعطف « أقاموا الصلاة » على التمسك بالكتاب من عطف الخاص على العام لزيادة العناية بهذا الخاص والتنويه به .

والوصل بالواو بين جملة « يمسكون بالكتاب » وجملة « وأقاموا الصلاة » لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

١ - انظر تفسير أبي السعود ٤٢٧/٢ وراجع روح المعاني ٩٨/٩ .

٢ - حاشية زاده ٢٨١/٢ .

وجملة « إنا لانضيع أجر المصلحين » خبر المبتدأ « الذين » والرابط بينهما إما الضمير المحذوف أي : لانضيع أجر المصلحين منهم ، وإما العموم في المصلحين ، وإما بإعادة المبتدأ بمعناه أي إن المصلحين هم الذين يمسون بالكتاب . <١>

وفي وضع الظاهر موضع المضمرة في قوله « إنا لا نضيع أجر المصلحين » بناءً على أن الأصل « لانضيع أجرهم » غير أن البيان وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أنه تعالى لا يضيع أجرهم لأجل صلاحهم . <٢> وللدلالة على أن هذه سنة الله في خلقه أنه لا يضيع فقط أجرهم وإنما لا يضيع أجر المصلحين عموماً .

وتوكيد الخبر بإن في قوله « إنا لا نضيع أجر المصلحين » لكونه حقيقة عظيمة ، ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبر عنها بأسلوب عظيم مثلها ، فالقرآن الكريم لا يخاطب بهذه الآية جهة معينة فنقول إنها منكورة أو مترددة ، لكن هذا هو شأن القرآن الكريم في إثبات الحقائق العظيمة .

١ - أنظر البيان في إعراب غريب القرآن ٢٧٩/١ وإملاء ما من به الرحمن بهامش الفتوحات الإلهية ٧٨/٣ وما بعدها والبحر المحيط ٤١٨/٤ وتفسير أبي السعود ٤٢٧/٢ وإعراب القرآن وبيانه ٤٨٨/٩ .

٢ - انظر حاشية زاده ٢٨١/٢ .

الفصل الثاني

المبحث الثاني

الترهيب من التفريق واتباع السبل
في القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترهيب من التفرق واتباع السبل

الترغيب في أمر يتضمن الترهيب من ضده ، فكان مقتضى الظاهر أن يكتفى بأحدهما لأنهما من الأضداد ، ولكن البيان القرآني المعجز جمع بينهما فرغب في الاعتصام والاتحاد ورهب من التفرق والاختلاف ، ولم يكتف بدلالات التضمن التي تستلزم أن يكون المخاطب على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وهذا هو المنهج الأمثل في الدعوة إلى الله ، لأن الاكتفاء بالترغيب قائم على ذكر المحاسن والاكتفاء بالترهيب قائم على ذكر المساويء ، والدعوة إنما تبلغ مبلغ الوفاء إذا رغبت فحسنت ، ورهبت فقبحت ، ولأن المخاطبين ليسوا على درجة واحدة من ملكات الفهم والادراك .

في إطار هذا المنهج الحكيم جرى حديث القرآن ف الترهيب من التفرق والانفصام واتباع السبل المتفرقة ، وجلى مساوئه ، ونفر منه ، وكشف قبائحه بذكر آثاره المدمرة لحياة الناس جماعات وأفراداً . فحذر المؤمنين من اتباع الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات من اليهود والنصارى وغيرهم .

كما حذر من التنازع والشقاق معتمداً على التصوير البياني ليكشف لهم قبحه ويزيد في تنفيرهم عنه ، لأن التنازع يثمر الفشل ، والفشل يذهب القوة ويوهنها ، وذهب القوة أوسع أبواب الهوان والضياع .

في الصفحات التالية سيكون حديثنا بإذن الله عن الترهيب من التفرق واتباع السبل من خلال إزجاء بعض النماذج وتحليلها بلاغياً لنرى كيف رهب البيان القرآني من التفرق والشقاق ؟

قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات

وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآية الكريمة ينهى الله المؤمنين من التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلفهم وتنازعهم مبيناً لهم أن لهؤلاء الضالين الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات عذاباً عظيماً .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يرهب الله سبحانه وتعالى من التفرق والاختلاف ويحذر المؤمنين من التشبه بالضالين من اليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات حيث توعدهم بالعذاب العظيم .

ونسق الآية الكريمة مبني على التشبيه السلبي ، وذلك بتحذير المؤمنين من التشبه بالضالين من اليهود والنصارى في تفرقهم واختلفهم .

ووجه الشبه هو تحذير المؤمنين من التشبه بأهل الكتاب في التفرق والاختلاف ، وهو تشبيه مرسل لوجود الأداة الكاف ، وتشبيه مفصل لأن وجه الشبه مذكور .

أما غرض التشبيه فهو تقبيح تفرق المؤمنين إذا تشبهوا بأهل الكتاب في تفرقهم . <٢> ولعل ارتباط هذه الآية بما قبلها يهدينا إلى سر بناء التشبيه وكيف تدرج وتسلسل حتى جاء على هذه الصورة الرائعة .

وهذه السورة من السور المدنية ، وقد شرع الله في هذه السور لعباده أحكام العبادات والمعاملات ، ونظم فيها حياة المجتمع المسلم وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى ، لذلك ناسب أن يحذر في هذه السورة المؤمنين من التشبه بأهل الكتاب .

١ - آل عمران : ١٠٥ .

٢ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٩٩ .

وقد وقع هذا التشبيه في سياق قوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...» ^{<١>} ، حيث أمر الله فيها المسلمين بالاعتصام والتمسك بحبله ، ونهاهم عن التفرق والاختلاف فكان مناسباً لهم أن يؤكد لهم هذا الأمر بتقبيح التفرق إذا صاروا إليه ، وتحذيرهم منه .

وقد توسط هاتين الآيتين - أعنى آية الأمر بالاعتصام ، وآية التحذير من التفرق - قوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . » ^{<٢>}

« ووجه ارتباط هذه الآية بما قبلها أنه تعالى أمر هذه الأمة بأن يكونوا أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر وذلك لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغلبين ، ولاتحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين ، فلا جرم حذرهم من التفرق والاختلاف لكيلا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ^{<٣>} » أو أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف إذ تكثر النزغات والنزاعات وتنشق الأمة انشاقاقاً عظيماً ^{<٤>} ، فهذه الآية تؤكد للاعتصام بحبل الله . ^{<٥>}

والمراد بالموصول « الذين » أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما ذكر المفسرون . ^{<٦>}

وتعريف المسند اليه بالموصول « الذين » لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو أن الذين تفرقوا واختلفوا لهم عذاب عظيم لتحذير المؤمنين من التشبه

١ - آل عمران : ١٠٣ .

٢ - آل عمران : ١٠٤ .

٣ - حاشية زادة ، ٦٥٨/١ : راجع غرائب القرآن و رغائب الفرقان بهامش تفسير الطبري ، ٣٤/٤ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ، ٤٢/٤ .

٥ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٩٩ .

٦ - انظر تفسير الطبري ، ٢٦/٤ : غرائب القرآن ، ٣٤/٤ : الكشاف ، ٤٥٣/١ .

بهم ، ولذلك لم يقل النظم « ولا تكونوا كأهل الكتاب » وإنما قال « ولا تكونوا كالذين .. » فأبهم اسم الموصول إما للإشارة إلى اشتغاره بين المسلمين لأن تفرقهم واختلافهم أمر ظاهر يعلمه جميع المسلمين ، وإما لتحذير هذه الأمة من جميع الطوائف المتفرقة المتنازعة في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقيل إن المراد بالذين تفرقوا واختلفوا « الذين اختلفوا في أصول الدين من اليهود والنصارى من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والتفرق ، وقيل هم مبتدعو هذه الأمة من المشبهة والمجبرة والحشوية وغيرهم . <١>

ولا مانع عندي من أن يكون المراد به عموم المتفرقين المختلفين سواء كانوا من الأمم السابقة أو من هذه الأمة لأن المنهي عنه إنما هو الاختلاف في الأصول دون الفروع كما ذكر أبو السعود . <٢>

واختلف المفسرون في معنى التفرق والاختلاف « فقال بعضهم مؤداهما واحد والتكرير للتأكيد ، وقيل معناهما مختلف : تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين ، أو تفرقوا بسبب التأويلات الفاسدة للنصوص واختلفوا بأن حاول كل منهم نصره قوله ، أو تفرقوا بأبدانهم بأن صار كل واحد من الأخبار رئيساً في بلد واختلفوا بأن صار كل منهم يدعي أنه على الحق وصاحبه على الباطل . <٣>

ولاشك أن بين اللفظين اختلافاً في الدلالة ، فالاختلاف أخص من التفرق ، لأن الاختلاف سبب في التفرق .

١ - انظر تفسير الطبري ، ٢٦/٤ ؛ الكشاف ، ٤٥٣/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٢٠/١ ؛ روح المعاني ،

٢٣/٤ ؛ التحرير والتنوير ، ٤٣/٤ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٥٢٠/١ .

٣ - غرائب القرآن ، ٢٤/٤ ؛ راجع تفسير أبي السعود ، ٥٢٠/١ ؛ حاشية زادة ، ٦٥٨/١٥ .

وتقديم التفرق على الاختلاف فى قوله تفرقوا واختلفوا « تقديم للغاية على الوسيلة » فالاختلاف وسيلة توصل إلى التفرق .

ولما ذمهم بالاختلاف الذى دل العقل على ذمه زاد فى تقبيحه بأنهم تفرقوا واختلفوا بعد أن جاءتهم البيئات والدلائل القاطعة التي تعصمهم من الوقوع فى الاختلاف حيث قال « من بعد ما جاءهم البيئات » .

ومن فى قوله « من بعد ما جاءهم البيئات » إبتدائية أى « ابتداءً اختلافهم من الزمان الذى هو من بعد ما جاءهم البيئات » . <١>

وفى إسناد المجيء إلى البيئات فى قوله « جاءهم البيئات » مجاز عقلي علاقته المفعولية .

وأثر النظم القرآني التعبير بصيغة الجمع « البيئات » ولم يقل « بينه » للدلالة على كثرة البيئات المنزلة إليهم من الله ، فهذه الصيغة تكشف شدة إعراضهم عن إتباع الرسل الذين جاءهم بالبيئات وعدم انتفاعهم بها ، وتصميمهم على الضلالة والاختلاف .

والتعبير باسم الإشارة البعيد « أولئك » للدلالة على بعد منزلتهم فى الفساد وتنزيراً لبعده المنزلة بعد المكان .

وتنكير « عذاب عظيم » للتفطيع والتهويل ووصفه بعظيم لزيادة التهويل والتعظيم لشأنه .

وتقديم الجار والمجرور « لهم » على قوله « عذاب عظيم » لإفادة القصر أى عذاب عظيم لهم لاغيرهم .

وهذا القصر إما أن يكون قصراً حقيقياً تنزلياً إذا كان المراد بالعذاب الخلود فيه ، وإما أن يكون قصراً إضافياً إذا كان المراد بالعذاب مجرد التفطيع

لا الخلود فيه لأن غيرهم معذب مثلهم وذلك بتنزيل عذاب غيرهم منزلة العدم بالنسبة للمتحدث عنهم .

ومن المواضع التي يجب فيها فصل الجمل بعضها عن بعض كما قرر علماء البلاغة ما يعرف بكمال الانقطاع وذلك إذا اختلفت الجملتان في الإنشائية والخبرية لفظاً ومعنى ، وقد كان مقتضى الظاهر فى هذا النظم القرآني أن يقال « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا أولئك لهم عذاب عظيم » بحذف الواو لأن جملة « ولا تكونوا كالذين تفرقوا » إنشائية لفظاً ومعنى ، وجملة « أولئك لهم عذاب عظيم » خبرية لفظاً ومعنى ، ولذلك يجب الفصل بينهما لا الوصل ، كما قرر البلاغيون ، لكن القرآن فى هذه الآية جاء على خلاف ذلك - لأن القرآن فوق القاعدة - حيث جاء بالواو على الرغم من اختلافهما فى الإنشائية والخبرية لفظاً ومعنى بقوله « ولا تكونوا كالذين تفرقوا وأولئك لهم عذاب عظيم » لذلك أرى أن الواو للحال أى حال كون أولئك لهم عذاب عظيم ، أو أنها إستئنافية .

وقد وقعت هذه الجملة تذييلاً لتأكيد مضمون ما قبلها ، وفيها تعريض بالمسلمين المتفرقين ووعيد وتهديد لهم بالعذاب العظيم بحيث لا يخفى .^(١)

١ - راجع تفسير أبي السعود ، ١/٥٢٠ : روح المعاني ، ٤/٢٢ : أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٠٠ .

وقال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق

بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

يرغب الله عباده في إتباع شرعه وطريقه المستقيم ويأمرهم به ، ويحذرهم من إتباع طرق الضلالة وسبل البغي والفساد لأنها تفرقهم عن سبيله ، ويوغلوا في الضلال .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

اختلف القراء في قراءة « وأن هذا صراطي » فقرأ بعضهم بفتح همزة أن ، وقرأ بعضهم بكسرها <٢> . ، وبناء على ذلك تعددت آراء النحاة والمفسرين في توجيه هاتين القراءتين .

فقراءة الفتح إما على أنها في موضع نصب بفعل مضمر تقديره ، وأتل عليكم أن هذا صراطي مستقيماً ، أو على أنها في محل جر بحذف لام العلة : أي ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه نحو قوله تعالى « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » <٣> ، أي ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . أما قراءة الكسر فعلى أن الجملة مستأنفة . <٤>

ومن روائع النظم القرآني التعبير باسم الإشارة الموضوع للقريب « هذا » وما فيه من معنى القرب يشير إلى أن القرآن المراد اتباعه لا بد أن يكون قريباً من المهدي ، ولذلك اقتضت بلاغة القرآن التعبير باسم الإشارة القريب لأن من

١ - الأنعام : ١٥٣ .

٢ - انظر كتاب السبعة في القراءات ، ص ٢٧٣ .

٣ - الجن : ١٨ .

٤ - انظر البيان في إعراب غريب القرآن ، ٣٤٩/١ : البحر المحيط والنهر الماد من البحر المحيط ، ٢٥٣/٤

وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٣٠٥/٢ : التحرير والتنوير ، ١٧١/٨ وما بعدها .

كمال الدليل أن يكون قريباً منهم ، ففيه إيماء إلى أنه قريب من المخاطبين يشار إليه كما يشار إلى القريب .

والصراط : هو الطريق الحسي الذي يسير فيه الناس ، ففي هذا التعبير إستعارة تصريحية أصلية شبه منهج الله وشرعه أو دينه بالصراط - الطريق الحسي - بجامع الوصول إلى بر النجاة في كل ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه وجعل اللفظ الدال على المشبه فرداً من أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه .

والمغزى البلاغي لهذه الاستعارة هو إبراز المعقول في صورة المحسوس لزيادة الاعتناء بشأنه حتى لكأنه يلمس ويرى .

وياء المتكلم في « صراطي » إما أن تعود على الله ، وإما على الرسول ﷺ ، فإضافة الصراط إلى الله من حيث الوضع أي صراطه هو لاصراط غيره ، وإضافته إلى الرسول من حيث السلوك والعمل أي هذا الصراط الذي أسلكه وأدعو إليه . <١> و « مستقيماً » منصوب على الحال المؤكد من « صراطي » . <٢>

ولما شبه الإسلام بالصراط وجعل كالشيء المشاهد صار كالطريق الواضحة البينة جاء بقوله « مستقيماً » أي هو مستقيم لا اعوجاج فيه ، لأن الصراط المستقيم أيسر سلوكاً على السائر وأسرع وصولاً . <٣>

ففي التعبير بقوله « مستقيماً » تكميل واحتراس ، لأن المستقيم وغير المستقيم يوصلان إلى المطلوب بيد أن غير المستقيم يستغرق السير فيه زمناً طويلاً ويلقى فيه السائر زيادة عناء ومشقة ، ولذلك جيء بكلمة « مستقيماً » لدفع طول الزمن وكثرة المشقة ، ولدفع كونه ملتويماً بأنه مستقيم لا اعوجاج فيه .

١ - انظر روح المعاني ، ٥٦/٨ وما بعدها .

٢ - انظر البيان في إعراب غريب القرآن ، ٣٤٩/١ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٢٧٨/٨ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٢/٨ .

وقد حرص الله عز وجل في كتابه على وصف الصراط - إذا كان المراد به دينه وشرعه - بالاستقامة دائماً . <١>

ومعنى « فاتبعوه » أي سيروا فيه ، ففي هذا التعبير إستعارة مكنية حيث شبه الصراط بإمام يقتدي به أتباعه ثم حذف المشبه به ورمزله بشيء من لوازمه وخواصه وهو الاتباع في قوله « فاتبعوه » ، وهذا ما أطلق عليه علماء البلاغة المتأخرون بالمجاز على المجاز حيث شبه شرع الله بالصراط أولاً ، ثم عاد فشبه الصراط بإمام على سبيل الاستعارة المكنية وفيها ترشيح كل منها للآخر .

ولعل الحكمة في إثارة القرآن التعبير بقوله « فاتبعوه » على قولنا « فسيروا فيه » للدلالة على رغبة الشارع في اتباع شرعه والاهتداء بهدي كتابه القويم ، وتطبيقه في حياة الناس سلوكاً وعملاً ، كما أن فيه إشارة إلى انقيادهم التام لشرع الله كما ينقاد العبد لسيدته .

أما النهي في قوله « ولا تتبعوا السبل » فهو لتأكيد الأمر السابق ، وللتحذير من اتباع طرق الضلالة والفساد أي لا تتبعوا الأديان المختلفة أو طرق البدع والضلالات . <٢>

والمراد بالسبل : الطرق ، وفي قوله « لا تتبعوا السبل » إيجار بالحذف تقديره : ولا تتبعوا السبل المختلفة حيث حذفت الصفة .

والوصل بالواو بين جملة « فاتبعوه » وبين جملة « ولا تتبعوا السبل » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الإنشائية لفظاً ومعنى .

والفاء في قوله « فتفرق بكم » تفريعية على النهي عن اتباع السبل ، ومعنى « فتفرق بكم » فتضلوا ، وعلى هذا ففيه إستعارة مكنية وذلك بتشبيه السبل

١ - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٤٠٧ .

٢ - انظر الكشاف ، ٦٢/٢ : تفسير أبي السعود ، ٣٠٥/٢ .

بأئمة الضلال ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الاتباع في قوله « ولا تتبعوا » على سبيل الاستعارة المكنية .

وانظر إلى الباء في قوله « فتفرق بكم عن سبيله » وكيف نشرت على سياقها من معاني الإلصاق والمصاحبة ما لا يمكن أن تؤديه تعدية الفعل « تفرق » بنفسه ، إذ لوقيل : تفرقكم السبل « كان » المعنى أن السبل تضل السالكين وتبعدهم عن سبيل الله ، وليس فيه كما هو مع الباء أن السبل في ذاتها متفرقة ضالة ، لالتقي على وجه من الحق ، والسالك لها سيظل حائراً تتنازعه الأهواء وتلعب به رياح الضلال ، كل يحاول أن يشده إليه ويمسك به ويستذله ويستعبده وهو منزوع الإرادة ، عاجز عن قيادة نفسه ، وإلى مثل هذه النكته ألمح الألويسي فقال « والباء للتعدية أي تفرقكم حسب تفرقها أيادي سباً ، فهو كما ترى أبلغ من تفرقكم كما قيل من أن ذهب به لما فيه من الدلالة على الاستصحاب أبلغ من أذهبه » . <١> ولا يخفى ما في قوله « فتفرق بكم » من كناية عن الضلال .

وفى التعبير بقوله سبيله « التفات حيث انتقل من التكلم في قوله « صراطي » إلى الغيبة في سبيله ولم يقل « سبيلي » ولعل السر في ذلك للإشارة إلى أنهم لما اتبعوا سبيل غير الله واتبعوا السبل المتفرقة غاب عنهم الله بألطافه وتأييده فأوغلوا في الغواية والضلال والإشارة بقوله « ذلكم » إشارة إلى اتباع السبيل وترك سائر السبل <٢> . وزيادة الميم : للتفخيم والتعظيم ، وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو المشار إليه وبعد منزلته الرفيعة .

ويلاحظ ما في التعبير بقوله « وصاكم به » من إيجاز بالحذف حيث حذف الفاعل للعلم به أي وصاكم الله به ، والوصاية به معناه الوصاية بما يحتوي عليه . <٣> والتعبير بالمضارع « تتقون » للإشارة إلى تجدد التقوى حالاً فحلاً .

١ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ١٧٦ وما بعدها ؛ راجع روح المعاني ، ٥٧/٨ ؛ هذا النص الذي أثبتته الباحث للألويسي هو في حقيقته لأبي السعود وقد نقله الألويسي حرفياً بلا زيادة أو نقصان ؛ انظر تفسير أبي السعود ، ٢٠٥/٢ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٠٥/٢ ؛ راجع روح المعاني ، ٥٧/٨ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٤/٨ .

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بفاصلة مناسبة لسياقها بقوله « لعلمكم تتقون » فلما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وأمر تعالى باتباعه ونهى عن بنيات الطريق * ختم ذلك بالتقوى التي هي إتقاء النار إذمن اتبع صراطه نجاه النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية . <١>

وقال تعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآية الكريمة يأمر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وبينها هم عن التنازع محذراً لهم من التنازع والاختلاف لأنه يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح ، ويأمرهم بالصبر على الشدائد مبيناً لهم فضله « واصبروا إن الله مع الصابرين » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يرغب الله في هذه الآية عباده في طاعته وطاعة رسوله ويهرب من التنازع والتفرق لأن في التنازع ذهاباً لقوتهم وكسراً لشوكتهم ، حيث يأمرهم سبحانه بالطاعة له ولرسوله الكريم وبيناهم عن التنازع والاختلاف .

والأمر بقوله « أطيعوا الله ورسوله » للدوام والاستمرار لأن الخطاب في هذه الآية موجه للمؤمنين فهم مؤمنون طائعون ، فالأمر يفيد الدوام أي داوموا على الطاعة لله ولرسوله . وتقديم طاعة الله على طاعة الرسول ﷺ إما للفضل أو السبق لأن طاعة الرسول منبثقة عن طاعة الله .

* المقصود ببنيات الطريق : الطرق المتشعبة .

١ - البحر المحيط ، ٢٥٤/٤ ، راجع النهر الماد ، ٢٥٤/٤ ، روح المعاني ، ٥٧/٨ .

٢ - الأنفال : ٤٦ .

ومعنى : التنازع : المخاصمة والاختلاف <١> ، والنهي عن التنازع بقوله « لاتتنازعوا » يقتضى الأمر بتحصيل أسباب ذلك إما بالتفاهم والتشاور ومراجعة بعضهم بعضاً حتي يصدروا عن رأي واحد لكيلا يختلفوا فيه ، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أولي الأمر <٢> ، لقوله تعالى « ولوردوه إلى الرسول وإلى الأمر منهم » <٣> وقوله تعالى « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول » . <٤>

والوصل بالواو بين جملة « وأطيعوا الله ورسوله » وجملة « ولاتتنازعوا ... » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الإنشائية لفظاً ومعنى مع وجود الجهة المصححة للوصل . والفاء في قوله « فتفشلوا » سببيه لأن النزاع سبب في الفشل .

ومعنى الفشل : الجبن والضعف وانحطاط القوة <٥> ، فمعنى « تفشلوا » تضعفوا ، وعلى هذا ففي التعبير بقوله « تفشلوا » إستعارة تمثيلية بتشبيهه « حال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه في انعدام إقدامه على العمل <٦> ويحتمل أيضا أن يكون في قوله « تفشلوا » مجاز مرسل بإطلاق المسبب وإرادة السبب وهو الضعف .

وعلى التنازع ترتب الفشل في آية آل عمران « حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون <٧> فالتنازع هو تفتيت القوى ، والضعف ، وهذا الضعف ترتب عليه خيبة الآمال والهوان المشار إليه بذهاب الريح .

١ - انظر المفردات ، ص ٤٨٨ : اللسان ، ٤٣٩٦/٦ مادة « نزع » .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٣٠/١٠ .

٣ - النساء : ٨٢ .

٤ - النساء : ٥٩ .

٥ - انظر المفردات ، ص ٢٨٠ : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٢٣٢/٢ .

٦ - التحرير والتنوير ، ٣١/١٠ .

٧ - آل عمران : ١٥٢ .

ومن روائع البلاغة في القرآن عطف جملة « وتذهب ريحكم » على قوله فتفشلوا بالواو دون سائر حروف العطف الأخرى للإشارة إلى أن النزاع سبب في الفشل وذهاب الريح ولذلك أثر القرآن العطف بالواو ليجمع لهم بين هذين الأمرين .

وإلى مثل هذا القول أشار الطاهر ابن عاشور بقوله « ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء ، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره ، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله « فتفشلوا وتذهب ريحكم » فحذرهم أمرين معلوماً سوء مغبتهما وهما الفشل وذهاب الريح » . <١>

وفي قوله « ريحكم » إستعارة تصريحية أصلية حيث شبهت قوتهم وعزتهم في نفوذ أمرهم بالريح <١> ، ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه وجعل اللفظ الدال على المشبه فرداً من أفراد المشبه وداخلاً في جنسه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . وفي هذه الاستعارة تصوير وتجسيد للمعقول في صورة ملموسة محسنة .

وفي التعبير بقوله « وتذهب ريحكم » إما مجاز عقلي علاقة المفعولية حيث أسند الذهاب إلي الريح ، وإما إستعارة مكنية شبه الريح بذي إرادة ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه ، وخواصه وهو الذهاب في قوله « وتذهب » على سبيل الاستعارة المكنية .

وكلا التوجيهين مستساغ بلاغياً إلا أنني أميل إلى الاستعارة المكنية لأنتني أجد لها في هذا السياق حسناً وجمالاً لا يخفى على من رزق حساً مرهفاً .

ففي هذه الآية تحذير وترهيب من التفرق والتنازع لأنه سبب في الفشل وذهاب القوة ، فالتنازع يؤدي إلى التفرق وبالتالي يوهن أمر الأمة ويضعف شوكتها . ثم تختم الآية بالأمر بالصبر بقوله « واصبروا إن الله مع الصابرين » .

والصبر هو تحمل المصاعب والشدائد أى اصبروا على شدائد الحرب <١> وتأكيد الخبر بأن لكونه حقيقة عظيمة .

والمراد بالمعية فى قوله « مع الصابرين » النصر والتأييد وليس المراد بها المعية الحسية بإجماع العلماء من السلف والخلف <٢> من ذلك ما قاله أبو السعود « ومعيته تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة . <٣> وإبراز المعية وهي معنوية في صورة المحسوس للعناية بها وتقرير معناها .

وتأمل روعة التعبير القرآني بقوله « مع الصابرين » ولم يقل « مع الذين صبروا » ليشير إلى ثبوت المؤمنين على الصبر ودوامهم عليه بأن صار الصبر سجية فيهم وفطرة فطروا عليها ، وديدهم المستمر ، وللإشارة إلى أن معيته دائمة للصابرين في كل زمان ، فالتعبير بالجملة الإسمية أدل على مدح المؤمنين من التعبير بالجملة الفعلية .

وقد جاءت هذه الجملة « اصبروا إن الله مع الصابرين » تذييلاً مقررراً لمضمون ما قبله وهو تذييل جار مجرى المثل <٤> ، ولا يخفى ما فيها من جناس الاشتقاق بين « اصبروا » والصابرين .

١ - انظر الكشاف ، ١٦٢/٢ ، البحر المحيط ، ٥٠٢/٤ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٩٣/٢ ؛ حاشية الشهاب ، ٢٨٠/٤ ؛ التحرير والتنوير ، ٣١/١٠ .

٢ - انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ، ٢٣١/٥ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٩٣/٢ ؛ تفسير البيضاوي ؛ حاشية الشهاب ، ٢٨٠/٤ ؛ روح المعاني ، ١٤/١٠ ؛ المجاز في اللغة والقرآن الكريم ، للدكتور عبدالعظيم المطعني ، ٨٢٠/٢ وما بعدها ، وقد نص على ذلك ابن تيمية بقوله « أما القسم الرابع فهو مذهب سلف الأمة وأئمتها أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة فإنهم أثبتوا وأمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة من غير تحريف للكلم ، وأثبتوا أن الله تعالى فوق سمواته وأنه على عرشه بائن من خلقه وهم بائون منه ، وهو أيضاً مع العباد بعلمه ، ومع أنبيائه بالنصر والتأييد والكفاية ... » ؛ مجموع الفتاوى ، ٢٣١/٥ ؛ نقلاً عن المجاز في اللغة والقرآن ، ص ٨٢١ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٤٩٣/٢ .

٤ - تعريف التذييل : هو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد ، وهو ضربان : الأول : ضرب لا يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله ، الثاني : ضرب =

وقد عطفت هذه الجملة « وأصبروا إن الله مع الصابرين » على جملة
ولاتنازعوا « بالواو لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الإنشائية
لفظاً ومعنى .

= جار مجرى المثل وذلك بأن يقصد به حكم كلي منفصل عما قبله جار مجرى المثل في الاستقلال وفشو
الاستعمال : انظر الإيضاح ، ٣٠٧/١ - ٣٠٩ : شرح التلخيص ٢/٢٢٥ - ٢٢٧ : شرح عقود
الجمان ، ص ٧٤ : معترك القرآن ، ٣٦٨/١ : الطراز ، ٣/١١١ - ١١٢ : تحرير التحيير ، ص ٣٨٧ -
٣٩٢ : خزانة الأدب ، ١/٢٤٢ - ٢٤٥ : معجم المصطلحات البلاغية ، ٣/١٢٢ وما بعدها .

الفصل الثالث

الترغيب في الجهاد في سبيل الله
والترهيب من التناقل عنه

المبحث الأول

الترغيب في الجهاد في سبيل الله
في القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترغيب في الجهاد في سبيل الله

حث القرآن الكريم المؤمنين على الجهاد لإعلاء كلمة الله ورجبهم فيه بيان مالهم من الأجر والثواب العظيم عند الله تعالى .

والقرآن يعترف بأن الجهاد فريضة ثقيلة على النفوس لا تتقبله في يسر ولا تنقاد إليه في سهولة ، فهو يعلم ما لغريزة حب الذات من أثر قوي في حياة الإنسان وتوجيه أفعاله ، ولذلك تحدث في صراحة محدداً موقف النفس الإنسانية من هذه الفريضة الشاقة ، التي يعرض المرء فيها حياته لخطر الموت وقد طبعت النفوس على بغضه وكراهيته « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... » وإذا كانت النفس الإنسانية تجد الجهاد فريضة شاقة فقد جمع القرآن حولها من المغريات ما يدفع إلى قبولها قبولاً حسناً وإلى حبها والرغبة فيها .

وإذا كان أول ما يثني المرء عن الجهاد هو حبه للحياة فقد أكد القرآن أن هذا الذي يقتل في سبيل الله حي يرزق وإن كنا لا نشعر بحياته ولا نحس بها .

ويمضي القرآن يبين عدم استواء المجاهدين والقاعدين عن الجهاد في الأجر والثواب فقد فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وأعد لهم مغفرة ورحمة خيراً مما يتكالب الناس على جمعه من حطام الدنيا وهياً لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .

ويمثلهم وأعداءهم معسكرين أحدهما ينصر الله وثانيهما ينصر الشيطان ، أحدهما يدافع عن الحق وثانيهما يدافع عن الباطل والغواية ، والدفاع عن الحق من عمل الإنسان الكامل ، أما الباطل فلا يلبث أن ينهار في سرعة لأنه هش

ضعيف <١> « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل
الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

ولم يدع القرآن باباً من أبواب تقوية الجهاد في نفوس المؤمنين إلا طرقه
معتمداً في ذلك على التعبير البياني والتصوير البلاغي الأسر .

ومن الصعوبة بمكان أن نتناول جميع النصوص والآيات القرآنية التي
ترغب في الجهاد في سبيل الله وإنما نكتفي ببعض النماذج وتحليلها بلاغياً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴿ . <١>

المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن في هذه الآيات الكريمات - تكريماً للشهداء ببيان ما لهم من حياة دائمة لا تنقطع وفرح وسرور بنعم الله وفضله عليهم - أن هؤلاء الشهداء الذين قتلوا في سبيله ليسوا بأموات بل أحياء عند ربهم يرزقون كما يرزق الأحياء ، وأنهم « فرحين بما آتاهم الله من فضله » حيث يستقبلون رزق الله بالفرح والسرور لإدراكهم أنه « من فضله » عليهم ، فهو دليل رضاه عليهم ، ويقرر أنهم أحياء لم ينفصلوا عن إخوانهم ولم تنقطع صلاتهم بهم « يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وفوق ذلك كله « يستبشرون بنعمة من الله وفضل » فهو سبحانه لا يضيع أجر المؤمنين .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

دعا القرآن المؤمنين إلى الجهاد وحثهم عليه ورغبهم فيه ، ولم يدع باباً لتقوية داعي الجهاد في نفوسهم وتحبيبه إليهم إلا طرقه ترغيباً لهم فيه لإعلاء كلمة الله .

« وإذا كان أول ما يثنى المرء عن الجهاد هو حبه للحياة وبغضه للموت ، فقد أكد القرآن مراراً أن هذا الذي يقتل في سبيل الله حي يرزق عند ربه ، وإن كنا لا نشعر بحياته ولا نحس بها على نحو ما توضحه هذه الآيات .

وإذا كان من يقتل في سبيل الله حياً يرزق ويظفر بحياة سعيدة فرحاً بما أنعم الله به عليه لا يمسه ولا يدركه حزن أو خوف فلا معنى للإحجام عن الجهاد حرصاً على حياة لا تنقطع بالموت في ميدان القتال ولا تنتهي بالاستشهاد بل يستأنف صاحبها حياة أخرى آمنة خالصة مما يشوب حياة الدنيا من القلق والمخاوف والأحزان . <١>

وهذه الآيات تكشف صورة الشهداء الذين ارتفعوا فوق شهواتهم وغالبوا هوى الشيطان وحققوا صورة النموذج الحي « لا تحسبنهم أمواتاً بل أحياء » فوراء هذا النهي « لا تحسبن » بيان العاقبة والفضل والتكريم لهؤلاء ، وفيه أن القتل في سبيل الله شرف خالد لا يجيء إلا من فئة أخلصوا الإيمان ، لا يفرطون في كرامتهم ، ويأبون الذل والضيم .

ومن ثم فهؤلاء الشهداء أحياء لم يموتوا وإن كانوا غير موجودين بأجسادهم فوق الأرض وفي متناول البصر ، هي حياة لا ندرك كنهها ولا نحيط علماً بحقيقتها <٢> ، فهي حياة خاصة بهم تختلف عن الحياة المتعارف عليها في هذا العالم <٣> ، وفي هذا مزيد من التكريم والحرمة لهؤلاء الشهداء .

والخطاب في قوله « لا تحسبن » للرسول ﷺ أو لكل أحد ممن له حظ من الخطاب . <٤>

وقرىء <٥> « لا يحسبن » أي ولا يحسبن رسول الله ﷺ أو ولا يحسبن حاسب . <٦>

١ - من بلاغة القرآن ، ص ٢١٣ .

٢ - انظر المعاني الثانية في الأسلوب القرآني للدكتور فتحي أحمد عامر ، ص ٢٨٤ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٦٥/٤ .

٤ - انظر الكشاف ، ٤٧٩/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٩٨/١ .

٥ - نسب أبوحيان هذه القراءة لحميد بن قيس وهشام ، انظر البحر المحيط ، ١١٢/٣ ؛ راجع السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ص ٢١٩ وما بعدها .

٦ - انظر الكشاف ، ٤٧٩/١ ؛ البحر المحيط ، ١١٢/٣ .

ومعلوم أن النهي في قوله « لا تحسبن » ونظائره في الذكر الحكيم لبيان

العاقبة ، أي عاقبة الجهاد الحياة لا الموت . <١>

وفي التعبير بقوله « قتلوا » أثر النظم القرآني بناء الفعل للمجهول للتركيز على الحدث نفسه بغض النظر عن فاعله - لكونه معلوماً وهم أعداء الله - لأنه محط العبرة والفائدة للتنويه بفضل المجاهدين وبما لهم من حظوة عند الله سبحانه .

وقرأ جمهور القراء « قتلوا » بتخفيف التاء ما عدا ابن عامر قرأها بالتشديد « قَتَلُوا » <٢> ولا ريب أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فلهذا التضعيف ملحظ بلاغي هو « الإشارة إلى كثرة المقتولين » <٣> وتأمل الفرق بين التعبير القرآني « قتلوا » وبين قولنا « ماتوا » تدرك دقة التعبير القرآني في اختياره للألفاظ القادرة على الوفاء بالمعنى وفاءً تاماً .

فقد أثر القرآن التعبير بقوله « قتلوا » لينص على أن الموت قد حدث لهؤلاء في ساحة القتال من قبل أعداء الله ، في سبيل الله ، أما قولنا « ماتوا » فهو لا يوحي بهذا المعنى ، فقد يحدث فعلاً أن يموت بعض الجنود في غير الميدان بسبب مرض أو كارثة من الكوارث الطبيعية فلا يقال : إنهم قتلوا وإنما ماتوا .

فهذا الإيماء الذي أو ما به وتضمنه اللفظ الذي أثره القرآن هو المناسب للمقام لا يستطيع أن ينهض به لفظ آخر يكون متقارباً معه في الدلالة المعجمية .

وفي سياق آخر ذكر القرآن اللفظين كليهما في قوله تعالى « ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتهم لإلى

الله تحشرون » . <٤>

١ - انظر الاتقان ، ٢٤٤/٣ ؛ معترك الأقران ، ٤٤٤/١ ؛ الأساليب الإنشائية ، ص ٧٠ ؛ أساليب الأمر

والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص ٣٤٠ .

٢ - انظر كتاب السبعة في القراءات ، ص ٢١٩ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٩٨/١ .

٧ - آل عمران : ١٥٦ - ١٥٧ وقوله تعالى في نفس السورة « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » الآية :

١٥٦ وقوله تعالى في شأن الرسول خطاباً للمسلمين « أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... » آل

عمران : ١٤٤ .

فجمع القرآن بين هذين اللفظين لكي لا يحرم الفريقين من الأجر والثواب غير أن المقتول في ساحة الميدان - وهو الشهيد - أعظم درجة ممن يموت في سبيل الله في موطن آخر ، وهذا كما ترى يكشف عن دقة التعبير القرآني ونظمه المعجز الذي أحرص أرباب الفصاحة والبيان .

وفي التعبير بقوله « في سبيل الله » كناية عن الجهاد لإعلاء كلمة الله سبحانه ، وإضافة السبيل إلى اسم الجلالة للبيان والتعظيم ، وفي كلمة « سبيل » إستعارة تصريحية أصلية ، لأن السبيل هو الطريق الحسي ، وقد استعير هنا لدين الله إستعارة محسوس لمعقول كما استعير الصراط له في قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » ^{<١>} والسر البلاغي هو إبراز المعقول في صورة المحسوس اعتناءً به .

وبل في قوله « بل أحياء » للاضراب الإبطالي . وفي قوله « أحياء » إيجاز بال حذف تقديره « بل هم أحياء » فحذف المسند إليه لدلالة الكلام عليه احترازاً عن العبث وقرىء بالنصب تقديره : بل أحسبهم أحياء . ^{<٢>}

وقد خولف في إعراب المتعاطفين « أمواتا » بالنصب ، و « أحياء » بالرفع ، فأمواتاً منصوب على أنه مفعول ثان للفعل حسب ، ورفع أحياء على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، ولهذا الاختلاف داع بلاغي أوجب اختلاف التعبير بالجملة الفعلية والإسمية .

فقد عبر القرآن بالفعلية ليشير إلى تجدد الموت واستمراره لهؤلاء المجاهدين في سبيل الله ، وحين أراد الإشارة إلى ثبوت الحياة ودوامها لهم عبر بالاسمية .

وفوق هذا ففي التعبير بقوله « أمواتاً بل أحياء » طباق بلغ الغاية في تصوير الذين يستشهدون في ساحات القتال للجهاد في سبيل الله وبيان ما لهم من المنزلة الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى .

١ - الفاتحة : ٦ .

٢ - انظر الكشاف ، ٤٧٩/١ .

أما قوله « عند ربهم » فهو ظرف متعلق بمحذوف خبر ثانٍ لابتداء مقدر وهو « هم عند ربهم » أو صفة لأحياء أو في محل نصب حال من الضمير في أحياء ، والمراد بالعندية التقرب والزلفى ، وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكريمة لهم . <١>

والتعبير بالمضارع « يرزقون » للدلالة على التجدد والحدوث ، لأن جمال النعمة وعظمتها في تجدها حالاً بعد حال ، ولا يخفى ما فيه من إيجاز بالحذف حيث حذف الفاعل وبني الفعل للمجهول للعلم به تقديره : يرزقهم الله سبحانه ، ويبدو أن السر من وراء بناء الفعل « يرزقون » للمجهول للتركيز على الحدث نفسه وصولاً إلى إثبات الحياة الدائمة لهم ، وتنوياً بفضل الله وإنعامه عليهم ، مع ما فيه من المحافظة على رؤوس الآي .

ومن روائع التعبير القرآني إثارة التعبير بالجملة الإسمية والجملة الفعلية لكنه يضع كلاً منهما في موضعه المناسب الذي يتطلبه المقام على ما نرى في هذه الآية الكريمة فقد آثر التعبير بالإسم بقوله « فرحين » ولم يقل « يفرحون » كما قال فيما سبق « يرزقون » للإشارة إلى استمرار فرحتهم بلا انقطاع سواء في ذلك حالة الرزق وانقطاعه المدلول عليها بالجملة الفعلية « يرزقون » وليس في هذا نقص لأن المراد - و الله أعلم - تناولهم لما ينعم الله به عليهم من مأكول ومشروب وهو يكون على نوبات كما هو الشأن في الحياة الدنيا .

« فرحين » منصوب على أنه حال من الضمير في قوله « يرزقون » أو صفة لأحياء . <٢> وآثر البيان الكريم التعبير بصيغة المبالغة « فرحين » ولم يقل « فارحين » للدلالة على عظم فرحتهم .

١- انظر تفسير أبي السعود ، ٥٩٨/١ ؛ راجع روح المعاني ، ١٢٢/٤ .

٢ - انظر البحر المحيط ، ١١٤/٢ ؛ إملاء ما من به الرحمن للعكبري بهامش الفتوحات الإلهية ،

١٥١/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٦٦/٤ .

ومن في قوله « من فضله » يحتمل أن تكون للسبب أي ما آتاهم الله متسبب عن فضله ، وعلى هذا التقدير تتعلق الباء بقوله « آتاهم » ويحتمل أن تكون للتبعيض فتكون في موضع الحال من الضمير المحذوف العائد على « ما » تقديره : بما آتاهم الله كائناً من فضله ، ويحتمل أن تكون لابتداء الغاية وعلى هذا التقدير تتعلق بالفعل آتاهم . <١>

أما جملة « ويستبشرون » فمعطوفة على « يرزقون » فهي في محل نصب حال من الضمير في « فرحين » أو من ضمير المفعول في قوله « آتاهم » . <٢>

ومعنى « يستبشرون » يسرون بالبشارة ، وأصل الاستبشار : حصول البشارة بالخبر السار . <٣>

وانظر إلى أسرار البلاغة في إثارة التعبير بالجملة الفعلية « يستبشرون » ولم يقل « مستبشرون » ليشير إلى أن بشارة الشهداء بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم تجدد حالاً بعد حال لأنه من غير الممكن أن يستشهد جميع أصحابهم دفعة واحدة فيبشروا بقدمهم عليهم ويفرحوا بذلك ، وإنما يستشهدون على فترات زمنية مختلفة ولذلك نرى - و الله أعلم - أن النظم آثر التعبير بالمضارع للدلالة على أنهم يستبشرون بهم حالاً بعد حال .

ولا يخفى ما في هذا الاستبشار من إلهاب وحث وترغيب في الجهاد في سبيل الله . والمراد « بالذين لم يلحقوا بهم » رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم ، ومعنى « لم يلحقوا بهم » لم يستشهدوا فيصيروا إلى الحياة الآخرة . <٤>

١ - انظر البحر المحيط ، ١١٤/٣ ؛ إملاء ما من به الرحمن بهامش الفتوحات الإلهية ، ١٥١/٢ .

٢ - انظر روح المعاني ، ١٢٣/٤ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٩٩/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٨١/٣ ؛ روح المعاني ، ١٢٣/٤ ؛ التحرير والتنوير ، ١٦٦/٤ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ، ١٦٦/٤ .

وفي التعبير بقوله « ألا خوف عليهم..» إيجاز بالحذف حيث حذف اسم إن وهو ضمير الشأن تقديره أنه لا خوف عليهم ، والمصدر المؤول من إن واسمها وخبرها منصوب بنزع الخافض تقديره : بأن لا خوف عليهم ، ويجوز أن يكون التقدير « لأنهم لا خوف عليهم فيكون مفعولاً لأجله . <١>

وتنكير « خوف » للتقليل لنفي أدنى خوف عليهم ، ونفي الأدنى يستلزم نفي الأعلى .

وتقديم ضمير الفصل في قوله « ولا هم يحزنون » للتأكيد <٢> وليس للحصر لأن غيرهم موعود بهذا أيضا .

والمراد بنفي الخوف والحزن عنهم « بيان إنتفاء الخوف والحزن لا بيان انتفاء دوامهما كما يوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعاً فإن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام » . <٣>

وكرر البيان القرآني الفعل « يستبشرون » في هذه الآية ، وهو تكرر في الظاهر لأن كل فعل له متعلق يختلف عن متعلق الآخر ، ولعل السر في ذلك « لبيان أن الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لا يقادر قدرها وهي ثواب أعمالهم ، وقد يجوز أن يكون الأول متعلقاً بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم بياناً لبعض ما أجمل في قوله « فرحين بما آتاهم الله من فضله » . <٤>

وتنكير « نعمة وفضل » للتعظيم والقيد بقوله « من الله » للتنويه بشأن النعمة والفضل لأنهما من الله لا من غيره .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٩٩/١ ؛ إملاء ما من به الرحمن ، ١٥١/٢ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ١٠٨/٤ .

٢ - راجع البحر المحيط ، ١١٥/٣ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٦٠٠/١ .

٤ - انظر السابق الموضع نفسه وراجع الكشاف ، ٤٨٠/١ ؛ التفسير الكبير ، ٩٨/٩ ؛ البحر المحيط ، ١١٦/٣ .

والنعمة : هي ما يكون به صلاح الحال ، والفضل : الزيادة في النعمة ،
والظاهر - كما قال أبو حيان - تباين النعمة والفضل للعطف ويناسب شرحهما أن
يُنزل على قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ^{<١>} فالحسنى هي النعمة
والزيادة هي الفضل لقرينة قوله « أحسنوا » . ^{<٢>}

أما قوله « وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » فقد كسر الكسائي همزة إن ،
فتكون الجملة مستأنفة ، أما قراءة الجمهور ، بالفتح « وأن الله » عطفاً على النعمة
والفضل . ^{<٣>}

ولا ريب أن هذه الجملة « وأن الله لا يضيع ... » من تنمة ما يستبشرون به
أي هم يستبشرون أولاً : بنعمة من الله وفضل ، وثانياً : بحفظ الله أجر المؤمنين ،
وهذا مستفاد من العطف بالواو لأنها هنا لطلق الجمع ، ومن فتح همزة أن .

« والمراد بالمؤمنين في قوله « أجر المؤمنين » إما الشهداء والتعبير عنهم
بالمؤمنين للإيذان بسمو رتبة الإيمان وكونه مناطاً لما نالوه من السعادة ،
وإما كافة أهل الإيمان من الشهداء وغيرهم ذُكرت توفية أجورهم من جملة
ما يستبشر به الشهداء بحكم الأخوة في الدين » . ^{<٤>}

ويضيف أبو السعود قائلاً « وقرئ بكسر همزة إن على أنه استئناف
معترض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعر بأن من لا إيمان له أعماله
محبطة لا أجر له ، وفيه من الحث على الجهاد والترغيب في الشهادة والبعث على
ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى » . ^{<٥>}

١ - يونس : ٢٦ .

٢ - البحر المحيط ، ١١٦/٣ .

٣ - انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ، ص ٢١٩ : الكشاف ، ٤٨٠/١ : البحر المحيط ،
١١٦/٣ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٦٠٠/١ : راجع روح المعاني ، ١٢٤/٤ .

٥ - تفسير أبي السعود ، ٦٠٠/١ .

وفي هذه الآيات الكريمت مراعاة النظير فقد ناظر سبحانه وتعالى بين فرحين ويستبشرون وبين عدم الخوف وعدم الحزن وبين النعمة والفضل <١> ، ولا يخفى أن هذا التناسب زاد البيان جمالاً وجلالاً .

موازنة بين سياقين :

بدهي أن عقد الموازنات الأسلوبية بين الآيات المتشابهات في النظم القرآني يكشف جانباً مشرقاً وصفحة رائعة من بلاغة النظم في القرآن الحكيم .

لذلك فقد آثرت أن أعقد موازنة بين الآية السابقة وبين قوله تعالى « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » . <٢>

ونلاحظ كما لاحظ صاحب الأساليب الإنشائية من خلال هذه الموازنة ما يلي :

١ - جاء الفعل « لا تقولوا » هنا لأن المشركين كانوا يقولون إن أصحاب محمد ﷺ يقتلون أنفسهم ويخسرون حياتهم فقال تعالى « ولا تقولوا كما قال المشركون إنهم يذهبون إلى الفناء ولا ينشرون ، ولكن اعلموا أنهم أحياء » ، وقال الأصم كما نقل عنه الرازي : « لا تسموهم بالموتى وقولوا لهم الشهداء » . <٣>

٢ - لما كانت آية البقرة تنهاهم عن التشبه بالكفار في القول كان الأسلوب قوياً تصحيحاً للعقيدة ووزناً للألفاظ بميزان دقيق قبل النطق بها ، ثم جاء التذييل مقررأً عاتباً « ولكن لا تشعرون » .

٣ - دل على العتاب صياغة الفعل « يقتل » تصويراً حالياً استحضاراً للمشهد فهذا الذي يسفك دمه وتزهق روحه في سبيل الله لا يكون إلا حياً ، أما آية

١ - انظر إعراب القرآن وبيانه ، ١٠٩/٤ .

٢ - البقرة : ١٥٤ .

٣ - انظر التفسير الكبير ، ١٦١/٤ .

آل عمران فجاءت في شهداء أحد وإن كانت عامة ، ولذا رق الأسلوب وفاح
رحمة وحناناً ، فليس النهي عما يدور في الأفواه ويتلفظ به اللسان بل عن
الحسبان والخاطر يطوف بالقلب نهياً عن الظن ، والقول من باب أولى :

٤ - كما أن الفعل « قتلوا » حقق الاستشهاد وأكد النهي ، وهذا ناسب التكريم
الخاص لهؤلاء الشهداء ، وتعدد ألوان رائعة منه تثبت الحياة مضاعفة « عند
ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا
بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ترغيباً في الجهاد المخلص
رفعاً لكلمة الله في الأرض رب الأولى والآخرة . <١>

وقال تعالى : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة
ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم
لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون
ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من
لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل
الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

يسعى القرآن الكريم في هذه الآيات إلى الترغيب في الجهاد بإيقاظ
مشاعر المسلمين نحو التطلع إلى ما هو خير لهم وأبقى عند الله سبحانه ويدفعهم
إلى بيع الحياة الدنيا وشراء الآخرة ويعددهم على ذلك إحدى الحسينين النصر
أو الشهادة « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً
عظيماً .

١ - الأساليب الإنشائية في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية للدكتور صباح دراز ، ص ٧١ وما بعدها ؛

راجع أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص ٣٤٣ وما بعدها .

٢ - النساء : ٧٤ - ٧٦ .

ثم يستجيش نفوسهم في استفهام إنكاري فيه حث وإغراء على الجهاد لإنقاذ إخوة لهم في الدين ضعفاء يلقون الذل والتعذيب على أيدي أعدائهم « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان » وينقل لنا القرآن دعاء الضعفاء وتضرعهم إلى الله أن يمن عليهم بالنصر والتأييد « الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » ثم يشير إلى انقسام الناس إلى فريقين متباينين تحت رايتين مختلفتين « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

من بين المغريات التي نرى القرآن اعتمد عليها لترغيب المؤمنين في الجهاد إثارة بواعث الرغبة في نفوسهم من خلال عقد صفقة رابحة مع الله ، فالمجاهد يبيع نفسه ويضحى بالحياة الدنيا مقابل ما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم والرضوان في الجنة .

أو إثارة النخوة والشهامة لإنقاذ طائفة ضعيفة من المؤمنين تلقى الضيم والذل والأذى الشديد على أيدي قرية ظالم أهلها ، فهؤلاء الضعفاء أجدر الناس لأن يهب من لديهم نخوة لإنقاذهم من أيدي ظالمهم . <١>

والخطاب في هذه الآيات الكريمات للمؤمنين ترغيباً لهم في الجهاد وحثاً عليه وفيه تعريض بالمنافقين الذين يثبطون المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله ، وليس كما ذهب بعض المفسرين بناءً على الفعل « يشرون » فإذا كان بمعنى « يشترون » فالخطاب للمنافقين أمروا بترك ما كانوا عليه من التثبيط والنفاق وتبديله بالجهاد مع المؤمنين ، والفاء في قوله « فليقاتل » تكون للتعقيب أي ينبغي بعدما صدر منهم من النفاق تركه وتدارك ما فات من الجهاد بعد ، وإن كان بمعنى « يبيعون »

فالخطاب للمؤمنين الذين تركوا الدنيا واختاروا الآخرة أمروا بالثبات على القتال وعدم الالتفات إلى تثبيط المنافقين ، والفاء جواب شرط مقدر أي إن أبطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة . <١>

ولا داعي إلى اللجوء إلى مثل هذا التقدير لأن السياق لا يحتمل كل هذه التأويلات ، فالخطاب هنا للمؤمنين ترغيباً لهم في الجهاد ، والفعل « يشرون » بمعنى يبيعون ، ويبدو أن الذي ألجأهم إلى كل ذلك افتتاح النظم الكريم بالفاء ، وهي على ما أرجح للإستئناف وقد نص على ذلك شراح التلخيص حيث قالوا « وقد يستأنف بالفاء كما يستأنف بالواو » . <٢>

وقدم البيان القرآني الجار والمجرور « في سبيل الله » على الفاعل « الذين » لإظهار مزيد من العناية والاهتمام به لأن القتال في سبيل الله شرف ما بعده شرف ، ولو أخرج لاختل تجاوب أطراف النظم الكريم ، ثم إن الصناعة النحوية تقتضي تقديم الجار والمجرور لأنه متعلق بالفعل « فليقاتل » فلو تأخر وتقدم الفاعل كان هناك فاصل كبير بين الفعل ومتعلقة و الله أعلم بسر كتابه .

وفي التعبير بقوله « في سبيل الله » كناية عن دين الله وشريعته المرتضاة ، فهو جهاد في سبيل الله بهذا التحديد لا في غيره من السبل الأخرى .

ومن لطائف البلاغة القرآنية ما في التعبير بالموصول « الذين » من دقائق النظم وأسراره العالية ، فقد أثر القرآن التعبير بالموصول ولم يقل « فليقاتل المؤمنون » لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام ، وللتوصل إلى ذكر الصلة للتنويه بفضلهم لإيثارهم الحياة الآخرة وعزوفهم عن الحياة الزائلة رغبة فيما عنده من النعيم الدائم .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٧٣٤/١ ؛ حاشية الشهاب ، ١٥٥/٣ ؛ روح المعاني ، ٨١/٥ ؛ راجع الكشاف ، ٥٤٢/١ .

٢ - انظر شروح التلخيص .

وتأمل روعة التصوير القرآني بقوله « يشرون » فهذا اللفظ يصور بجرسه ولفظه عملية تجارية قائمة وهي بلا شك صفقة رابحة ، فهم يبيعون الدنيا ويشترون بها الآخرة .

وهذا التعبير المجازي « يشرون » يحتمل أن يكون إستعارة مكنية حيث شبه الحياة الدنيا والآخرة بصفقتين ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وخواصه وهو الشراء على سبيل الاستعارة المكنية . وقد صرح بهذا بعض المعاصرين . <١>

ويجوز أن يكون إستعارة تصريرية تبعية ، شبه اختيارهم للآخرة على الدنيا بالشراء بجامع ترك مرغوب عنه وأخذ مرغوب فيه ثم اشتق من الشراء الفعل « يختارون » بمعنى « يستبدلون » على سبيل الاستعارة التبعية .

والواقع أن كلا التخرجين مستساغ بيد أنني أميل إلى إجراء الاستعارة في الفعل لأنها أنسب بالسياق . أما سرها البلاغي فهو تصوير المعقول بصورة المحسوس لزيادة الاعتناء به لأن الأمور المعقولة إذا صُورت في صورة محسوسة تجسدت وبرزت للعيان .

لكن ما الحكمة في إثارة القرآن التعبير بقوله « يشرون » على « يبيعون » مع أنهما بمعنى واحد ؟

أثر القرآن التعبير بالفعل « يشرون » لأنه أخف من يبيعون ، وهذه الخفة التي نجدتها في « يشرون » توحى بأن الحياة الدنيا خفيفة الوزن في أنفسهم لا يلقون لها بالاً والله أعلم بأسرار كتابه .

ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع « يشرون » من الدلالة على التجدد والاستمرار .

١ - انظر إعراب القرآن وبيانه ، ٢٦١/٥ .

ويواصل القرآن ترغيب المؤمنين في الجهاد ببيان ما أعدّ لهم الله من الأجر العظيم بقوله « ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » .

بهذه اللمسة الموحية يتجه البيان القرآني إلى رفع هذه النفوس وإلى تعليقها بالرجاء في كلتا الحالتين ، وأن يهون على هذه النفس ما تخشاه من القتل وما ترجوه من الغنيمة كذلك ، فالحياة أو الغنيمة لا تساوي شيئاً إلى جانب الفضل العظيم من الله تعالى . <١>

وتأمل أسرار النظم في تعقيب القتال بقوله « فيقتل أو يغلب » للإشارة إلى أن « المجاهد ينبغي أن يوطن نفسه على إحدى الحسنيين إما إكرام نفسه بالقتل والشهادة ، أو إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى بالنصر على الأعداء ولا يخطر بباله القسم الثالث وهو الأسر ، وتقديم القتل على الغلب للإيدان بتقدمه في استتباعه الأجر » <٢> وللتنبية على فضل الشهادة .

واكتفى القرآن بذكر القتل والغلبة بقوله « فيقتل أو يغلب » واقتصر عليهما ولم يزد قوله « أو يؤسر » لأن هذا اللفظ يشعر بالضعف ، فحالة الأسر حالة ضعيفة لا يرضاها الله للمؤمنين ولذلك سكت عنها البيان القرآني « لئلا يذكرها في معرض الترغيب وإن كان للمسلم عليها أجر عظيم أيضاً إذا بذل جهده في الحرب فغلب إذ الحرب لا تخلو من ذلك ، وليس بمأمور أن يلقي بيده إلى التهلكة إذا علم أنه لا يجدي عنه الاستبسال ، فإن من منافع الإسلام استبقاء رجاله لدفاع العدو . <٣>

١ - انظر في ظلال القرآن المجلد الثاني ، ص ٧٠٨ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٧٣٤/١ ؛ تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، ١٥٥/٣ ؛ روح المعاني ، ٨١/٥ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٢٢/٥ .

وفي إسناد الفعل « نؤتيه » إلى ضمير العظمة للإشعار بتحقيق وعده زيادة في ترغيبهم في الجهاد . وتنكير « أجراً » للدلالة على التكثير والتعظيم ووصفه بقوله « عظيماً » يرشح لذلك فهو أجر عظيم لأن أجر العظيم عظيم لا محالة .

أما الاستفهام في قوله « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله » فهو إنكاري فيه إغراء وحث وتحريض على القتال أي شيء ثبت لكم غير مقاتلين أي أي عذر لكم في ترك القتال في سبيل الله . <١>

وجملة « لا تقاتلون » خبر بمعنى الأمر أي قاتلوا في سبيل الله ، وإخراج الأمر في صورة الخبر - كما ذكر الزمخشري - تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله . <٢> ومعنى « في سبيل الله » لأجل دينه ولرضاته ، وفي على هذا للتعليل . <٣>

ولا يخفى موقع الالتفات وحسنه في هذا السياق فقد انتقل من الغيبة في قوله « الذين يشرون » إلى الخطاب بقوله « وما لكم لا تقاتلون » للمبالغة في التحريض على الجهاد والحث عليه زيادة في تأكيد وجوبه <٤> ، مع ما في الإقبال بالخطاب من تشريف لهم .

أما قوله « والمستضعفين » فهو إما معطوف على لفظ الجلالة « الله » أي في سبيل المستضعفين بتخليصهم من الأسر وصونهم عن الأعداء ، وإما معطوف على « السبيل » ولا بد من تقدير مضاف محذوف : أي في سبيل الله وخلص المستضعفين . <٥>

-
- ١- انظر تفسير أبي السعود ، ٧٣٤/١ : روح المعاني ، ٨١/٥ : التحرير والتنوير ، ١٢٢/٥ .
 ٢- انظر الكشاف ، ٣٦٥/١ : راجع البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص ٢٧٤ : أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم ، ص ٣٨٧ .
 ٣- انظر التحرير والتنوير ، ١٢٢/٥ .
 ٤- انظر تفسير أبي السعود ، ٣٧٤/١ : روح المعاني ، ٨١/٥ .
 ٥- انظر الكشاف ، ٥٤٢/١ : البحر المحيط ، ٢٩٥/٣ : حاشية الشهاب ، ١٥٥/٣ : روح المعاني ، ٨١/٥ .

وجوز الزمخشري نصبه على الاختصاص أي « واختص من سبيل الله خلاص المستضعفين لأن سبيل الله عام في كل خير ، وخلص المستضعفين من المسلمين من أيدي الكفار من أعظم الخير وأخصه » ^{<١>} . إلا أن أبا حيان ردّه بقوله « ولا حاجة إلى تكلف نصبه على الاختصاص إذ هو خلاف الظاهر . ^{<٢>}

ففي التعبير بقوله « والمستضعفين » كما ترى إيجاز بالحذف تقديره في سبيل الله وخلص المستضعفين

أما قوله « من الرجال والنساء والوالدان » فشرع في بيان المستضعفين ، ونلاحظ أن النظم القرآني بدأ بأقوى الضعفاء ، فإذا كان الرجال فيهم ضعف فما بالك بالنساء والأطفال .

والمراد بالمستضعفين : الذين أسلموا بمكة وصدّهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستضعفين يلقون منهم صنوف الأذى والظلم .

ولم يقتصر القرآن على قوله « من الرجال والنساء » وإنما ذكر معم الولدان « تكميلاً للاستعطاف واستجلاباً للرحمة وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان لإرغام آبائهم وأمهاتهم وإيذاناً بإجابة الدعاء الآتي واقتراب زمن الخلاص ببيان شركتهم في التضرع إلى الله استنزاهاً لرحمة الله بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا كما وردت السنة بإخراجهم في الاستسقاء » ^{<٣>} كل ذلك للمبالغة في الحث على القتال والترغيب فيه .

بهذه الألفاظ المعبرة واللمسات الموحية يحرك القرآن القلوب نحو الجهاد في سبيل الله . فمشهد « المرأة الكسيرة والطفل الضعيف مشهد مؤثر لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين

١ - الكشاف ، ٥٤٢/١ وما بعدها .

٢ - البحر المحيط ، ٢٩٥/٣ .

٣ - انظر الكشاف ، ٥٤٢/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٧٣٥/١ .

والعقيدة ، وهذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلي الجهاد وهو وحده يكفي ، لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات .. ، وهو أسلوب عميق الوقع ، بعيد الغور في مسارب الشعور والاحساس . <١>

وينقل لنا القرآن دعاءهم . وهو بلا شك يجسد ضعفهم - بقوله « الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً .

وتعريف « القرية » بآل للعهد لأن المراد بها « مكة » ، وانظر إلى جمال التعبير القرآني حيث لم يسند الظلم إلى القرية وإنما أسنده إلى أهلها للإشارة إلى قبح جنائيتهم وعظيم ظلمهم وشدة إزلالهم للمؤمنين ، ولزيادة تشريفها عن نسبة الظلم إليها شرفها الله ، وهذا ما ألمح إليه ابن المنير * بقوله « أما هذه القرية في سورة النساء فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة لأن المراد بها مكة فوقرت عن نسبة الظلم إليها تشريفاً لها شرفها الله تعالى » . <٢>

وتقديم المجرورين « لنا ومن لدنك » على المفعول الصريح « وليا » لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر بتقديم أحواله فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه - كما يورث شوق السامع وروده - ينبىء عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتناؤه بحصوله لا محالة ، وتقديم الجار والمجرور « لنا » على « من » للمسارعة إلى إبراز كون المسئول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم » . <٣>

١- في ظلال القرآن ، المجلد الثاني ، ص ٧٠٨ .

* هو أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور بن أبي القاسم الجذامي الإسكندري المالكي المعروف بابن المنير كان إماماً في النحو والأدب والأصول والتفسير ، وله يد طولى في علم البلاغة ولد في الثالث من ذي القعدة سنة ٦٢٠ ، وتولى قضاء الإسكندرية وتوفي سنة ٦٨٣ من مؤلفاته : البحر الكبير في بحث التفسير ، والانتصاف من صاحب الكشاف ، وتفسير حديث الإسراء ، وديوان خطب ، انظر ترجمته في بغية الوعاة ، ٢٨٤/١ : معجم المؤلفين ، ١٦١/٢ - ١٦٢ .

٢ - الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ، ٥٤٢/١ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٧٣٥/١ ؛ راجع روح المعاني ، ٨٢/٥ .

وتكرار الفعل « اجعل » فى قوله « اجعل لنا من لذك ولياً واجعل لنا من لذك نصيراً » لبيان شدة الرغبة فى نصر الله لهم ، وللمبالغة فى التضرع والابتهاال . <١>

أما قوله « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ... » فهو استئناف لبيان أصناف المقاتلين وما يقاتلون فيه ، فيه ترغيب للمؤمنين فى القتال وتشجيعهم ببيان كمال قوتهم بإمداد الله تعالى ونصرتة وغاية ضعف أعدائهم أى : المؤمنون إنما يقاتلون فى دين الله الحق الموصل لهم إلى الله عز وجل وفى إعلاء كلمته فهو وليهم وناصرهم لا محالة ، والذين كفروا يقاتلون فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه . <٢>

وفى لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق وينقسمون إلى فريقين تحت رايتين مختلفتين : الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله لتحقيق منهجه وإقرار شريعته وإقامة العدل بين الناس باسم الله لا تحت أى عنوان آخر ، اعترافاً بأن الله وحده هو الإله وهو الحاكم . والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج غير منهج الله وشرائع شتى غير شريعة الله . <٣>

والتعبير بالموصول « الذين آمنوا يقاتلون » للإيماء إلى وجه بناء الخبر زيادة فى تشريفهم وتنوياً بنبل مسعاهم ، أما فى الموضع الثانى « الذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت » فللإيماء أيضاً إلى بناء الخبر وللتسجيل عليهم بقبح مقصدهم ذماً لهم وتحقيراً لشأنهم .

وفى قوله « الذين آمنوا يقاتلون » إيجاز حذف حيث لم يقل « الذين آمنوا بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر » وإنما اكتفى بقوله « الذين آمنوا » لأن

١ - انظر تفسير أبى السعود ، ٧٣٦/١ .

٢ - انظر السابق ، ٧٣٦/١ .

٣ - انظر فى ظلال القرآن ، المجلد الثانى ، ص ٧٠٩ .

الإيمان أصبح علماً على الإيمان الكامل بالله ومتعلقاته وهذا كما ترى من جوامع الكلم .

ويلاحظ ما في التعبير بالمضارع « يقاتلون » من الدلالة على التجدد والاستمرار .

والتعبير بالمضارع « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » هو خبر أريد به مدح المؤمنين وثباتهم على الحق ، ودم الكفار وتوبيخهم على ثباتهم على طريق الغواية والضلال .

ولا يخفى ما في هذه الجملة من مقابلة حيث قابل بين قوله « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت » .

والمقابلة من الأساليب المحببة إلى النفوس بما لها من قدرة على تجلية الحقائق وإبراز المعاني المتضادة والمتقابلة في وضوح تام .

والخطاب في قوله « فقاتلوا أولياء الشيطان » للمؤمنين لأنه مفهوم من قوله « الذين آمنوا » والفاء سببية « لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها ، وذكر بهذا العنوان « أولياء الشيطان » للدلالة على أن ذلك نتيجة لقتالهم في سبيل الشيطان ، والإشعار بأن المؤمنين أولياء الله لما أن قتالهم في سبيله ، وكل ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين في القتال وتقوية عزائمهم عليه ، فإن ولاية الله تعالى علم في العزة والقوة كما أن ولاية الشيطان مثل في الذلة والضعف كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان » . <١>

أما التعبير بقوله « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » فهو تذييل مؤكد لمضمون ما قبله ، وفيه إغراء للمؤمنين بقتال عبدة الطاغوت .

وتوكيد الخبر « بأن » لأن مضمونه حقيقة عظيمة ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبر عنها بأسلوب عظيم مثلها .

وتأمل دقة التعبير القرآني وإحكام نظمه حيث قال « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ولم يقل « إن كيد الشيطان ضعيف » بدون كان على أنها زائدة في السياق . ففي التعبير « كان » زيادة تأكيد للمعنى ، وتفخيم للعبارة ، والدلالة على أن الشيطان قد استقر في الأزل أنه ضعيف ، وهذا ما أشار إليه أبو السعود رحمه الله بقوله « وفائدة إدخال « كان » في أمثال هذه المواقع لتأكيد بيان أنه منذ كان كذلك فالمعنى أن كيد الشيطان منذ كان كان موصوفاً بالضعف » . <١>

وهذا كما نرى من خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية الذي أعجز الثقلين الإتيان بمثله .

قال تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً * درجاتٍ منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

تنص هاتان الآيتان على انتفاء التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم وتفاوت ما بينهما في الأجر والثوبة من الله ، ثم أخبر الحق سبحانه عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة وبيّن أن كل فريق وعده الله الحسنى ، ثم أخبر أنه فضلهم عليهم درجات وأسبغ عليهم مغفرته ورحمته وكان الله غفوراً رحيماً .

١ - انظر السابق نفس الموضع .

٢ - النساء : ٩٥ - ٩٦ .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

سلك القرآن للترغيب في الجهاد في هاتين الآيتين منهج التنظير بين القاعدين والمجاهدين في سبيل الله حيث فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وأعدّ لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا .

ففي هذا السياق تنظير بين طائفتين حسنتين ، الأولى هم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم والثانية هم القاعدون المتقاعسون عن الجهاد وهم بلا شك طائفة صالحة من المؤمنين بدليل قوله « من المؤمنين » فهذا القيد يؤكد أنها طائفة صالحة لكنها قصرت في الجهاد ، والقرآن يستحثها لتلافي هذا التقصير ، والخير مرجو فيها والأمل قائم في أن تستجيب <١> ، غير أن القرآن يؤكد التفاوت بينهما في الأجر والثواب .

وافتح النظم الكريم بقوله « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله ... » لبيان تفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوت درجات مساعيهم في الجهاد في سبيل الله ، وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعد عنه ويترفع عن انحطاط رتبته فيهتز رغبةً في ارتفاع طبقته . <٢>

والمراد بالقاعدين : هم القاعدون عن بدر وهو المروي عن ابن عباس وقيل هم المتخلفون عن تبوك .

ولا مانع أن يكون المراد بهم المتقاعسين عن الجهاد عموماً لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ولا يخفى ما في هذا التعبير من روائع التصوير البياني ولطائف النظم القرآني فكلمة « القاعدون » إما أن تكون كناية عن ترك الجهاد في سبيل الله ، فهي كناية عن صفة ، وإما استعارة تصريحية تبعية حيث شبه التارك للجهاد بالقاعد بجامع عدم الحركة في كل ثم اشتق من

١ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الثاني ، ص ٧٤١ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٧٦٢/١ ؛ راجع الكشاف ، ٥٥٥/١ ؛ روح المعاني ، ١٢١/٥ .

القعود اسم الفاعل « القاعدون » بمعنى التاركون للجهاد على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ومن في قوله « من المؤمنين » إما بيانية أو للتبويض ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من القاعدين أي حال كونهم كائنين من المؤمنين <١> ، وهذا القيد « من المؤمنين ليس حشواً في الآية وإنما له فائدة ودلالة لا نجدها لو حذف من السياق وهي « الإيذان من أول الأمر بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم والإشعار بعلّة استحقاقهم لما سيأتي من الحسنی » . <٢>

وقرىء « غير أولي الضرر » بالحركات الثلاث رفعاً ونصباً وجرأً <٣> ، وقد أطال النحاة والمفسرون الوقوف عند هذه الآية بما لا مزيد عليه فليراجع في مظانه . <٤>

والآية الكريمة تنص على عدم مساواة القاعدين بالمجاهدين في سبيل الله ، وفيها تعريض بالقاعدين وتشنيع لحالهم ، بيد أنها استثنت أولي الضرر من هذا الحكم لأن لهم فضلاً مقابل ما فعلوه وتقربوا به إلى الله من الطاعات لكن فضلهم لا يرقى إلى فضل المجاهدين في سبيل الله فأولئك أعظم درجات عند الله .

١ - انظر البيضاوي وحاشية الشهاب عليه ، ١٦٨/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٧٦٣/١ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٧٦٣/١ ؛ راجع روح المعاني ، ١٢٢/٥ .

٣ - الرفع على أنه صفة للقاعدين ، والنصب على أنه استثناء أو حال منهم ، والجر على أنه صفة للمؤمنين .

٤ - انظر معاني القرآن للفراء ، ٢٨٣/١ وما بعدها ؛ معاني القرآن للنحاس ، تحقيق : الشيخ محمد علي الصابوني ، ١٧٠/٢ وما بعدها ؛ البيان في إعراب غريب القرآن لابن الأنباري ، ٢٦٤/١ وما بعدها ؛ إملاء ما من به الرحمن بهامش الفتوحات الإلهية ، ٢٠٩/٢ ؛ الأمالي النحوية لابن الحاجب ، تحقيق : هادي حسن حمودي ، ١٢٦/١ وما بعدها ؛ الاستغناء في أحكام الاستثناء للقرافي تحقيق الدكتور طه محسن ، ص ٢٤٠ - ٢٤٣ ؛ انظر الكشاف ، ٥٥٥/١ ؛ البحر المحيط ، ٢٣٠/٢ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٧٦٣/١ ؛ التفسير القيم لابن القيم ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ ؛ فتح القدير ، ٥٠٣/١ .

والمراد بأولي الضرر هم المصابون بمرض أو عاهة من عمى أو عرج أو زمانة أو نحوها . وفي هذا كناية عن صفة ، كناية عن الأعذار المبيحة عن التخلف عن القتال كالعمى والعرج والمرض ، ويجوز أن يكون فيه إيجاز قصر لكونه يشمل جميع الأعذار الذاتية والعارضة ، فالذاتية كالعمى والعرج والمرض والعارضة كالحبس ونحوه .

وتأمل جمال التعبير بقوله « غير أولي الضرر » حيث جيء به « لئلا يحسب أصحاب الضرر أنهم مقصودون بالتحريض فيخرجوا مع المسلمين ، فيكفوهم مؤونة نقلهم وحفظهم بلا جدوى ، أو يظنون أنهم مقصودون بالتعريض فتتكسر لذلك نفوسهم زيادة على انكسارها بعجزهم ، ففي استثنائهم من هذا الحكم إنصاف لهم وإعذار لأنهم لو كانوا قادرين على الخروج لما قعدوا وتقاعدوا عن الجهاد ، ولو لم يذكر هذا القيد لا ندرج أصحاب الضرر في القاعدين الذين جاءت الآية الكريمة تلومهم وتشنع عليهم وتعرض بهم لقعودهم وتقاعدهم عن الجهاد في سبيل الله <١> ، فتأمل رأفة الله بعباده الضعفاء ودقة التعبير القرآني ، ويؤكد هذا القول ويدل عليه ما روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال : كنت عند النبي ﷺ حين نزلت عليه « لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ولم يذكر « أولي الضرر » فقال ابن أم مكتوم : كيف وأنا أعمى لا أبصر ، قال زيد : فتغشى النبي ﷺ في مجلسه الوحي فاتكأ على فخذي فوالذي نفسي بيده لقد ثقل على فخذي حتى خشيت أن يرضها ثم سرى عنه فقال : اكتب « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر فكتبتها » . <٢>

ومن لطائف التعبير القرآني أنه عبر بقوله « المجاهدون » ولم يقل « الخارجون » مع أنه مقابل للقاعدين ولعل السر في ذلك لأن قوله « المجاهدون » يشمل غير الخارج والخارج في سبيل الله فلو قال الخارجون لدل فقط على

١ - التحرير والتنوير ، ١٠٧/٥ .

٢ - أسباب النزول للواحدي ، ص ١٢٠ وما بعدها ؛ راجع الكشاف ، ١/٥٥٥ .

الخارجين للجهاد ، ومعلوم أن الجهاد يكون في مجاهدة النفس وحملها على الطاعات ، ويكون في البيت والعمل وفي السوق أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، فكل هذا جهاد في سبيل الله ، ولذلك أثر القرآن التعبير بالمجاهدين ليشمل المجاهد غير الخارج والمجاهد الخارج الذي يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمته ، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة منها قوله ﷺ « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . <١>

ففي التعبير بقوله « المجاهدون » زيادة مدح لهم ، وإشعار « بعلّة استحقاقهم لعلو المرتبة مع ما فيه من حسن موقع السبيل في مقابلة القعود . <٢>

وقدّم النظم الكريم الأموال على الأنفس في قوله « بأموالهم وأنفسهم » لأن الجهاد بالمال أعم من الجهاد بالنفس ، بدليل أن العاجز يجاهد بماله ، فبذل المال أرخص من بذل النفس فالتقديم روعي فيه تقديم الأعم للتدرج في بيان أنماط الجهاد في سبيل الله . وتعريف « القاعدون والمجاهدون » بأل للجنس .

لكن ما السر البلاغي في تقديم القاعدين على المجاهدين في هذا النظم القرآني ؟

لا شك أن السر من تقديم القاعدين على المجاهدين في الذكر « للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبيء عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابلتهم فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب قصور القاصر وعليه قوله تعالى « هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور » . <٣>

١ - الحديث ذكره العجلوني في كشف الخفا ومزيل الإلباس ، ٥١١/١ ، طبعة دار التراث .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٧٦٣/١ ؛ حاشية الشهاب ، ١٦٩/٣ .

٣ - الرعد : ١٦ ؛ انظر تفسير أبي السعود ، ٧٦٣/١ .

ونضيف إلي هذا أن نفي المساواة منصبه على القاعدين لاعلى المجاهدين لأنهم المقصودون أي هؤلاء القاعدون لا يساون المجاهدين لا أن المراد نفي مساواة المجاهدين بالقاعدين ، لأن التدرج من الأضعف إلى الأقوى في مقاييس البلاغة أدل على المدح وأدخل في بلاغة الأسلوب وقوته .

أما قوله « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » فليبان فضل المجاهدين على القاعدين كماً وكيفاً .

وفي التعبير بقوله « المجاهدين بأموالهم وأنفسهم » إيجاز بالحذف أي المجاهدين في سبيل الله ، واستغني عن ذكر هذا القيد لأنه تقدم ذكره في نظيره السابق . <١>

وتنكير « درجة » للتفخيم والتعظيم فهي درجة عظيمة ، ونصب « درجة » على أنها نائب عن المفعول المطلق أي فضل الله المجاهدين تفضيلة أو فضلاً درجة ، أو منصوبة على نزع الخافض أي بدرجة ، أو على أنها حال من المجاهدين : أي فضل الله المجاهدين على القاعدين حال كونهم ذوي درجة . <٢>

ومما يسترعي الانتباه ويلفت النظر أن القرآن الكريم آثر التعبير بقوله « درجة » وقوله « أجراً عظيماً » ولم يقل « فضل الله المجاهدين على القاعدين فضلاً عظيماً » ، وإنما قال في الآية الأولى « فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة » وفي الثانية « فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً فما السر في ذلك يا ترى ؟

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٢/٥ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٧٦٤/١ ؛ فتح القدير ، ٥٠٢/١ .

ذكر الشهاب الخفاجي * كلاماً يمكننا أن نستأنس به لكنه في الحقيقة لا ينهض للكشف عن خصائص التعبير القرآني من وراء هذا العدول حيث يقول « الفعل » فضل « نصب المفعول لتضمنه معنى الإعطاء ، ويكون ذلك الإعطاء فضلاً أي زيادة على أجر غيرهم لبقاء معناه الأصلي أي وأعطاهم زيادة » . <١>

ولعل السر البلاغي من وراء إثارة القرآن التعبير بقوله « درجة » و « أجراً عظيماً » لينص على بيان مالهم من منزلة عظيمة ودرجة عالية عند الله - لا أن يثبت لهم الفضل لأنه مفهوم من الفعل « فضل » للمسارعة إلى تعجيل المسرة إلى نفوسهم تكريماً وتشريفاً لهم بمالهم من حظوة ومكانة عالية وأجر عظيم عند الله سبحانه .

ولعلك تلاحظ أن هذه الجملة « فضل الله ... » فصلت عما قبلها لأنها نزلت مما قبلها منزلة عطف البيان ولذلك فصلت فبين الجملتين كمال الاتصال .

وجملة « وكلاً وعد الله الحسنى » اعتراضية - لا محل لها من الإعراب - جيء بها لدفع توهم أن لا يكون للقاعدين أجر ، وتداركاً لما عسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين من حرمان المفضول فقيل « وكلاً وعد الله الحسنى » . <٢>

وتقديم المفعول الأول « كلاً » على الفعل « وعد » لإفادة الحصر تأكيداً للوعد أي كل واحد من المجاهدين والقاعدين « وعد الله الحسنى » أي المثوبة الحسنى وهي الجنة لا أحدهما فقط . <٣>

* هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري قاضي القضاة صاحب التصانيف في اللغة والأدب ولد بمصر وبها توفي ، من مصنفاته : شرح درة الغواص في أوام الخواص ، وريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، انظر ترجمته في : الأعلام ، ٢٣٨/١ ؛ معجم المؤلفين ، ١٣٨/٢ .

١ - حاشية الشهاب ، ١٦٩/٣ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٧٦٤/١ .

٣ - انظر السابق الموضع نفسه ؛ راجع روح المعاني ، ١٢٢/٥ .

وفي قوله « وكلاً ... » إيجاز بالحذف حيث حذف المضاف إليه أي كل المجاهدين والقاعدين .

أما جملة « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » فقد عطفت على جملة « فضل الله المجاهدين » وإن كان معنى الجملتين واحداً باعتبار ما في الجملة الثانية من زيادة « أجراً عظيماً » فبذلك غايرت الجملة المعطوفة الجملة المعطوفَ عليها مغايرة سوغت العطف مع ما في إعادة ألفاظها من زيادة توكيد لها . <١>

فبين الجملتين التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود المناسبة المسوغة للوصل .

وانتصب « أجراً » على أنه مصدر مؤكد للفعل « فضل » على أنه بمعنى أجر ، أو على أنه مفعول ثان للفعل « فضل » بتضمينه معنى الاعطاء أي أعطاهم زيادة على القاعدين أجراً ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض أي فضلهم بأجر عظيم .

ولعل إيثار التعبير به على ما هو مصدر من فعله أي فضلهم فضلاً للإشعار بكون ذلك أجراً لأعمالهم <٢> ، وتتكير « أجراً » للتفخيم والتعظيم .

وفي التعبير بقوله « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » إحتراس دال على انتفاء المساواة في الحسنى .

« ودرجات » إما منصوبة على الحال أي ذوي درجات ، أو على نزع الخافض أي بدرجات ، أو على معنى الظرفية أي في درجات ، أو على أنها بدل من « أجراً » بدل الكل مبين لكمية التفضيل . والجار والمجرور « منه » متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات دالة على فخامتها وجلالة قدرها أي درجات كائنة منه سبحانه .

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٢/٥ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٧٦٤/١ .

أما قوله « مغفرة وأجراً » فهما معطوفان على درجات ، وجوز الزمخشري
نصبهما على إضمار فعلهما : أي غفر ذنبهم مغفرة ورحمهم رحمة . <١>

ومن روائع البلاغة القرآنية ما نراه من الأسرار البلاغية من وراء اختلاف
الصياغة حيث قال مرة « درجة » وتارة أخرى درجات فما السر في ذلك ؟

لعل السر في تكرار التفضيل وتقييده تارة بدرجة وأخرى بدرجات مع
اتحاد المفضل والمفضل عليه حسبما يقتضيه الكلام ويستدعيه النظم إما لاختلاف
التفضيلين من جهة متعلقهما لأن المراد بالتفضيل الأول ما خولهم الله في الدنيا من
الغنيمة والظفر والذكر الجميل الحقيق بكونه درجة واحدة ، وبالتفضيل الثاني
ما أنعم به عليهم في الآخرة من الدرجات العالية الفائتة للحصر ، فنبه بإفراد الأول
وجمع الثاني على أن ثواب الدنيا في جنب الآخرة يسير ، وقيل لاختلاف المفضل
عليهم ففي الأول هم القاعدون بعذر وفي الثاني القاعدون بغير عذر ولذلك اختلف
المفضل به ففي الأول درجة وفي الثاني درجات ، وقيل لاختلاف مراتب المجاهدين
في الدنيا والآخرة ، فرتبهم في الدنيا متساوية حيث يتساوى نصيب كل واحد من
الغنائم مع الآخر ، أما في الآخرة فمراتبهم متفاوتة بحسب إيمانهم فلم درجات
بحسب استحقاقهم ، فمنهم من يكون له الغفران ومنهم من يكون له الرحمة فقط ،
فكأن الرحمة أدنى المنازل ، والمغفرة فوق الرحمة ، فبعد الدرجات دال على بعد
الطبقات . <٢>

ونضيف إلى ما سبق إن السر البلاغي من وراء اختلاف الصياغة حيث
قال « درجة وأجراً عظيماً ، ودرجات ، ومغفرة ورحمة ، مراعاة منهج القرآن في
التراقي والتدرج من الأدنى إلى الأعلى ، وهذا الأسلوب له أثره الذي لا ينكر في
القدرة على التأثير في النفس الإنسانية ، لأن هذه النفس بطبيعتها تتطلع إلى

١ - انظر الكشاف ، ٥٥٦/١ ؛ البحر المحيط ، ٢٢٢/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٧٦٤/١ .

٢ - انظر البحر المحيط ، ٢٢٢/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٧٦٥ وما بعدها .

الأفضل وتطمح إلى الكمال ، فجاء هذا الأسلوب حاثاً لها ومرغباً لها في الجهاد في سبيل الله للفوز بالدرجات العلى عند الله في الجنة .

والواو في قوله « وكان الله غفوراً رحيماً » للاستئناف النحوي وليست للحال أي أن الله كان غفوراً رحيماً ، وقد وقعت هذه الجملة تذييلاً مؤكداً لمضمون ما قبله .

وتأمل حسن هذه الفاصلة وشدة ارتباطها بالسياق حيث رشح قوله « مغفرة منه ورحمة » لمجيء هذه الفاصلة ، فلما جاءت استقرت في موضعها اللائق بها على أحسن وجه وأكدته .

وقال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . (١)

المعنى الإجمالي :

في هذه الآية الكريمة يخبر الله سبحانه وتعالى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ليقاتلوا في سبيله لإعلاء كلمته ، ووعدهم على ذلك « بأن لهم الجنة » وأكد هذا الوعد بأنه ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، لا أحد لا محالة ، ثم انتقلت الآية إلى إدخال الفرح والسرور في نفوس المجاهدين الباذلين أرواحهم وأموالهم في سبيل الله بقوله « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » ، وهو فوز عظيم لا فوز عظيم سواه .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

تقرر لدى البلاغيين أن تأكيد الخبر يكون إما مراعاة لحال المخاطب وهو الأغلب ، وإما لحال المتكلم لكن القرآن في كثير من المواضع نجده يتجاوز هذا النسق ويؤكد الخبر لا مراعاةً لحال المتكلم أو المخاطب وإنما لكون الخبر حقيقة عظيمة ، ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبر عنها بأسلوب عظيم مثلها لإظهار مزيد من العناية والاهتمام بمضمون الخبر على نحو ما نرى في هذه الآية حيث افتتحت بحرف التوكيد « إن » لكون الخبر حقيقة عظيمة .

وقد أكدت هذه الآية بمؤكدين هما « إن » وإسمية الجملة « إن الله اشترى » وهذا التوكيد يناسب قوله « وعداً عليه حقاً » .

وفي التعبير بقوله « اشترى » إستعارة تصريحية تبعية ، شبه الاستبدال بالاشتراء ثم اشتق من الاشتراء الفعل « اشترى » بمعنى استبدل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ولما كان المجاهد في سبيل الله باذلاً نفسه وماله ، مقبلاً على ربه ، حاملاً روحه في كفه فإن الله سبحانه يثيبه أجراً عظيماً ويدخله برحمته في جنته .

« فهنا نفس مبدولة ومال مبدول ، يقابلهما رضا الله وفضله لمن صحت نيته في الجهاد وأكرمه الله بالاستشهاد في سبيله .

وقد صور القرآن هذه الحالة بما فيها من طرفين متقابلين بصورة البيع والشراء ، فالمجاهد بائع نفسه وماله لله ، و الله مشتر تلك النفس الطاهرة ، وذلك المال الزكي ، المؤمن المجاهد يقدم نفسه وماله عروضاً مبيعة ، والله ينعم بالرضوان والجنة ثمناً مبدولاً . <١>

وفي إسناد الشراء إلى الله إشعار بضمان الثمن ووفرته ، وقد صرحت بهذا نفس الآية الكريمة إذ جاء فيها « ومن أوفى بعهده من الله » .

١ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ٢/٢٢٥ وما بعدها .

وتأمل جمال التعبير القرآني بقوله « إن الله اشترى » ولم يقل « إن المؤمنين باعوا » لإظهار رغبة المشتري فيما اشتراه واغتباطه به . <١> ولأنه زيادة في تشريفهم في أنه هو المشتري لا أنهم هم البائعون ، وقد أثبت لهم القرآن هذه الفضيلة بقوله « فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » .

ومجيء المسند جملة فعلية « اشترى » لإفادته معنى الماضي « إشارة إلى أن ذلك قد استقر من قبل كما سيأتي في قوله « وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن » وأنهم كالذين نسوه أو تنا سوه حين لم يخفوا إلى النفير الذي استنفروا له إشارة إلى أن الوعد بذلك قديم متكرر معروف في الكتب السماوية . <٢>

ولما كان المشتري هو الله سبحانه قدّم البيان القرآني الأنفس على الأموال في قوله « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » لأنها أشرف وأعلى من الأموال .

وفي قوله « بأن لهم الجنة » بيان لثمن هذا المبيع ، ولم يقل القرآن الكريم « بالجنة » بل قال « بأن لهم الجنة » للمبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم كأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم المقصورة عليهم لا تكون لغيرهم . <٣> ، وللإشارة إلى مدحهم بأنهم بذلوا أنفسهم ونفائسهم بمجرد الوعد ثقةً بالوفاء . <٤>

أما جملة « يقاتلون في سبيل الله » فهي مستأنفة وقعت جواباً لسؤال تضمنته الجملة السابقة كأنه قيل : لماذا اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم قيل : يقاتلون في سبيل الله .

١ - انظر البحر المحيط ، ١٠٢/٥ .

٢ - التحرير والتنوير ، ٣٧/١١ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٠٨/٢ ؛ نظم الدرر ، ٢٤/٩ .

٤ - انظر حاشية الشهاب ، ٣٦٨/٤ .

ولذلك فصلت عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، ويجوز أن تكون هذه الجملة بياناً لما قبلها أو منزلةً منزلةً عطف البيان منها وبذلك يكون بين الجملتين كمال الاتصال .

والتعبير بالمضارع « يقاتلون » مع أنه دال على التجدد والاستمرار - خبر فيه معنى الأمر . <١> والفاء في قوله « فيقتلون » للتفريع على قوله « يقاتلون » لأن حال المقاتل لا تخلو من أحد هذين الأمرين .

وقرأ جمهور القراء « فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » <٢> بتقديم القاتلية على المقتولية ولعل السرّ في تقديم حالة القاتلية على المقتولية لأنه الأصل لأن المجاهد يقاتل في سبيل الله لينال إحدى الحسنين إما النصر بقتل العدو وهزيمته وإما الشهادة في سبيل الله .

وقرأ حمزة * والكسائي * « فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتُلُونَ » <٣> بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل ففي تقديم المقتولية على القاتلية إشارة إلى كون الشهادة عريضة

١ - انظر الكشاف ، ٢١٦/٢ : البحر المحيط ، ١٠٢/٥ : تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ ؛ حاشية زاده ، ٣٥٤/٢ .

٢ - انظر كتاب السبعة في القراءات ، ص ٣١٩ .

* هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي كان أحد القراء السبعة أخذ القراءة عن الأعمش ، وأخذ عنه الكسائي ، كان عالماً بكتاب الله مجوداً له ، عارفاً بالفرائض والعربية حافظاً للحديث ، توفي بطوان بالعراق سنة ١٥٦ ، انظر ترجمته في : الإقناع لابن الباذش ، ١٢٥/١ وما بعدها ؛ وفيات الأعيان ، ٢١٦/٢ .

* هو أبو الحسن علي بن حمزة الأسدي المعروف بالكسائي أحد الأئمة القراء ، من أهل الكوفة ، واستوطن بغداد ، وأدب ولد الرشيد ، من مؤلفاته : معاني القرآن ، والآثار في القراءات ، النوادر والمصادر وأشعار المعايير وغيرها ، ومات بالري هو ومحمد بن الحسن الفقيه ، كانا قد خرجا مع الرشيد فقال : دفنت الفقه والنحو في يوم واحد ، وذلك في سنة ١٨٣ وقيل ١٨٩ هـ ، انظر ترجمته في طبقات اللغويين والنحويين ، ص ١٢٧ - ١٣٠ : إنباه الرواة ، ٢٥٦/٢ - ٢٧٤ ؛ بغية الوعاة ، ١٦٢/٢ - ١٦٤ ؛ وفيات الأعيان ، ٢٩٥/٣ - ٢٩٧ .

٢ - انظر كتاب السبعة في القراءات ، ص ٣١٩ .

في هذا الباب وأدخل في استحقاق الجنة ، وإيدان بعدم مبالاتهم بالموت في سبيله تعالى وعدم تعلقهم بالحياة بل إن الموت أحب إليهم من السلامة والحياة . <١>

ولما رغب الله في الجهاد ببيان أن للمجاهد في سبيله الجنة ، انتقل إلى تأكيد هذا الوعد بقوله « وعداً عليه حقاً » فأخبر الله بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين وعد ثابت قد أثبتته « في التوراة والإنجيل والقرآن » .

و « وعداً » منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعله ، و « حقاً » صفة لقوله « وعداً » و « عليه » جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من « حقاً » تقدم على عامله للاهتمام بما دل عليه حرف الاستعلاء من معنى الوجوب أي وعداً عليه هو لا على غيره ، وتقديم « عليه » على قوله « حقاً » أولى لأنه لو تأخر عليه لكان صفة له . <٢>

وفي التعبير بقوله « عليه » كناية عن لفظ الجلالة « الله » أي وعداً على الله حقاً لا على غيره . أما قوله « في التوراة والإنجيل والقرآن » فهو متعلق بمحذوف وقع صفة « لوعداً » أي وعداً مذكوراً أو مثبتاً في التوراة والإنجيل والقرآن . <٣>

وترتيب الكتب السماوية المنزلة من الله وهي التوراة والإنجيل والقرآن روعي فيه السبق الزمني فالتوراة نزلت قبل الإنجيل ، والإنجيل نزل قبل الكتاب الخاتم الذي ختم به جميع الرسالات . أما جملة « ومن أوفى بعهده من الله » فهي اعتراضية لتقرير مضمون ما قبلها « من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل واف فإن إخلاف الميعاد لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلاق الغني عن العالمين جل جلاله . <٤>

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ ؛ حاشية الشهاب ، ٣٦٨/٤ ؛ حاشية زاده ، ٢٥٥/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ٣٩/١٠ .

٣ - انظر الكشاف ، ٢١٦/٢ ؛ البحر المحيط ، ١٠٣/٥ ؛ تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ ؛ راجع الكشاف ، ٢١٦/٢ ؛ نظم الدرر ، ٢٥/٩ .

والاستفهام في قوله « ومن أوفى » إما للتقرير أي لا أحد أوفى بعهده من الله ؛ وإما للإنكار بتنزيل السامع منزلة من يجعل هذا الوعد محتملاً للوفاء وعدمه كغالب الوعود فيقال له « ومن أوفى بعهده من الله » إنكاراً عليه . <١>

وكشف أبو حيان سر إيثار القرآن التعبير بالعهد بدلاً من الوعد في قوله تعالى « ومن أوفى بعهده » بقوله « لما أكد الوعد بقوله « عليه حقاً » أبرزه هنا في صورة العهد الذي هو أكد وأوثق من الوعد إذ الوعد في غير حق الله تعالى جائز إخلافه ، والعهد لا يجوز إلا الوفاء به إذ هو أكد من الوعد » <٢> ، كما أن العهد يكون في مقابلة شيء بشيء بخلاف الوعد فقد يكون مكارمة بحتة .

ولا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من احتراس لدفع أن يتوهم أحد أن الله يخلف الميعاد فيقول « ومن أوفى بعهده من الله » لا أحد إطلاقاً أو في بعهده من الله سبحانه وتعالى .

والفاء في قوله « فاستبشروا » لترتيب الاستبشار أو الأمر به على ما قبله أي فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما فزتم به من الجنة . <٣>

وأضاف النظم القرآني البيع إلى ضمير المخاطبين « بيعكم » لإظهار اغتباطهم وفرحتهم به . وتأمل جمال التصوير الأسر في قوله تعالى « ببيعكم » حيث شبه الاستبدال بالبيع ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه وجعل اللفظ الدال على المشبه وهو « الاستبدال » فرداً من أفراد المشبه به وهو « البيع » وداخلاً في جنسه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وكلا الاستعارتين ترشح الأخرى فالأولى في قوله « اشترى » رشحت ومهدت للثانية « ببيعكم » والثانية جاءت ترشياً للأولى وبذلك ازداد البيان القرآني حسناً وجمالاً .

١ - انظر البحر المحيط ، ١٠٣/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ ؛ نظم الدرر ، ٢٥/٩ .

٢ - البحر المحيط ، ١٠٣/٢ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٦٠٩/٢ .

كما أن هاتين الاستعارتين تتعانقان لإبراز هذه الصفقة الرابعة حثاً للمؤمنين على الجهاد وترغيبهم فيه « فما دام الله مشترياً لنفس ومال المجاهد فهم - إذن - بائعون فليستبشروا ببيعهم هذا ... ، ومن أو فى بعده من الله ؟ » . <١>

وأثر البيان القرآني التعبير بقوله « فاستبشروا ببيعكم » مع أن الابتهاج والسرور به باعتبار أدائه إلى الجنة ، ولم يقل « فاستبشروا بالجنة » مباشرة لأن المراد ترغيب المؤمنين في الجهاد في سبيل الله الذي عبر عنه بالبيع لا أن المراد ترغيبهم في الجنة . <٢>

وفي التعبير بقوله « فاستبشروا » إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ، ولهذا الالتفات سره البلاغي وهو أنهم لما باعوا أنفسهم وأموالهم استحقوا أن يخاطبهم الله تعالى تكريماً وتشريفاً لهم وزيادة لسرورهم على سرور . <٣>

وليس بخاف أن في هذه الآية الكريمة طباق إيجاب بين قوله « اشترى » وبين قوله « ببيعكم » ومن روائع البلاغة وأسرار البيان في القرآن أنه لم يقتصر على قوله « ببيعكم » لأنه لو اكتفى به لانصرف الذهن بادىء ذي بدء إلى كل بيع أما حين أضاف القرآن القيد بقوله « الذي بايعتم به » فقد حدد نوعية البيع الذي من أجله استحقوا عليه البشارة بقوله « فاستبشروا ببيعكم » ففي إضافة القيد « الذي بايعتم به » زيادة تقرير لبيعهم بأنه لله سبحانه وإشعار بكونه مغايراً لسائر البيوعات .

وفي التعبير بقوله « الذي بايعتم به » إيجاز بالحذف حيث حذف المفعول به لكونه معلوماً تقديره : الذي بايعتم به الله .

١ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ٢/٣٢٦ .

٢ - راجع تفسير أبي السعود ، ٢/٦٠٩ .

٣ - راجع تفسير أبي السعود ، ٢/٦٠٩ .

والتعبير باسم الإشارة البعيد في قوله « وذلك هو الفوز العظيم » للإشارة إلى علو البيع ومنزلته الرفيعة وسمو رتبته في الكمال <١> تنزيلاً لبعد المكانة منزلة بعد المكان ، وتعريف الطرفين والإتيان بضمير الفصل « هو » لإفادة الحصر أي ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز غيره أعظم منه .

والإشارة في « ذلك » إما إلى الجنة ، وإما إلى البيع الذي أمروا بالاستبشار به ، فعلى الأول تكون الجملة تذييلاً للآية الكريمة ، وعلى الثاني تذييلاً لقوله « فاستبشروا ببيعكم » مقررأً لضمونه كما نص على ذلك أبو السعود في تفسيره . <٢>

وهذه الجملة كما ترى جاءت معطوفة بالواو « وذلك هو الفوز العظيم » والواقع أنه يمنع عطفها على ما قبلها لأنها خبرية وما قبلها إنشائية « فاستبشروا ببيعكم » ولا يجوز بلاغة عطف الخبرية على الإنشائية .

وإذا اتضح امتناع عطفها على ما قبلها فمن الأولى أن تكون معطوفة على جملة « إن الله اشترى » حيث يعود اسم الإشارة « ذلك » على البيع - وهو بلا شك أفضل من أن يعود إلى غيره - لأنه محط الفائدة ومحل العناية والاهتمام ، فالوصل بالواو بين الجملتين لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٠١/٢ .

٢ - راجع السابق نفس الموضع .

الفصل الثالث

المبحث الثاني

الترهيب من التناقل عن الجهاد
في القرآن الكريم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترهيب من التثاقل عن الجهاد

وإذا كان القرآن قد حث النفس الإنسانية على الجهاد وحببه إليها ورغبها فيه فقد حذر من الفرار من ميدان القتال تحذيراً كله رهبة وخوف ، لأن الفرار يوم الزحف يوهن القوى ويفت في العضد ويسلم إلى الانحدار والهزيمة فلا غرابة أن نسمع هذا الزجر العنيف والتهديد المرعد « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

وحذر من التقاعس والتثاقل ووصف حال المتقاعسين وما تنطوي عليه نفوسهم من تهالك وتخاذل وجبن « ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ... » .

كما عني القرآن بالحديث عن الجند الخائن من المتقاعسين ، وأن كل الخير في تطهير الجيش منهم ، فهم آفة ييئون الضعف ويبذرون الوهن في نفوس المجاهدين ، ويقودون الجيش إلى الهزيمة والفشل ، وقد أطال القرآن في وصف هؤلاء الجند وتهديدهم وتحذير الرسول من صحبتهم « وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

في الصفحات القادمة نتناول بعض الآيات القرآنية التي جاءت مرهبة من التقاعس والتثاقل عن الجهاد في سبيل الله .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً و الله على كل شيء قدير ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذا النص القرآني يأمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالنفیر والخروج للجهاد في سبيله موبخاً المتقاعسين منهم عن الجهاد مهدداً المتثاقلين إلى الأرض الذين رضوا بالحياة الدنيا وأثروها على الآخرة بعذابه الأليم وباستئصالهم وقطع دابرهم من الأرض « إلا تنفروا يعذبكم ربكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً و الله على كل شيء قدير » .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

في هاتين الآيتين الكريمتين ترهيب شديد ووعيد موجه للمتقاعسين عن الجهاد في سبيل الله ، المتثاقلين عن تلبية داعي الجهاد ببيان سوء عاقبة التثاقل عن الجهاد في سبيل الله .

ويستهل النظم القرآني مطلعته بنداء المؤمنين معاتباً لهم وموبخاً على عدم خروجهم للجهاد في سبيل الله بقوله « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض » ففي نداء الله لهم بهذا الوصف « الذين آمنوا » تشریف لهم وتحريض لهم على القتال وحث لهم على الخروج للجهاد في سبيل الله أي فإذا كنتم مؤمنين حقاً فانفروا في سبيل الله لا أن تتقاعسوا وتخلدوا إلى الدعة والراحة .

والتعبير بالموصول « الذين آمنوا » لتقرير الغرض المسوق له الكلام والدلالة على مضيهم في الإيمان . والاستفهام في قوله « ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله » إستفهام إنكاري مشوب بالتوبيخ والتفريع <١> ، أي أيُّ شيء يمنعكم عن النفير .

وبناء الفعل « قيل » للمجهول مع كون قائله معلوماً وهو الرسول ﷺ للإهتمام بالقول بصرف النظر عن قائله ولذلك لم يذكر « إغلاظاً ومخاشنة لهم وصوناً لذكره إذ أخذ إلى الهوينا والدعة من أخذ وخالف أمره ﷺ » . <٢>

ومعنى نفر في قوله « انفروا » الخروج السريع من مكان إلى غيره لأمر أوجب ذلك الخروج ، وأكثر ما يطلق على الخروج إلى الحرب ، فيقال : نفر القوم إلى الغزو ، ونفر المسلمون إلى الجهاد . <٣>

وفي التعبير بقوله « في سبيل الله » كناية عن الخروج إلى الجهاد إعلاءً لكلمة الله تعالى ، وقد مرت الإشارة في موضع سابق إلى أن في التعبير بالسبيل إستعارة تصريحية أصلية .

و « اثاقلتم » أصلها ثناقلتم قلبت التاء ثاءً لتقارب مخرجيهما طلباً للإدغام واجلبت همزه الوصل للتوصل إلى الابتداء بالساكن . <٤>

ومن روائع البلاغة في التعبير القرآني أنك ترى لفظاً واحداً يستطيع بجرسه وتشكيله الصوتي وإيحاءاته أن يرسم لك صورة شاخصة تدركها العين . فما إن تسمع الأذن كلمة « اثاقلتم » في هذه الآية الكريمة حتى يتصور « الخيال

١ - انظر الكشاف ، ١٨٩/٢ : البحر المحيط والنهر الماد من البحر المحيط ، ٤١/٥ ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٥٠/٢ ؛ روح المعاني ، ٩٤/١٠ .

٢ - البحر المحيط ، ٤١/٥ .

٣ - راجع المفردات ، ص ٥٠١ ؛ معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٧٣٩/٢ وما بعدها ؛ روح المعاني ، ٩٤/١٠ وما بعدها ؛ التحرير والتنوير ، ١٩٧/١٠ .

٤ - انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ٢٠٦/١ ؛ معاني القرآن للفراء ، ٤٣٧/١ وما بعدها ؛ حاشية الشهاب ، ٣٢٦/٥ ؛ روح المعاني ، ٩٥/١٠ ؛ التحرير والتنوير ، ١٩٧/١٠ .

فما إن تسمع الأذن كلمة « اثاقلتم » في هذه الآية الكريمة حتى يتصور « الخيال ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل ، إن في هذه الكلمة « طناً » على الأقل من الأثقال ، ولو أنك قلت « تثاقلتم » لخف الجرس ، ولضاع الأثر المنشود وتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها . <١>

كما أن ثقل هذه الكلمة وصعوبة النطق بها نظراً لتقارب مخارجها « هذا الثقل يصور معناها بحق لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلى الأرض والتصاقهم بها واستشعارهم مشقة الجهاد وعزوف أرواحهم عنه . <٢>

فهذه الكلمة تكشف خبايا نفوس المتثاقلين وما انطوت عليه من جبن واستكانه وتخاذل أمام المذات ، وتقاعس عن النهوض إلى الجهاد ، وفيها تعريض بأن تثاقلهم وبطأهم ليس عن عجز وإنما عن تعلق بالإقامة في بلادهم والتمتع بأموالهم والخلود إلى الراحة . <٣>

والجار والمجرور « إلى الأرض » متعلق بالفعل « اثاقلتم » على تضمينه معنى الميل والإخلاق ولذلك عدي بإلى : أي اثاقلتم مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية عما قليل ، وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه المستتعبة للراحة الخالدة . <٤>

والقول بالتضمين لا يكشف سر تعديّة الفعل « إثاقلتم » بـ « إلى » « ولا يبرز بلاغة النظم في التعبير بإلى ودلالاته الموحية التي يضيفها على السياق .

١ - التصوير الفني في القرآن ، ص ٩١ وما بعدها : راجع في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٦٥٥ : التعبير البياني ، للدكتور : شفيق السيد ، ص ١٤٢ .

٢ - خصائص التراكيب ، للدكتور : محمد أبو موسى ، ص ٣٢ .

٣ - راجع التحرير والتنوير ، ١٩٧/١٠ .

٤ - انظر الكشاف ، ١٨٩/٢ : البحر المحيط ، ٤١/٥ : تفسير أبي السعود ، ٥٥١/٢ : حاشية الشهاب ، ٣٢٦/٥ : التحرير والتنوير ، ١٩٧/١٠ .

فالتعبير بقوله « إلى الأرض » يوحي بتسفل غايات المتثاقلين وتدني درجاتهم في حين تمسو غايات المجاهدين وترتفع درجاتهم عند الله كما نص على ذلك قوله تعالى « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً » ^١ بالإضافة إلى ما في صيغة « اثاقلتم » من الدلالة على التباطؤ وصعوبة الحركة ومعاناة النهوض ، كل ذلك يدل بلا شك على عدم مطاوعة النفس وتهاوي الإرادة وكأنه ينازع نفسه فلا يستطيع ويحاول النهوض فلا تسعفه قواه لتنتهي معاناته ومحاولاته إلى الأرض متمسكاً بها راكناً إليها .

فهل يفلح في التعبير عن سر هذا الحرف وما أضافه إلى تركيبه من خصائص أن يقال : إنه ضمن الفعل معنى الميل والإخلاق فعدي بالي ^٢ ، كما ذكر الزمخشري ومن نسج على منواله من المفسرين .

ويواصل البيان القرآني ترهيبه للمتثاقلين عن الجهاد المتقاعسين عنه مبيناً لهم « خسة ما أخذوا إليه تزهيداً فيه ، وشرف ما عرضوا منه ترغيباً فيه منبهاً على أن ترك الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر عظيم ، منكراً على من تثاقل موبخاً لهم » ^٣ بقوله « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » فالاستفهام في قوله « أرضيتم » للإنكار والتوبيخ إذ لا يليق ذلك بالمؤمنين أي أرضيتم بالنعيم العاجل في الدنيا الزائل بدل النعيم الباقي . ^٤ « ولما كان الاستفهام إنكارياً كان معناه النهي تقديره : لا ترضوا بها فإن ذلك أسفه رأي وأفسده . ^٥

وأثر النظم القرآني التعبير بقوله « أرضيتم » ولم يقل « أآثرتم أو فضلتكم » لأنه يوحي بدلالته على انشراح النفس ورضاها إلى أن عزوفهم عن الجهاد كان عن

١ - النساء : ٩٥ - ٩٦ .

٢ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ٢٦٦ وما بعدها .

٣ - نظم الدرر ، ٨ / ٤٧٠ .

٤ - انظر البحر المحيط ، ٥ / ٤١ ؛ التحرير والتنوير ، ١٠ / ١٩٨ .

٥ - نظم الدرر ، ٨ / ٤٧١ .

طيب خاطر ورضا نفس ، ولذلك آثر القرآن التعبير بهذا الفعل على غيره لأنه يصور حقيقة هؤلاء المتثاقلين ويكشف سرائرهم فقد كان تقاعسهم عن الجهاد مصحوباً بانسراح نفس وسعادة غامرة .

ومن في قوله « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » كما يقول أبوحيان « تضافرت أقوال المفسرين أنها بمعنى بدل أي بدل الآخرة » ^١ فهي قياسية لأن المقيس يوضع في جنب ما يقاس به . ^٢ فمن في هذا السياق بمعنى عن .

وليس من شك في أن حرف الابتداء « من » يوحى في هذا النص الكريم بمعان لا يستطيع أن يفى بها حرف المجاوزة « عن » ، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال « أرضيتم بالحياة الدنيا عن الآخرة » فما السر في عدول القرآن إلى التعبير بمن في هذا النظم القرآني ؟

ذكر العلامة البقاعي كلاماً طيباً عقب به على كلام أبي حيان السابق أمارت فيه اللثام عن سر إيثار القرآن التعبير بمن بدلاً من « عن » بقوله « والذي يظهر لي أنهم لم يريدوا أنها موضوعة للبدل ، بل إنه يطلق عليها لما قد يلزمها في مثل هذه العبارة من ترك ما بعدها لما قبلها فإنها لابتداء الغاية ، فإذا قلت : رضيت بكذا من زيد ، كأن المعنى أنك أخذت ذلك أخذاً مبتدئاً منه غير ملتفت إلى ما عداه ، فكأنك جعلت ذلك بدل كل شيء يقدر أنه ينالك منه من غير ذلك المأخوذ ، ولما كانوا قد أعطوا الآخرة على الاتباع فاستبدلوا به الامتناع ، كان إقبالهم على الدنيا كأنه مبتدئ مما كانوا قد توطنوه من الآخرة مع الإعراض عنها فكأنه قيل : أرضيتم بالميل إلى الدنيا من الآخرة ؟ . ^٣

١- البحر المحيط ، ٤١/٥ .

٢- انظر حاشية الشهاب ، ٢٢٦/٥ : روح المعاني ، ٩٥/١٠ .

٣- نظم الدرر ، ٤٧٠/٨ .

ونضيف إلى هذا بأن السرف في ذلك - و الله أعلم « لأن « من » تفيد معنى الانسلاخ لأنهم آثروا الحياة الدنيا ورجبوا فيها وأخلدوا إليها وتركوا الآخرة وأعرضوا عنها فكأنهم حين تقاعسوا عن الجهاد بإخلاصهم إلى الدنيا والاستمتاع بملذاتها انسلخوا من الآخرة ، ولتأكيد هذا المعنى نستأنس بقوله تعالى « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » . <١>

ف « من » أقرب إلى بلاغة النظم وأقدر على الوفاء بخصائصه ومقاصده الشريفة من « عن » لأنها لا تدل إلا على المجاوزة والإعراض ، ولذلك أثر البيان القرآني التعبير بمن بدلاً من « عن » .

ومن الفنون البديعية في هذه الآية الكريمة التي أكسبت النظم روعة وجمالاً هذا الجناس الحقيقي بين قوله « الأرض » وقوله « أرضيتم » وهذا الطباق الرائع بين الحياة الدنيا والآخرة .

وفي التعبير بقوله « من الآخرة » إيجاز بالحذف حيث حذف كلمة « الحياة » لدلالة السابق عليه .

وقد فصلت جملة « أرضيتم بالحياة الدنيا » عن جملة « اثاقلتم » لما بينهما من كمال الانقطاع لأنهما اختلفتا في الخبرية والإنشائية ، وهذا كما هو مقرر لدى علماء البلاغة من المواطنين التي يجب فيها فصل الجمل بعضها عن بعض .

وفي التعبير بقوله « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » قصر موصوف على صفة ، قصر حقيقي تنزيلي .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال « وما متاعها في الآخرة إلا قليل » ولكن القرآن قال « وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » فوضع المظهر موضع المضمرة « لزيادة التقرير أي فما التمتع بها وبلذائذها في جنب الآخرة إلا قليل

ومستحقر لا يؤبه له ، وفي ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ويستدعي الرغبة فيها وتجريد الآخرة عن مثل ذلك مبالغة في بيان حقارة الدنيا ودناعتها وعظم شأن الآخرة وعلوها . <١>

ثم ينتقل البيان القرآني بعد ذلك إلى تهديد هؤلاء المتثاقلين عن الجهاد ويتوعدهم بقوله « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً و الله على كل شيء قدير » والخطاب في هذه الآية الكريمة وإن كان خاصاً بطائفة معينة إلا أن مدلوله عام يشمل كل المتثاقلين عن الجهاد في كل زمان ومكان .

وفي هذا السياق القرآني تهديد شديد وسخط عظيم على المتثاقلين المتقاعسين عن الجهاد حيث توعدهم الله بعذاب أليم مطلق يتناول الدارين الدنيا والآخرة ، وليس هذا فحسب بل لهم مع هذا العذاب الذي توعدهم به في الدنيا والآخرة أن يستأصلهم ويقطع دابرهم من الأرض « ويستبدل قوماً غيركم » أي يستبدل بعد إهلاكهم قوماً غيرهم ، « ووصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال أي قوماً مطيعين مؤثرين للآخرة على الدنيا ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم كأهل اليمن وأبناء فارس ، وفيه من الدلالة على شدة السخط ما لا يخفى . <٢>

وفي قوله « يعذبكم » إيجاز بالحذف حيث أضم الفاعل وهو لفظ الجلالة للعلم به تقديره يعذبكم الله .

وتنكير « عذاباً » للتهويل والتفظيع ووصفه بأليم لبيان شدته وهوله . وفي التعبير بقوله « أليم » مجاز عقلي علاقته المفعولية لأن أليم بمعنى مؤلم فيه منزله .

١- تفسير أبي السعود ، ٥٥١/٢ : راجع روح المعاني ، ٩٥/١٠ .

٢- تفسير أبي السعود ، ٥٥١/١ .

أما السر البلاغي لهذا المجاز فهو تخيل أن العذاب نفسه أصبح ذا إرادته .

وجملة « إلا تنفروا » تحتمل الاستئناف نحوياً وبلاغياً ، غير أنني أرجح أن تكون مستأنفة إستئنافاً بيانياً جاءت جواباً عن سؤال أثارته الجملة السابقة تقديره : إن لم ننفر فماذا يحدث ؟ فقيل « إلا تنفروا يعذبكم ... » ولذلك فصلت هذه الجملة عما قبلها لأنها جاءت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى ، فهي مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً ، كما يرتبط الجواب بالسؤال ، ولذلك فصلت عما قبلها فبين الجملتين شبه كمال الاتصال .

أما تنكير « قوماً » فللنوعية إذ لا تعين لهؤلاء القوم لأنه معلق على شرط عدم النفير وهم قد نفروا لما استنفروا إلا عدداً غير كثير وهم المخلفون . <١>

وجملة « لا تضروه شيئاً » احتراص لدفع توهم الضرر لله أو لرسوله ﷺ ، والضمير في قوله « لا تضروه » يجوز أن يعود إلى الله سبحانه أي لا تضروا الله شيئاً ولا يقدح تناقلكم في نصرة دينه أصلاً لأنه غني عن كل شيء ، ويجوز أن يعود الضمير إلى الرسول ﷺ أي لا تضروا الرسول شيئاً لأن الله وعده بالعصمة والنصرة وكان وعده مفعولاً لا محالة . <٢>

وجملة « لا تضروه شيئاً » ليست حالية بل معطوفة على « يستبدل » والواو فاعل والهاء مفعول به و « شيئاً » مفعول مطلق أي لا تضروه شيئاً من الضرر . والواو في قوله « و الله على كل شيء قدير » للحال والجملة في محل نصب حال تقديره : حال كون الله على كل شيء قديراً ، والأولى أن تكون للاستئناف . وهذه الجملة جاءت تذييلاً لتأكيد مضمون ما قبلها وهو تنفيذ الوعيد بأنه سبحانه قادر على إهلاكهم والإتيان بقوم آخرين . <٣>

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٠/٢٠٠ .

٢ - انظر الكشاف ، ٢/١٩٠ ؛ تفسير أبي السعود ، ٢/٥٥٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٠/٢٠٠ .

٣ - راجع تفسير أبي السعود ، ٢/٥٥٢ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآية الكريمة تهديد ووعيد شديد للمتقاعسين عن الجهاد الذين يؤثرون محبة آبائهم وإخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأموالهم على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيل الله ، ويأمرهم الله بأن يتربصوا حتى يأتيهم بأمره « و الله لا يهدي القوم الفاسقين » .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

في هذه الآية الكريمة يضع الله سبحانه وتعالى كل صفات القريبى . وكل اللذائذ . والمغريات التي تعوق الناس عن الجهاد في سبيل الله في كفة ، ويضع حبه وحب رسوله والجهاد في سبيله في كفة أخرى . ويدع للمسلمين الخيار ، وقد رهب الله سبحانه وتعالى الذين يؤثرون - تقاعساً وتثاقلاً عن الجهاد - محبة الآباء والأبناء والأخوان والأزواج والعشائر والتجارة والأموال والمسكن على حب الله والجهاد في سبيله وتوعدهم بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة وبأمره الذي لا يرد .

وقد جمعت هذه الآية الكريمة كل المغريات التي تثبط الناس عن الجهاد في سبيل الله وتعوقهم عن الخروج في سبيله ، ولن تجد عائقاً أو صارفاً يمنع الناس عن الخروج للجهاد في سبيل الله إلا وتجده مندرجاً تحت واحد من هذه العوائق المذكورة في الآية الكريمة .

وهذه العوائق من شأنها أن النفوس تألفها وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها ، وقد أدرك القرآن أن لهذه العوائق والمغريات سلطاناً قوياً وأثراً كبيراً في النفوس ، لذلك نراه يستنهض هذه النفوس ويستحثها على الاستعلاء على جميع هذه المغريات ويدعوها لأن تتخلص منها ويحثها على الجهاد في سبيل الله رغبة فيما عنده من الأجر والثواب العظيم .

وابتدأ البيان القرآني بقوله « قل » ففيه تلوين للخطاب ، حيث كان الخطاب في الآية السابقة للمؤمنين في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم ... » ^١ ففي مخاطبة الرسول بقل تلوين للخطاب وتشريف له ﷺ وأمر له « بأن يثبت المؤمنين ويقوى عزائمهم على الانتهاء عما نهوا عنه من موالة الآباء والأخوان ويزهدهم فيهم وبمن يجري مجراهم من الأبناء والأزواج ويقطع علائقهم من زخارف الدنيا وزينتها على وجه التوبيخ والترهيب » . ^٢

ومن مظاهر الجلال والإعجاز في النظم القرآني أن هذه الآية الكريمة تخاطب جميع المكلفين على اختلاف مستوياتهم وتنوع طبقاتهم .

ومن روائع النظم القرآني إثارة إن الدالة على الشك « لتنبية المخاطبين » وإرشادهم وتحذيرهم من عذاب الله وعقابه الشديد ، وقد علق الله سبحانه هذا التهديد والوعيد على هذا الشرط وهو محبة الآباء والأبناء والأخوان ... الخ ، ويستحيل أن تكون محبة الآباء والأبناء وما عطف عليهما أكثر من حب الله لأن المخاطبين بهذه الآية المؤمنون ، وذلك أنه لا يتصور أن يكون المؤمن محباً لغير الله أكثر من حبه لله جل وعلا بل شأنه أن يكون الله والرسول أحب إليه مما سواهما ، فكل مؤمن بالله ورسوله إيماناً صحيحاً يجد من نفسه رجحان محبة الله والرسول بل إن كثيراً من المستغرقين في الشهوات يشناقون لرؤية الرسول ﷺ ويؤثرونه على

١ - التوبة : ٢٣ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٢/٥٣٥ .

أهليهم وأموالهم لما وقر في قلوبهم من محبته إلا أن الغفلات كثيراً ما تشغل الناس عن ملاحظة ذلك كما صرح به بعض الباحثين . <١>

ونضيف إلى ما ذكره هذا الباحث بأن إن بداليتها على الشك أبلغ من إذا وأدخل في باب الترهيب لأنها تفيد أن ما ذكره القرآن من هذه الأمور شيء محتمل وقوعه من بعض الناس لا من كل الناس ، فهو مشكوك في وقوعه ، ولذلك عبر القرآن بإن المفيدة للشك ليفسح المجال واسعاً للترهيب والوعيد ، أما لو عبر النظم القرآني بإذا الدالة على تحقق الوقوع لأفاد أن محبة المخاطبين لهذه الأشياء التي ذكرت في الآية متحققة وواقعة وفي ذلك إقنات وتأييس لهم . رأيت كيف أثر القرآن التعبير بإن على إذا ؟ وكيف نشرت على السياق دلالات وإيحاءات لا نجدها لو جاء النظم الكريم بإذا ؟

وغير خاف أن ما عليه النظم القرآني أبلغ مما لو قيل إن أثرتم محبة الأباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والمساكن على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، وهذا كما هو واضح هو معنى الآية الكريمة .

فلو جاء التعبير على هذا النحو لكان فيه إقنات وتأييس للمخاطبين لكن القرآن رحمة من الله بعباده المؤمنين لم يسلك مسلك التأييس ليفسح المجال للترهيب من التقاعس عن الجهاد في سبيل الله أي إن وقع منكم ذلك في أي عصر من العصور فتربصوا حتى يأتي الله بأمره وفيه تعريض بهم أي لا ينبغي لكم أن تفعلوا هذا .

وقد رتب البيان القرآني هذه المعوقات أحسن ترتيب ، وراعى فيه الأهمية بتقديم الأصول على الفروع ، فقدم الآباء لأنهم الذين يجب برهم وإكرامهم وحبهم ثم

١ - انظر أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط ، ص ٢٥٠ ، بحث مخطوط بكلية اللغة العربية جامعة

الأزهر ، مقدم للحصول على درجة الدكتوراه .

ثنى بالأبناء لكونهم أعلق بالقلوب ولما ذكر الأصل والفرع ذكر الحاشية وهم الأخوان والأزواج والعشيرة ، ثم لما رتب القوة البشرية انتقل إلى القوة المكتسبة فبدأً بالمال الموجود في أيديهم ثم ثنى بالمتوقع ربحه بالتجارة ثم ثلث بالمساكن لأنها الغاية التي كل ما تقدم أسباب للاسترواح فيها والتجمل بها . <١>

ولعل السر في تقديم الأموال على التجارة والمساكن لأنها الأصل في التجارة والمساكن المرفهة . وتنكير الأموال والتجارة والمساكن يفيد العموم أي أي أموال اقترفتموها وأي تجارة تخشون كسادها وأي مساكن ترضونها ، ولو جاءت معرفة بأل لدلت على أموال وتجارة ومساكن معهودة للمخاطبين وكان هذا الأمر موجهاً إلى عصر معين وطائفة معينة .

وقد وضع القرآن الكريم في التنظير بين الجهاد وهذه الأمور بالمال المكتسب بمشقة وجهد بقوله « وأموال اقترفتموها » ليشير إلى بيان الجهد المبذول في جمع المال وشدة معاناتهم في جمعه ، ففي هذا التعبير إيماء إلى عزة الأموال عندهم لحصولهم عليها بكد اليمين وعرق الجبين . <٢>

ومع أن الاقتراف معناه الاكتساب إلا أن الاكتساب لا يدل على المشقة والمعاناة لأن الإنسان من الممكن أن يحصل على المال دون أن يبذل جهداً كأن يحصل عليه عن طريق الوراثة أو الهبة أو الصدقة ، ولذلك أثار القرآن التعبير بقوله « وأموال اقترفتموها » ولم يقل « وأموال اكتسبتموها » للإشارة إلى جهدهم ومعاناتهم في جمع المال وهو بلا شك أغلى من المال الذي يأتي بلا جهد ، وهذا التعبير أبلغ في التنظير من التعبير بالاكتساب .

ومع أن التعبير بالاقتراف على حقيقته إلا أنه من الممكن أن يُحمل على المجاز وذلك بتشبيهه اكتساب المال والحصول عليه بالاقتراف بجامع شدة الرغبة

١ - انظر البحر المحيط ، ٢٢/٥ ؛ نظم الدرر ، ٤٢٢/٨ .

٢ - راجع تفسير أبي السعود ، ٥٣٥/٢ ؛ روح المعاني ، ٧١/١٠ .

والحرص في كلِّ ثم اشتق من الاقتراف الفعل « اقترفتوها » بمعنى اكتسبتموها على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

والتعبير بأفعل التفضيل « أحب إليكم » يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين ، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مُسبباً على تقديم محبة تلك العوائق على محبة الله ، ففيه إيحاء ما يؤول إليه ذلك من مهواة في الدين ، وهذا أبلغ في التعبير .

وجعل التفضيل في المحبة بين هذه الأصناف وبين محبة الله ورسوله والجهاد ، لأن تفضيل محبة الله ورسوله والجهاد يوجب الانقطاع عن هذه الأصناف ، فإيثار هذه الأشياء يفضي إلى موالة الذين يستحبون الكفر ، وإلى القعود عن الجهاد . <١>

وفي التعبير بقوله « أحب إليكم » إيجاز بالحذف تقديره : أحب إليكم من امتثال أمر الله تعالى ورسوله في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام . <٢>

وفي هذا تشنيع على المخاطبين وتوبيخ لهم لإعراضهم عن محبة الله ورسوله . وتخصيص الجهاد بالذكر من بين سائر ما يحبه الله منهم وقرنه مع حب الله وحب رسوله للتنويه بشأنه وللتنبيه على أنه مما يجب أن يحب فضلاً عن أن يُكره ، ولالإيذان بأن محبته راجعة إلى محبتهما فإن الجهاد عبارة عن قتال أعدائهما لأجل عداوتهم فمن يحبهما يجب أن يحب قتال من لا يحبهما . <٣>

وتنكير كلمة « جهاد » للعموم ليشمل سائر أصناف الجهاد ، جهاد بنان أو لسان أو سنان ، سواء أكان قولياً أم فعلياً .

١ - التحرير والتنوير ، ١٠/١٥٢ .

٢ - انظر البحر المحيط ، ٥/٢٢ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢/٥٣٧ ؛ روح المعاني ، ١٠/٧١ .

وفي هذه الآية الكريمة موطنان لمراعاة النظير أولهما في قوله « أبأؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم » وثانيهما في قوله « أموال اقتترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها » .

والفاء في قوله « فتربصوا » واقعة في جواب الشرط ، ومعنى التربص : الانتظار والمراقبة مع الحذر أي تربصوا متوقعين مجيء أمر الله .

وفي التعبير بقوله « تربصوا » إستعارة تبعية حيث شبه الانتظار بالتربص بجامع شدة الحذر في كل ثم اشتق من التربص الفعل تربصوا بمعنى انتظروا على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . والأمر بقوله « تربصوا » للتهديد والوعيد . <١>

وإيهام الأمر في قوله « حتى يأتي الله بأمره » لزيادة التهويل لتذهب نفوس المهتدين كل مذهب وتتردد بين أنواع العقوبات . <٢>

ففي قوله « بأمره » إيجاز قصر لأنه قد يكون هذا الأمر عذاباً أو قتلاً أو تسليطاً للأعداء عليهم ، وقد يكون مجاعة أو صواعق أو نزع بركة ، فهو من جوامع الكلم .

وكان مقتضى الظاهر أن يكون التعبير هكذا « حتى يأتي أمر الله » لكن النظم عدل عن ذلك وعبر بقوله « حتى يأتي الله بأمره » فصرح بأن الله الذي يأتي بأمره لا أن أمره سبحانه وتعالى يأتي زيادة في الترهيب والوعيد .

وتأمل الفرق بين قوله تعالى « حتي يأتي الله بأمره » وبين قولنا « حتى يأتي أمر الله » تجد أن الباء تضيف على السياق دلالات وظلالاً لا يدركها إلا ذو حس مرهف ، بحيث لا نجدها لو حذفنا منه .

١ - انظر الكشاف ، ١٨١/٢ ؛ البحر المحيط ، ٢٢/٥ ؛ النهر الماد من البحر المحيط ، ٢٢/٥ ؛ نظم الدرر ، ٤٢٢/٨ ؛ فتح القدير ، ٣٤٧/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٥٤/١٠ .
٢ - انظر فتح القدير ، ٣٤٧/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٥٤/١٠ .

فالباء بما فيها من معنى الملايسة والمصاحبة تهمس بمعاني التهويل والتفطيع لأمره سبحانه وتكشف شدة غضب الله على هؤلاء الذين يؤثرون محبة هذه الأمور المذكورة في الآية على الجهاد في سبيل الله ، كأنه قيل حتى يأتي الله مصاحباً له أمره .

وتقديم المسند إليه « الله » على الخبر الفعلي « لا يهدي القوم الفاسقين » للتأكيد لتكرار الإسناد .

وقوله « و الله لا يهدي القوم الفاسقين » جاء تذييلاً لتقرير مضمون ما قبله أي إذا أثرت محبة قرابتكم وأموالكم على محبة الله ورسوله والجهاد في سبيله فقد تحقق أنكم فاسقون مطبوعون على الفسق لا محالة و الله لا يهدي القوم الفاسقين ، وحصل بموقع التذييل بأن الذين يتركون الجهاد بالأسباب المذكورة تعريض بوصفهم بالفسق . <١>

الفصل الرابع
الترغيب في الإنفاق
والترهيب من البخل

المبحث الأول
الترغيب في الإنفاق
في القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترغيب الإنفاق في سبيل الله

رغب القرآن الكريم في الإنفاق وحث عليه وعني به في العهدين المكي والمدني مواكبة لتطور المجتمع المسلم ووفاءً بحاجاته ومتطلباته .

ففي العهد المكي كانت دعوته إلى الإنفاق دعوة عامة إلى ما تقتضيه الأخوة في الله من بذل وعطاء وتعاون ومساعدة للمحتاجين من فقراء المسلمين ، حيث يجود المؤمنون بأموالهم عن طيب خاطر وسماحة نفس .

وفي العهد المكي لم يحدد القرآن مقداراً يكون المسلمون ملزمين به ولا مصارف مالية ينفقون منها تاركاً ذلك إلى ما تجود به نفوسهم وإلى ما يحدثه الترغيب في نفوسهم من مسارعة للخير رغبة في الآخر والثواب .

أما في العهد المدني فقد فرض الله سبحانه فيه الزكاة على المسلمين وبين القرآن مصارفها وإلى ما تجب فيه الزكاة كالنقدين وعروض التجارة والمواشي والزروع ، وكان حديث القرآن عن الزكاة مجملاً ثم قامت السنة النبوية بتفصيله وتحديد مقادير الزكاة في كل نوع مما تجب فيه الزكاة .

وعلى الرغم من هذا التحديد الذي فصلته السنة النبوية فإنه لم يكن بديلاً من الدعوة العامة إلى الإنفاق لكنه كان تحديداً للمقدار الواجب الذي لا يجوز لأحد أن يتخلف عنه أو يبذل دونه ، وبقي باب الدعوة إلى الإنفاق مفتوحاً يرغب فيه القرآن ببيانه المعجز وبلاغته الساحرة ، وأصبحت كلمة الزكاة علماً على هذا القدر الواجب ، واستعملت كلمة الصدقة استعمالاً مشتركاً تطلق

على الزكاة كما تطلق على الإنفاق التطوعي المنبعث من رغبة خالصة في رضوان الله واستجابة للمعاني الكريمة التي غرسها الإسلام في النفوس . وقد حث القرآن على الإنفاق ورغب فيه وبين جزاءات المنفقين ومالهم في الآخرة من الأجر العظيم .

فكيف رغب القرآن عن طريق فن القول في الإنفاق في سبيل الله ؟ هذا ما سيكشف عنه الحديث في الصفحات القادمة بمشيئة الله وتوفيقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة و الله يضاعف لمن يشاء و الله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هاتين الآيتين ترغيب في الإنفاق في سبيل الله وذلك ببيان مضاعفة أجر المنفق أضعافاً مضاعفة « والله يضاعف لمن يشاء و الله واسع عليم » ثم بين الحق سبحانه أن هذه المضاعفة ليست لكل منفق بل هي خاصة لمن كان إنفاقه خالياً من المن والأذى وهؤلاء « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

تبدأ هذه الآية الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ولكنها لا تعتمد في دعوتها إلى أسلوب الأمر والإلزام - لأن النفس الإنسانية بطبيعتها تأبى الأوامر والنواهي - بل إلى أسلوب الترغيب واستجاشة المشاعر والانفعالات بتصوير المعنى في صورة شاخصة تستهوي الوجدان وتستميل القلوب . <٢>

ففي هذا التعبير القرآني تصوير لمضاعفة الإنفاق في سبيل الله في صورة حبة تلقى في تربة صالحة للزراعة فلا تلبث أن تكون زرعاً نضيراً سرعان ما تثمر سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

ولا يخفى ما في النظم من تشبيه تمثيلي وذلك بتشبيه مضاعفة أجر النفقة

١ - البقرة : ٢٦١ - ٢٦٢ .

٢ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٧ ؛ راجع في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٣٠٠ .

بحبة أنبتت سبع سنابل ، ثم إن هذه السنابل لطيبها وطيب معدن أرضها تراها مليئة بالحب ففي كل سنبله مائة حبة ، ففي الآية تشبيه تمثيلي طرفاه الهيئة المنتزعة من نفقة المنفق وما يترتب عليها من الأجر والثواب العظيم ، والهيئة الحاصلة من بذرة الحب تزرع في التربة الصالحة فتنتب سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ^(١) ، ووجه الشبه الزيادة والنماء في كل ، أما غرض التشبيه فهو بيان حال النفقة في الزيادة والنماء ، أو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، وهو كما ترى من تشبيه المعقول بالمحسوس لإبراز المعقول في صورة المحسوس لزيادة الاعتناء بالإنفاق والترغيب فيه . ^(٢)

ويرى الزمخشري أنه « لابد من حذف مضاف : أي مثل نفقتهم كمثل حبة أو مثلهم كمثل باذر حبة » ^(٣) غير أن الشيخ محي الدين زاده ردّ عليه مبيناً أن الحذف وإن لم يكن واجباً أحسن وأولى ليحسن ملاءمة المشبه به بقوله « ارتكاب الحذف إنما يجب لو كان المقصود تشبيه الذين ينفقون بنفس الحبة ، وليس كذلك لأن التشبيه المذكور في الآية من قبيل التشبيه المركب الذي لا يعتبر فيه تشبيه المفردات بعضها ببعض إلا أن اعتبار الحذف وإن لم يكن واجباً أحسن وأولى ليحصل ملاءمة الممثل بالممثل به . ^(٤)

وعدّ برهان الدين البقاعي الآية من الاحتباك بقوله « وتقديرها مثل الذين ينفقون ونفقتهم كمثل حبة وزارعها ، فذكر المنفق أولاً دليل على حذف الزارع ثانياً وذكر الحبة ثانياً دليل على حذف النفقة أولاً » . ^(٥)

-
- ١ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٧ : راجع الكشاف ، ٣٩٣/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٣٤١/٢ ؛ حاشية زاده ، ٥٧٦/١ ؛ التحرير والتنوير ، ٤١/٣ ؛ التصوير البياني ، ص ٩٨ .
 - ٢ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٧ ؛ أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨٤ ؛ نظرات في البيان ، ص ١١٥ ؛ روح المعاني ، ٣٢/٣ .
 - ٣ - الكشاف ، ٣٩٣/١ .
 - ٤ - حاشية زاده ، ٥٧٦/١ ؛ راجع حاشية الشهاب ، ٣٤١/٢ .
 - ٥ - نظم الدرر ، ٧٥/٤ ؛ راجع من أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨٤ .

ومن روائع النظم القرآني ما في التعبير عن المنفقين بالموصول « الذين ينفقون » جيء به اسماً موصولاً ولم يأت اسماً صريحاً « المنفقون » لتقرير الغرض المسوق له الكلام بوصفهم بالإنفاق والسخاء والبذل والعطاء ، والدلالة على سبق الإشارة إليهم في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم ... » <١> وإيثار التعبير بالمضارع « ينفقون » الدال على التجدد والاستمرار لاستحضار الصورة حتى كأنها ماثلة للعيان وإن الإنفاق دأبهم الذي لا ينقطع .

وفي الآية إيجاز حذف تقديره : مثل نفقتهم كمثل حبة لدلالة المقام عليه . وفي إضافة الأموال إليهم « أموالهم » إبراز لحبهم لها ، ومبالغة في « وصف إخلاص إنفاقهم وأنه نابع من ذاتهم لأن نفقة المال في سبيل الله لا يقدر عليها إلا مؤمن قوي الإيمان . لديه من الصبر والعزيمة ما يقاوم به شهوة حب المال ، وهناك سبب آخر هو : أن الإنفاق الذي يحمد عليه صاحبه هو ما كان من خالص ما له لا من مال غيره ، ففي الآية إشارة إلى طهارة أموالهم من الكسب الحرام . <٢>

و « في سبيل الله » قيد لازم في المشبه بل هو الموجب للأجر المضاعف ، فهو موضح للإنفاق المقبول عند الله الخالي من الرياء بسبب كونه في سبيل الله .

ونلاحظ أن البيان القرآني لم يقل « مثل الذين ينفقون أموالهم للفقراء والمساكين » وإنما قال « في سبيل الله » فأوجز في الأسلوب لأنه أبلغ في التعبير لأن في الإضافة تشريفاً وإغراءً وحثاً على الإنفاق « <٣> ، ونضيف أن في الحذف تعميماً يشمل جميع أنواع الخير .

١ - البقرة : ٢٥٤ ؛ راجع مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٣١ .

٢ - مناهج الدعوة ، ص ٢٣٢ .

٣ - راجع أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨٤ وما بعدها ؛ مناهج الدعوة ، ص ٢٣٢ .

كما أن في هذا التعبير « في سبيل الله » كناية عن كل ما فيه رضا الله سبحانه وتعالى ، فكل جهة للإنفاق يرضى الله عنها فهي في سبيله ، ومعلوم أن الكناية أبلغ من التصريح لتصويرها للمعنى وإبرازه وتأكيداه بالإضافة إلى ما فيها من إيجاز إذا قورنت بالتعبير الحقيقي عن المعنى . <١>

وتأمل روعة التصوير القرآني وطريقته الفريدة في الترغيب والحث على الإنفاق بتصوير مضاعفة الأجر في صورة محسوسة « كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة » وهذا ما أشار إليه الزمخشري وصرح به في قوله « وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها مائة بين عيني الناظر ، فإن قلت : كيف صح هذا التمثيل والممثل به غير موجود ؟ قلت : بل هو موجود في الدخن والذرة وغيرهما ، وربما فرخت ساق البرة في الأراضي القوية المغلة فيبلغ حبتها هذا المبلغ ، ولو لم يكن موجوداً لكان صحيحاً على سبيل الفرض والتقدير . » <٢>

ولعل في اختيار الحبة مشبهاً به إحياءً قوياً بأن المؤمن إذا أخلص قلبه لله ، وخلط الإخلاص بصالح العمل أنبت عمله كهذه الحبة المثمرة وتضاعف إنباته وأورق يقينه ، وأثر القرآن التعبير بالحبة لتكون مثلاً لإحياء الموات ، ففيها دليل على قدرة الله وترسيخ لليقين مع ما تشي به من معنى المضاعفة تلاؤماً مع السياق الذي فيه إحياء الأطيوار . <٣>

وهذا الكلام الذي ذكرته سابقاً ليس بعيداً عن أفق الآية الكريمة كما أنه ليس مبتور الصلة بما قاله علماؤنا السابقون فقد ذكر ذلك أبوحيان وهو يلمح صلة هذه الآيات بما قبلها حيث يقول « أعقب هنا ذكر الإحياء والإماتة بذكر النفقة في

١ - راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٨ .

٢ - الكشاف ، ٣٩٣/١ ؛ راجع البحر المحيط ، ٣٠٤/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٣٩٩/١ ؛ حاشية الشهاب ، ٣٤١/٢ ؛ حاشية زاده ، ٥٧٦/١ .

٣ - راجع أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨٥ - ١٨٧ بتصرف .

سبيل الله لأن ثمرة النفقة في سبيل الله إنما تظهر حقيقة يوم البعث « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً » ^{<١>} واستدعاء النفقة في سبيل الله مذكر بالبعث وحاض على اعتقاده لأنه لو لم يعتقد وجوده لما كان ينفق في سبيل الله ، وفي تمثيل النفقة بالحبّة المذكورة إشارة أيضاً إلى البعث وعظيم القدرة إذ هي حبّة واحدة يخرج الله منها سبعمائة حبّة ، فمن كان قادراً على مثل هذا الأمر العجيب فهو قادر على إحياء الموات بجامع ما اشتركا فيه من التغذية والنمو . ^{<٢>}

غير أننا نخالف أبا حيان في الجامع الذي ذكره ، فالجامع هو القدرة في كلا الأمرين لأن إحياء الموتى لا يكون بالتغذية والإنباء كالنبات . ^{<٣>}

وتتكبير « حبّة » للتعظيم ، وفي إسناد الإنبات إليها في قوله « كمثّل حبّة أنبتت سبع سنابل » مجاز عقلي علاقته السببية ، لأن المنبت هو الله سبحانه ، « لكن الحبّة لما كانت سبباً في الإنبات أسند إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض والماء » ^{<٤>} للإشارة « إلى أهمية السبب في وجود الفعل وذلك لأن الحبّة تقابل الصدقة فإذا أسند إليها الإنبات كان ذلك إيماءً إلى أهمية الصدقة باعتبارها سبب الأجر في تحقّقه للمتصدق » . ^{<٥>}

ومما يسترعي الانتباه أن القرآن أثر التعبير بقوله « سنابل » وفي سورة يوسف بقوله « سنبلات » وقد وضح الغرناطي الفرق بينهما بقوله « إن بناء آية البقرة على التكاثر فناسب ذلك ورود المفسر على ما هو من أبنية الجموع للتكاثر لحظاً للغاية المقصودة ، ولم يكن ما وصفه للقليل في الغالب ليناسب ما تلحظ فيه

١ - آل عمران : ٣٠ .

٢ - البحر المحيط ، ٢٠٣/٢ .

٣ - راجع مناهج الدعوة ، ص ٢٣٢ .

٤ - الكشاف ، ٣٩٣/١ .

٥ - أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٨ .

الغاية من التكثر ، أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا ، فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئي وهو قليل . <١>

بيد أنني أوافق بعض الباحثين في اعتراضه على ما ذكره الغرناطي قائلاً « لست أرى لكلامه - رضي الله عنه - وجهاً لأن العدد مذكور في الموضعين وهو « سبع » فلا اعتبار لقلته ولا كثرة ولو كان العدد غير مذكور لكان كلامه - رحمه الله - وجيهاً ، ولعل علة الاختلاف كامنة في اختلاف الأبنية ففي سورة يوسف « إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ... » <٢> ترى الجمع بالألف والتاء متكرراً قبل السنبلات فكان موافقاً هنا أن تجمع السنبلة بالألف والتاء ، وهي علة لفظية والعلة اللفظية مرادة في بعض المواضع . <٣>

وفي قوله « والله يضاعف لمن يشاء » إشارة إلى كرم الله سبحانه وتعالى حيث أطلق المضاعفة ولم يحددها بحد معين قد يشعر بالتوقف عنده زيادة في الترغيب في الإنفاق في سبيله ، والمعنى أن الله يضاعف الأجر هذه المضاعفة أو يزيد لمن يشاء على حسب ما يعلمه من إخلاص المنفق في الإنفاق .

وقد جاءت هذه الجملة معطوفة على قوله « كمثل حبة » لأنها المرحلة

الأخيرة للجزاء حيث تحمل معنى المضاعفة للجزاء المذكور سابقاً . <٤>

ويلاحظ ما في التعبير بالجملة الاسمية « و الله يضاعف » وتكرار الإسناد حيث أسندت المضاعفة إلى الله مرتين في هذا السياق من تأكيد للمعنى زيادة في

١ - ملك التأويل ، ٢٧٥/١ وما بعدها .

٢ - يوسف : ٤٣ .

٣ - أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨٦ .

٤ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٣٤ .

الترغيب في الإنفاق وتنبئها « إلى أسباب مضاعفة الأجر حثاً على إخلاص النية والتوجه بالصدقة خالصة لوجه الله أملاً في فضله الواسع » . <١>

وفي إثارة التعبير بصيغة المضاعفة في قوله « يضاعف » إشارة إلى أن هذا الجزاء يحتاج إلى مفاعلة بين الله سبحانه والمنفق ، وفي هذه المفاعلة ترغيب للمنفقين في مضاعفة الإنفاق الخالص لوجه الله من مالهم الحلال ، وترغيب لهم في الكسب الحلال ، ونلاحظ أن البيان القرآني لم يقل « يزيد » وإنما أثر الفعل « يضاعف » لأن الزيادة تشعر بعدم التكرار بل هي مرة واحدة فقط ، أما المضاعفة فتشعر باستمرار الجزاء مع المضاعفة .

وفي التعبير بالفعل المضارع « يضاعف » إيحاء إلى أن الجزاء يكون مستقبلاً في الآخرة ، أو للدلالة على استمراره وتجده .

أما حذف مفعول « يضاعف » فإفادة التعميم أي يضاعف له أنواع الخير كله وليس الأجر فقط ، ولو ذكر المفعول به لتحدد بشيء معين فحذفه أولى موافقاً لمقتضى الحال . <٢>

وفي قوله « لمن يشاء » ترغيب في إخلاص النية في العمل كما أن فيه إشارة إلى كرم الله وفضله وسعة علمه ، فهو يضاعف بفضله على حسب حال المنفق من تعب وعناء في كسب المال وإخلاصه في الصدقة . <٣>

وتأمل جمال الفاصلة القرآنية وملاعمتها للسياق في قوله « و الله واسع عليم » فهي تأكيد للمعاني السابقة فالله سبحانه واسع لا يضيق فضله عن مضاعفة الأجر ولا ينفد ما عنده من الخير ، وهو عليم بنية المنفق ومقدار إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقه فيجازي كل إنسان حسب علمه بحاله . <٤>

١ - أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٨ .

٢ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٣٥ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ١/٣٩٩ ؛ روح المعاني ، ٣/٣٢ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ١/٣٩٩ ؛ روح المعاني ، ٣/٣٢ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٩ .

وقد عطفت هذه الجملة على ما قبلها « مثل الذين » بالواو لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى . أما قوله « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فهو « استئناف جيء به لبيان كيفية الإنفاق الذي بين فضله في التمثيل المذكور » ^١ ، ولذلك فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال لأن الجملة الثانية وقعت عطف بيان على ما قبلها .

ونلاحظ أن المضاعفة ليست لكل منفق بل هي مقيدة بشرط هو أن تكون خالية من الرياء والسمعة والأذى ، فالمضاعفة ليست لكل منفق بل هي خاصة بمن كان إنفاقه خالصاً لوجه الله ، ولم يدفع إليه رياء أو حب للسمعة أو غيره من الدوافع التي تبطل الصدقة ، وتمحقها وتذهب بثوابها .

والمن : هو التذكير بالنعمة بأن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب بذلك حقاً .

والأذى : أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه ، ولعل السر من وراء تقديم المن على الأذى لكثرة وقوعه ، وتوسيط كلمة « لا » للدلالة على شمول النفي لإتباع كل واحد منهما . ^٢

لهذا نرى أن الله سبحانه وعد بعدم مضاعفة النفقة التي يتبعها صاحبها بالمن والأذى لما يترتب عليهما من ضرر للفرد والجماعة على حد سواء ، لأن المن « عنصر كراهة لئيم ، وشعور خسيس ، فالنفس الإنسانية لا تمن بما أعطت إلا رغبة في الاستعلاء الكاذب أو رغبة في إذلال الآخذ ، أو رغبة في لفت أنظار الناس ، فالتوجه إذن للناس لا لله بالعطاء ... ، فلذلك لا تقبل صدقة المرائي ، لأن المن يحيل الصدقة أذى للواهب بما تثير في نفسه المريضة من كبر وخيلاء ، ورغبة

١ - تفسير أبي السعود ، ٢٩٩/١ .

٢ - السابق الموضع نفسه ؛ راجع روح المعاني ، ٢٣/٣ .

في رؤية أخيه ذليلاً له كسيراً لديه ، وبما يملأ قلبه بالإنفاق والرياء والبعد عن الله ، وأذى للآخذ بما تثير في نفسه من انكسار وانهزام ، ومن رد فعل بالحق والانتقام ، وما أراد الإسلام بالإنفاق مجرد سد الخلة وملء البطن وتلافي الحاجة ، كلا ! إنما أرادته تهذيباً وتزكية وتطهيراً لنفس المعطي واستجاشة لمشاعره الإنسانية وارتباطه بأخيه الفقير في الله وفي الإنسانية ... ، وسداً لخلة الجماعة كلها لتقوم على أساس من التكافل والتعاون ... ، والمن يذهب بهذا كله ويحيل الإنفاق سماً وناراً ، فهو أذى وإن لم يصاحبه أذى آخر باليد أو باللسان ، هو أذى في ذاته يحق الإنفاق ويمزق المجتمع ويثير السخائم والأحقاد . <١>

أما التعبير بـ « فإظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى » <٢> ، فالزمخشري يرى أن « ثم » للتراخي في الرتبة لا في الزمان ، أما ابن المنير فله رأي آخر يخالف فيه الزمخشري بقوله « ثم » في أصل وضعها تشعر بتراخي المعطوف بها عن المعطوف عليه في الزمان وبعدما بينهما ، والزمخشري يحملها على التفاوت في المراتب والتباعد بينهما حيث لا يمكنه حملها على التراخي في الزمان لسياق يأبى ذلك ، كهذه الآية ، وحاصله أنها استعيرت من تباعد الأزمنة لتباعد المرتبة ، وعندني فيها وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه فهي على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن ، ولكن معناها الأصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدثه ، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقاءه ، وعليه حمل قوله تعالى « ثم استقاموا » أي داموا على الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد ، وتلك الاستقامة هي المعتبرة لا ما هو منقطع إلى ضده من الحيد إلى الهوى والشهوات ، وكذلك قوله « ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى » أي يداومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان ليسوا بتاركيه في أزمنة إلى الإذابة... <٣>

١ - انظر في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٢٠٠ وما بعدها بتصرف يسير .

٢ - الكشاف ، ٣٩٤/١ .

٣ - الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بهامش الكشاف ، ٣٩٣/١ .

وقوله « لهم أجرهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » إكمال لبيان ما يترتب على الإنفاق من ثمرات طيبة مبالغة في استمالة القلوب ، فليست مضاعفة الأجر كل ما يناله المنفق بل له بجانب ذلك أن يأمن فلا يخاف ويرضى فلا يحزن <١> ، والمعنى أنهم لا يعترتهم ما يوجب الخوف أو الحزن أصلاً . <٢>

وتقديم الخبر « لهم » على المبتدأ « أجرهم » للقصر أي لهم الأجر لا لغيرهم . وفي تكرير الإسناد وتقييد الأجر بقوله « عند ربهم » من التأكيد والتشريف ما لا يخفى ، ولتعجيل المسرة إلى نفوسهم بأن لهم أجراً عند ربهم .

ومن لطائف النظم القرآني أنه كان مقتضى الظاهر أن يدخل الفاء في قوله « لهم أجرهم » لتضمن الموصول معنى الشرط لكنه عدل عن ذلك « للإيدان بأن ترتيب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك المن والأذى أمر بين لا يحتاج إلى التصريح بالسببية » <٣> أو للإيهام « بأن هؤلاء المنفقين مستحقون للأجر لذواتهم ما ركز في نفوسهم من نية الخير » . <٤>

وتقديم المسند إليه المسبوق بالنفي « ولا هم » على الخبر الفعلي « يحزنون » يفيد التخصيص مع تقوي الحكم ، أي هم لا يحزنون وإنما غيرهم ، وقد صرح بذلك ابن كمال باشا في تفسيره « قدم انتفاء الخوف على الحزن لأن انتفاء الحزن فيما هو أت أكثر من انتفاء الحزن على ما فات ولذلك أبرزت الجملة الأولى مصدرًا بالنكرة التي هي أدخل في باب النفي وأبرزت الجملة الثانية مصدرًا بالمعرفة وفيها إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وإلى غيرهم بالحزن . <٥>

١ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ١٩٩ .

٢ - راجع تفسير أبي السعود ، ٤٠٠/١ .

٣ - المصدر السابق الموضع نفسه .

٤ - روح المعاني ، ٣٣/٣ .

٥ - البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا ، ص ١٥٦ .

وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل و الله بما تعملون بصير ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآية الكريمة حال المنفقين أموالهم طلباً لمرضاة الله عز وجل بأن نفقتهم كثرت أو قلت تؤتي ثمارها حيث يضاعف الله لهم الأجر والثواب كما يضاعف المطر الغزير أو القليل ثمر الجنة .
خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يتخذ القرآن التشبيه طريقاً للتأثير في النفس الإنسانية لإبرازه الأمور المعنوية في صورة محسوسة على نحو ما يتضح من سياق هذه الآية الكريمة .

ففي الآية بيان وتصوير لحال المنفق ، فقلبه عامر بالإيمان ، ينفق ماله « ابتغاء مرضات الله » وينفقه عن ثقة ثابتة في الخير نابعة من الإيمان ، وقلب المؤمن تمثله جنة خصبة عميقة التربة أصابها وأحياها مطر غزير أو طل خفيف يزيدها حياة ونماءً وخصوبة ، كذلك تحي الصدقة قلب المؤمن فيزكو ويزداد صلة بالله ، ويزكو ماله ويضاعف له الله ما يشاء . <٢>

ففي هذا النظم الكريم تشبيه تمثيلي حيث شبهت النفقة ابتغاء مرضات الله بجنة بربوة عالية فهي نقية التربة ، إذا أصابها وابل تشربت منه ما تزداد به خصوبة وتركت الباقي ينحدر إلى القيعان ، فإذا لم يصبها وابل فطل فهي لا تنظماً أبداً ، وهي مخصبة في كل حال نامية مثمرة . <٣>

١ - البقرة : ٢٦٥ .

٢ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الأول ، ص ٢٠٢ .

٣ - راجع التصوير البياني ، ص ١٠٠ وما بعدها .

« ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكامل بها تضعيف المنفعة ، فالهيئة المشبهة هي النفقة التي حف بها طلب رضى الله والتصديق بوعدہ فضوعفت أضعافاً كثيرة أو دونها في الكثرة ، والهيئة المشبهة بها هي هيئة الجنة الطيبة المكان التي جاءها المطر فزكا ثمرها وتزايد . » <١>

أما غرض التشبيه فهو بيان حال صاحب النفقة الطيبة في ذهن السامع وذلك بإبراز المعنوي في صورة الحسي مع تزيين المشبه . <٢>

وحين ننظر في عناصر الصورة التشبيهية نجدها مستمدة من الطبيعة ولعل ذلك هو سر جمالها وتأثيرها ، فهي مكونة من الجنة والريوة العالية والوابل والطل والثمار اليانعة ، فالصورة « مستلة من طبيعة الأرض في قسوتها وبركتها وممتزجة بعوامل المناخ في تقلباته وهباته ، ولكنها تترصد أيضاً مناخ المرء في سلوكه ، وتتلبث طبيعة الإنفاق في أسلوبه فما كان جافاً غليظاً منهما شبه بمثله وهو الحجر الصلد ، وما جاء متفتحاً متبرعماً شبه بمثله وهو البقعة الطيبة في نشز من الأرض تغادياها السحب ويراوحها الغيث والندى . » <٣>

وقد استهلكت الآية الكريمة مطلعها بقوله تعالى « ومثل الذين ينفقون أموالهم » وقد سبق لنا بيان ما في هذا التعبير القرآني من أسرار بلاغية عند الحديث عن نظيرتها التي سبق تحليلها ، لكن الذي يلفت أنظارنا أن هذه الجملة جاءت مصدرة بحرف « الواو » ويبدو أنها للاستئناف وليست للعطف لبيان الإنفاق المقبول عند الله سبحانه وتعالى بعد الحديث عن الإنفاق الذي لا يستحق صاحبه الأجر والثواب وهو إنفاق الرياء والسمعة .

١ - التحرير ، ٥٢/٣ .

٢ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨٩ .

٣ - أصول البيان العربي ، ص ٨٤ ، للدكتور محمد حسين علي الصغير .

أما قوله « إبتغاء مرضات الله » فهو يوضح بجلاء نفسية المنفق ويبين معدنها الكريم ، فهو ينفق رغبة في مرضات الله عز وجل ، وإبتغاء إما أن تكون مفعولاً لأجله وإما أن تكون حالاً والتقدير لأجل مرضات الله أو حالة كونهم طالبين له .

وتأمل روعة النظم الفني في القرآن ودقة تصويره حيث عبر عن الرضا بالمصدر الميمي « مرضات » للإشارة إلى أن الرضا المطلوب هو رضا كثير ولذلك جاء على هذا النحو ، وإظهار اسم الجلالة لتأكيد إخلاص النية له سبحانه « <١> » ، وفي الآية إيجاز حذف تقديره : ينفقون أموالهم ليطلبوا بها مرضاة ربهم . <٢>

وقد عطف قوله « وتثبيتاً من أنفسهم » على قوله « إبتغاء مرضات الله » ، ومعلوم أن التثبيت يكون من الله سبحانه وتعالى وقد صرح بذلك القرآن الكريم في قوله تعالى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » <٣> لكن في إسناد التثبيت إليهم إيماءً إلى شدة مقاومتهم شهوة حب المال لأن المال شقيق الروح وبذله أشق شيء على النفس ، فهم كالساعين إلى تثبيت الإيمان لأنهم بهذه المقاومة يثبتون أنفسهم على الإيمان ، ولذلك كان إنفاق المال تثبيتاً لأنفسهم على الإيمان واليقين . <٤>

أما « من » في قوله « من أنفسهم » فللمفسرين فيها أقوال عديدة : الأول : أن تكون للتبعيض كما في قولهم « هز من عطفه وحرك من نشاطه » والمعنى أن الإنفاق في سبيل الله بعض من تثبيت النفس فمن بذل ماله ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه ثبتها كلها .

١ - انظر مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٢٧ .

٢ - انظر حاشية زاده ، ص ٥٧٨/١ .

٣ - إبراهيم : ٢٧ .

٤ - انظر الكشاف ، ٢٩٤/١ : مناهج الدعوة ، ص ٢٢٧ .

الثاني : أنها لابتداء الغاية أي تثبيتاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من أصل

أنفسهم وقلوبهم كما في قوله تعالى « حسداً من عند أنفسهم » . <١>

الثالث : أن تكون بمعنى اللام والمعنى توطيئاً لأنفسهم على طاعة الله

تعالى ، وقد نسب الألويسي هذا القول لأبي علي الجبائي * . <٢>

ولعل ما ذهب إليه أبو علي الجبائي بأن « من » بمعنى « اللام » من أولى

هذه الأقوال وأقر بها إلى السياق لأن لها في هذا السياق مذاقاً وهمساً لا نجده

لو قلنا إنها للتبويض أو لابتداء الغاية ، فهي تشير إلى أن حكمة الإنفاق للمنفق هي

تزكية نفسه وتطهيرها من البخل وحب المال الذي هو رأس كل خطيئة . <٣>

وأرى أن الأولى أن تكون « من » بيانية أي منشأ الإنفاق رغبتهم الخاصة

في إرضاء الله ، فإنفاقهم ليس له باعث خارجي سوى الإيمان المستقر في قلوبهم

و الله أعلم .

وتعريف كلمة « نفس » بالإضافة إلى ضميرهم للإشارة إلى تعظيمهم

وللمبالغة في بيان إخلاصهم في الإنفاق .

بهذا القدر ينتهي الجزء الخاص بالمثل له « وهو جزاء المنفقين ابتغاء

مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم » بعد ذلك ينتقل البيان القرآني إلى الجزء الخاص

بالمثل به في قوله تعالى « كمثل جنة بربوة ... »

١ - البقرة : ١٠٩ .

* هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن عبد السلام بن خالد بن حمد بن أبان الجبائي ، شيخ المعتزلة ،

كان فقيهاً ورعاً وإليه تنسب طائفة الجبائية من المعتزلة ولد سنة ٢٢٥ وتوفي سنة ٢٠٢ هـ ، انظر

ترجمة في وفيات الأعيان ، ٢٦٧/٤ - ٢٦٩ : الأعلام ، ٢٥٦/٦ .

٢ - انظر الكشف ، ٣٩٥/١ : البحر المحيط ، ٣١١/٢ : تفسير أبي السعود ، ٤٠٢/١ : حاشية

الشهاب ، ٣٤٢/٢ : روح المعاني ، ٣٥/٣ وما بعدها .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٠٢/١ : روح المعاني ، ٣٦/٣ : مناهج الدعوة ، ص ٢٢٧ .

وسر تنكير كلمتي « جنة » و « ربوة » للتعظيم والتفخيم ، والجنة هي البستان والربوة هي « المكان المرتفع » و « خصّها لأن الشجر فيها أولى وأحسن ثمراً » . <١>

وليس من شك في أن التعبير بالجنة يلقي في النفس الشعور بالراحة والبهجة والسرور لما يحدثه ما فيها من جمال ونماء وخير وافر ، وتقيد الجنة بأنها « ربوة » لزيادة استكمال جوانب الحسن والجمال فيها لأن أشجار الربى تكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطافة هوائها وعدم كثافته بركوده . <٢>

وجملة « أصابها وابل » في محل جر صفة للجنة ، وفي التعبير عن نزول المطر على الربوة بالإصابة مجاز عقلي علاقته المفعولية ، لأن المصيب هو الله سبحانه ولكنه أسند الإصابة إلى المطر للدلالة على غزارته وللإشارة إلى أنه مطر خاص بهذه الربوة ولا يقصد سواها ، فهو مصوب إلى الجنة لا إلى غيرها .

ولا يخفى مافي هذا التعبير من إيجاز بالحذف لأن أصل الكلام : أصاب أشجارها فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأخذ مكانه من المفعولية وذلك لإبراز غزارة المطر وللمبالغة في أثره حتى كأن الجنة كلها أشجار . <٣>

ونلاحظ أن المفعول به في قوله « أصابها وابل » قد تقدم على الفاعل وجيء به مضمراً لسبق الحديث عنه والمعنى أصاب الجنة ، أما سر تقديمه على الفاعل « وابل » لأنها المقصودة لأن الغرض هنا بيان جزاء المنفق ، وتنكير كلمة « وابل » للتعظيم أي مطر عظيم القطر . <٤> ، وكلمة وابل ليس فيها إيجاز قصر كما ذهب بعض الباحثين لأن معناها في اللغة المطر الغزير . <٥>

١ - انظر الكشاف ، ١/٢٩٥ .

٢ - انظر تفسير روح المعاني ، ٢/٣٦ : أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٠٣ .

٣ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٢٨ .

٤ - انظر الكشاف ، ١/٢٩٥ : تفسير أبي السعود ، ١/٤٠٢ .

٥ - انظر مناهج الدعوة ، ص ٢٢٨ .

ثم تأمل ما تومض به الفاء من السرعة في قوله « فأتت أكلها ضعفين » فهي للسببية مع العطف الفوري ، وقد دلت في هذا السياق على سرعة انتفاع الأرض بالمطر فهي لم تمكث إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أينعت وأثمرت أشجارها وانتفع الناس من حصادها الكثير ، فالفاء دالة على أن الجنة ما إن أصابها المطر حتى أتت أكلها ضعفين .

وأضمر الفاعل لسبق الحديث عنها وهي الجنة ، وأضيف إليها المفعول به لأنها محله أو سببه لتأكيد أن المضاعفة خاصة بإنبات هذه الجنة . <١>
وآثر البيان القرآني التعبير بالماضي « أصابت ، وآتت » للدلالة على أن الانتفاع لا يكون إلا بعد حدوث الفعل ، والمضي يفيد هنا تحقق الجزاء لكل من ينفق ابتغاء مرضات الله سبحانه وتعالى .

ومن بلاغة النظم القرآني إثارة التعبير بالفعل « آتت » على قولنا « أعطت » ليشير إلى أنها من شدة كرمها سعت بالعطاء إلى المستحقين . <٢>
كما أن هذا الفعل بجرسه السريع لخفته وسرعة انزلاقه على اللسان مناسب لهذه السرعة التي اقتضاها المقام .

أما قوله « فإن لم يصبها وابل فطل » فهو يشير إلى انتفاع الجنة بالكثير والقليل من المطر ، فلا يشترط فقط « الواابل » بل إن « الطل » يكفي لاستمرار خيرها ، وتنويع المطر بين الواابل والطل دال على أن النفقة جلت أو قلت توتى ثمارها مضاعفة في الأجر لصدورها عن نية طيبة كما يضاعف المطر الكثير أو القليل ثمر الجنة لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها . <٣>

ويفيد التنكير في كلمتي « وابل » و « طل » التعظيم ، فالطل رغم أنه قليل فإن أثره عظيم على هذه الجنة . <٤>

١ - انظر روح المعاني ، ٣٦/٣ .

٢ - راجع مناهج الدعوة في القرآن ، ص ٢٣٨ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٠٢/١ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٣٩ .

٤ - راجع مناهج الدعوة ، ص ٢٣٩ .

واختلف المفسرون في إعراب كلمة « طل » لأن الفاء واقعة في جواب الشرط ولا بد من حذف بعدها لتكتمل الجملة ، فقليل : إنها مبتدأ وخبره محذوف تقديره : فطل يصيبها ، وقيل : فاعل بفعل مضمّر تقديره : فيصيبها طل ، وقيل : خبر لمبتدأ محذوف تقديره : فالذي يصيبها طل . <١>

وعلى هذا فإن في الجملة إيجازاً بالحذف تقديره : فإن لم يصبها وابل فالذي يصيبها طل .

وقد جاء التعقيب على هذه الآية الكريمة بهذه الفاصلة الرائعة بقوله تعالى « و الله بما تعملون بصير » فهي تذييل مقرر لمضمون ما قبله ولذلك استؤنفت الفاصلة القرآنية لتأكيد مضاعفة الله للمنفيين ابتغاء مرضاته الجزاء أضعافاً مضاعفة .

وجيء بالجملة إسمية مصدرية بلفظ الجلالة للتأكيد والتقوية ، ونلاحظ أن الجار والمجرور « بما تعملون » قد تقدم على المسند « بصير » لبيان أهمية المتقدم لكي لا يشك المخاطب في أن الأعمال التافهة أو الصغيرة التي يعملها الإنسان في خفاء عن الناس لا يعلمها الله بل هي معلومة لدى البصير الخبير

وآثر القرآن التعبير بالفعل المضارع « تعملون » للدلالة على الحال والاستقبال ، فكل جيل مخاطب بهذه الآية ، وإفادة التجدد فليس المقصود علم الله بالماضي وحسب بل بالأعمال الحاضرة والمستقبلية لأنه عليم بخفايا النفس فهو يعلم السر وأخفى . <٢>

ففي هذه الفاصلة القرآنية ترغيب في الإخلاص في الإنفاق وترهيب وتحذير من كل ما يحيط الإنفاق من رياء أو من أذى . <٣>

١ - انظر حاشية الشهاب ، ٢/٢٤٣ .

٢ - راجع تفسير أبي السعود ، ١/٤٠٣ ؛ روح المعاني ، ٢/٢٦ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٠٣ .

٢ - راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٠٣ .

قال تعالى : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير* وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * ... ، وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى و الله بما تعملون خبير ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تدعو هذه الآيات المؤمنين إلى الإيمان بالله وتحثهم على الإنفاق في سبيل الله مؤكدة أن المال مال الله وأنه وديعة في يد الإنسان استخلفه الله فيه ، وأن الرسول بين ظهرانيهم يدعوهم إلى الإيمان بالله فهما بلا شك من الحوافز والدواعي الداعية إلى الإيمان بالله والإنفاق في سبيله ، ثم تنتقل لتسأل المؤمنين - في أسلوب يومض بالتوبيخ والتعجيب - عن السبب الذي يعوقهم عن تحقيق الإيمان الكامل والإنفاق التام الذي يزيد في درجات المؤمن عند الله ويحقق لهم الأمل المنشود في رضوان الله تعالى ، ثم تشير إلى انتفاء استواء من أنفق في سبيل الله من قبل الفتح وقاتل المشركين بمن أنفق من بعد وقاتل فأولئك أعظم درجة وكلاً وعد الله الحسنى . <٢>

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

تفتتح الآية الكريمة بدعوة المؤمنين إلى الإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيله ، فالأمر في قوله « آمنوا وأنفقوا » يفيد الدوام والإلهاب والتهيج لأن المخاطبين مؤمنون أصلاً ، والمراد بالأمر الثبات على الإيمان والزيادة منه ، وهذا

١ - الحديد : ٧ ، ٨ ، ١٠ .

٢ - راجع إيجاز البيان في سور القرآن للشيخ محمد على الصابوني ، ص ٢٢٤ .

الأسلوب أبلغ من الأمر بالثبات على الإيمان لأن فيه إثارة للمشاعر والعواطف والوجدان .

وفى قوله « أنفقوا » إيجاز حذف حيث حذف المفعول به للعلم به تقديره : وأنفقوا بعضاً من مال الله الذي جعلكم خلفاء فى التصرف فيه .

وفى التعبير بقوله « مستخلفين فيه » كناية عن المال الذي بين أيديهم لأن المال مال الله ، وفى العدول عن التصريح إلى الكناية إشارة إلى أن الله سبحانه جعلهم خلفاء فى التصرف فيه من غير أن يملكوه حقيقة ، وإنما عبر عما بأيديهم من الأموال بذلك تحقيقاً للحق وترغيباً لهم فى الإنفاق فإن من علم أنها لله عز وجل وإنما هو بمنزلة الوكيل يصرفها إلى ما عينه الله من المصارف هان عليه الإنفاق ، أو جعلكم خلفاء لمن قبلكم بتوريثه إياكم فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى من بعدكم فلا تبخلوا به » .^١ وكلا الوجهين لا ياباهما السياق إلا أن الأولى الأولى بالمقام .

ولا يخفى ما فى هذا التعبير القرآني من إلهاب وتهيج حيث قال « أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ولم يقل « أنفقوا من أموالكم » زيادة فى حثهم على الإنفاق لأن المال ليسوا هم مالكيه وإنما مال الله ، و الله سبحانه يأمرهم بإنفاقه فوجب عليهم أن يمتثلوا لذلك كما يمتثل الخازن أمر صاحب المال إذا أمره بإنفاق شيء منه إلى من يعينه .^٢

والفاء فى قوله « فالذين آمنوا » تفرعية سببية على الأمر بالإيمان والإنفاق كأنه قيل لأن الذين آمنوا وأنفقوا أعتدنا لهم أجراً كبيراً .

وفى هذا البيان القرآني لمسة موحية لمشاعرهم ترغبهم فيما دعوا إليه من الإنفاق فى سبيل الله بأخبارهم بما أعد الله لهم من أجر كبير ، وعلى هذا

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٧٢/٥ .

٢ - راجع التحرير والتنوير ، ٢٦٩/٢٧ .

لا أتصور أن يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل والعطاء في مواجهة هذا الكرم والفضل ! . <١>

ويرى بعض المفسرين أن « من » في قوله « منكم » للتبعيض أي فالذين آمنوا وهم بعض قومكم ، وفي هذا إغراء لهم بأن يماثلوهم . <٢>

غير أن الأحسن والأبر بالسياق أن تكون « من » بيانية لأن الخطاب للمؤمنين وإن كان شاملاً للمؤمنين في كل زمان .

وفي التعبير بقوله « أنفقوا » إيجاز حذف حيث حذف المفعول به للعلم به تقديره : أنفقوا المال . وقد عمد النظم القرآني إلى حذف المفعول به ليشمل جميع المفعولات اللائقة بالمقام سواء أكان مالا أم طعاماً أم لباساً .

وتقديم الجار والمجرور « لهم » على قوله « أجر كبير » يحتمل أن يراد منه القصر التنزيلي ، أو أن يراد به التوكيد لأن غيرهم ممن يفعل الطاعات وليس لديهم قدرة على الإنفاق لهم أجر كبير أيضاً على ما قدموا من طاعات أخرى .

ويلاحظ ما في هذا الوعد الكريم من تأكيدات كثيرة مبالغة في تحقيق هذا الوعد وبعثاً للثقة فيه لتتحقق استجاباتهم لما يدعون إليه حيث جعل الجملة إسمية ، وأعاد ذكر الإيمان والإنفاق وكرر الإسناد ، وفخم الأجر بالتنكير ووصفه بالكبير زيادة في استمالة نفوسهم وحثاً لهم على الترغيب في الإنفاق في سبيل الله . <٣>

والاستفهام في قوله « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » لإنكار تباطؤهم في الإيمان بالله ، وهو مشوب بالتوبيخ لهم والتعجيب من حالهم والمعنى أي عذر لكم في عدم الإيمان وكل

١ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد السادس ، ص ٢٤٨٣ .

٢ - انظر تحرير والتنوير ، ٢٦٩/٢٧ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٧٢/٥ ؛ تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، ١٥٤/٨ ؛ أسلوب

الدعوة القرآنية ، ص ٢١٧ .

دواعيه متوفرة لديكم ، فالرسول بينكم يدعوكم إليه و الله تعالى قد أخذ عليكم الميثاق . <١> ، وفيه فوق ذلك الحث والإغراء على المطلوب .

أما قوله « والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم » فهو حال من ضمير « لا تؤمنون » قصد به توبيخهم على الكفر مع تحقق ما يوجب عدمه بعد توبيخهم عليه مع ما يوجب عدمه أي وأي عذر لكم في ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه وينبهم عليه . <٢> ، وفيه الإيماء إلى توافر سبب الإيمان لديهم وليس من شك في أن وجود الرسول بينهم من أكبر موجبات الإيمان ويحمل على الاستجابة له والإيمان به . وفي إضافة « رب » إلى ضمير المخاطبين حث لهم على الاستجابة وتذكير لهم بفضله عليهم ورعايته لهم . وما عليه النظم الكريم أبلغ مما لو قلنا « آمنوا بالله » لأنه أوقع الإيمان على « رب » الذي رباهم ورعاهم ، ففيه قرن للدعوة بالدليل ولكل اسم من أسماء الله الحسنی خاصة يتشع بها .

أما قوله « وقد أخذ ميثاقكم » فهو سبب آخر يدعو للإيمان ويوجبه عليهم ، والمقصود بأخذ الميثاق هو ما صرح به قول الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم بقوله « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » . <٣>

وجواب الشرط في قوله « إن كنتم مؤمنين » محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي إن كنتم مؤمنين لموجب ما فهذا موجب لا موجب وراءه ، أو إن كنتم ممن يؤمن فمالكم لا تؤمنون والحالة هذه هي دعاء الرسول وأخذ الميثاق ، أو إن كنتم مستجيبين لدواعي الإيمان فليس هناك ما هو أقوى من هذه الدواعي . <٤>

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٧٢/٥ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٢٧٢/٥ .

٣ - الأعراف : ١٧٢ ؛ راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢١٨ .

٤ - انظر الكشاف ، ٦٢/٤ ؛ البحر المحيط ، ٢١٨/٨ ؛ تفسير أبي السعود ، ٢٧٢/٥ ؛ روح المعاني ،

١٠٧/٢٧ ؛ أسلوب الدعوة ، ص ٢١٩ .

وتفويض جملة الشرط بمعاني الالهاب والتهيج والحث بحيث لا تخفى على المتأمل .

بعد ذلك يواصل البيان القرآني دعوته في ترغيب المؤمنين بمنهجه الفريد وسياسته الحكيمة في استمالة القلوب واستجاشة المشاعر نحو الإنفاق في سبيل الله بقوله « وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله مـيراث السموات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى و الله بما تعملون خبير » .

هذه الآية تشير إلى حقيقة عظيمة وهي أن ميراث السموات والأرض لله سبحانه وأن كل شيء راجع إليه ، وهذا المال الذي استخلفوا فيه سيؤول إليه لا محالة في هذا الميراث ، فما لهم لا ينفقون في سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذي يبقى من دواعي الشح والبخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب ؟ <١>

والاستفهام في قوله « ما لكم » مستعمل في التوبيخ على تركهم الإنفاق في سبيل الله بعد توبيخهم على ترك الإيمان ، فهو يتساءل في استنكار أي عذر لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله ؟ ويتضمن ترقيق مشاعرهم نحو مادعوا إليه .

وأن في قوله « ألا تنفقوا » ليست زائدة كما ذهب الأخفش وإنما مصدرية ناصبة ، والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب أوجر تقديره : في أن لا تنفقوا <٢> ، وعلى ذلك فإن في الآية تضميناً لفعل آخر ولذلك جيء بأن تقديره : ما الذي دعاكم إلى أن لا تنفقوا .

غير أن القول بالتضمين – كما ذهب بعض الباحثين – لا يعدو أن يكون محاولة لإيجاد وجه يصح معه وقوع الحرف في غير موضعه لا بحثاً عن أسرار

١ – انظر في ظلال القرآن ، المجلد السادس ، ص ٣٤٨٤ .

١ – انظر البحر المحيط ، ٢١٨/٨ ؛ الفتوحات الإلهية ، ٢٨٧/٤ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٤٥٥/٢٧ .

البلاغة في العدول عن الحرف المعهود في مكانه ، كما أنه لا ينهض للكشف عن أسرار النظم ودواعيه . <١>

ومعنى « ما لكم الا تنفقوا » ما لكم لا تنفقوا ، لكن ما السر من مجيء « أن » في هذا النظم القرآني ؟ أرى و الله أعلم أن مجيء « أن » في هذا السياق يشير إلى عزوفهم وتباطؤهم عن الإنفاق ولهذا جاء النظم المعجز يوبخهم ويلومهم على ترك الإنفاق ويحثهم عليه .

ومفعول « ألا تنفقوا » محذوف دل عليه المقام ، أما تعيين جهة الإنفاق بقوله « في سبيل الله » فلتشديد التوبيخ عليهم أي وأي شيء لكم في ألا تنفقوا فيما هو قربة لله تعالى . <٢>

وفي التعبير بقوله « في سبيل الله » كناية عن وجوه الخير ، كناية عن موصوف ، والكناية أبلغ من التصريح لأنها دلت على حصر ما يتعذر ذكره . ولا مانع أن يكون فيه أيضاً إيجاز قصر .

ويأتي قوله « ولله ميراث السموات والأرض » بياناً لداع جديد من دواعي الإنفاق وهذه الجملة حالية من فاعل « لا تنفقوا » ومفعوله ، والمراد بها توبيخهم على ترك الإنفاق فإن ترك الإنفاق مع عدم وجود سبب قبيح منكر ، والامتناع مع وجود الداعي للإنفاق أشد في القبح وأدخل في الإنكار ، لأن بيان بقاء جميع ما في السموات والأرض من الأموال بالآخرة لله عز وجل من غير أن يبقى من أصحابها أحد أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم من بيان أنها لله تعالى في الحقيقة وهم خلفاؤه في التصرف فيها كأنه قيل : وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء بل تبقى كلها لله تعالى . <٣>

١ - انظر من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ٢٧ وما بعدها .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٧٣/٥ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٢٧٣/٥ وما بعدها : راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٠ .

وفي التعبير بقوله « ميراث » صورة رائعة حيث شبه ما في أيديهم من المال بتركه وانتقاله إلى الله تعالى بتشبيه إنتقال المال من المورث للوارث على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والاستعارة أبلغ من الحقيقة لتصوير المعنى ولتذكيرهم بالموت وما يعقبه مما يحمل على الاستجابة والامتثال لأمره . <١>

وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله « والله ميراث السموات والأرض » حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول « وله ميراث السموات والأرض » لكنه عدل عن ذلك لزيادة التقرير ولتربية الروعة والمهابة في نفوس المخاطبين . <٢>

وتقديم « لله » على قوله « ميراث السموات والأرض » لإفادة الحصر أي لله وحده ميراث السموات والأرض لا لغيره ، فهو قصر حقيقي تحقيقي .

« وإضافة ميراث إلى السموات والأرض من إضافة المصدر إلى المفعول ، وهو على حذف مضاف تقديره : أهلها وليس المراد ميراث ذات السموات والأرض لأن ذلك إنما يحصل بعد انقراض الناس فلا يؤثر في المقصود من حثهم على الإنفاق » . <٣>

أما التعبير بقوله « لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى و الله بما تعملون خبير » فلبيان « تفاوت درجات المنفقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق بعد بيان أن لهم أجراً كبيراً على الإطلاق حثاً لهم على تحري الأفضل ، وعطف القتال على الإنفاق للإيذان بأنه من أهم أبواب الإنفاق أصلاً » . <٤>

١ - راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٠ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٧٤/٥ .

٣ - التحرير والتنوير ، ٢٧٣/٢٧ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ٢٧٤/٥ .

وحذف مفعول « أنفق » وقاتل « لظهوره ودلالة ما بعده عليه تقديره : أنفق بعضاً من المال وقاتل أعداء الله .

وفي هذه الآية إيجاز حذف تقديره : لا يستوى منكم من أنفق بعضاً من ماله من قبل الفتح وقاتل أعداء الله بمن لم ينفق ولم يقاتل في سبيل الله .

وتقديم « منكم » على « من أنفق » للإهتمام والعناية به قدم عليه تعجيلاً لهم بهذا الوصف . <١> وتعريف « الفتح » بأل للعهد الذهني والمراد به فتح مكة .

والتعبير باسم الإشارة « ذلك » الدال على البعيد للإشارة إلى رفعة منزلتهم عند الله وأثر النظم القرآني التعبير باسم الإشارة « أولئك » دون الضمير لما تؤذن به الإشارة من التنويه والتعظيم ، وللتنبية على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة من صفات . <٢>

وفي قوله « وكلاً » إيجاز حذف تقديره : وكل فريق من الفريقين وعده الله الحسنى ، كما أن في التعبير بقوله « وعد الله الحسنى » إيجازاً بالحذف حيث حذف المفعول الأول للفعل « وعد » تقديره : وعدهم الله الحسنى .

وختمت الآية الكريمة بقوله « و الله بما تعملون خبير » فهو تذييل يؤكد مضمون ما قبله ، وحين نتأمل هذه الفاصلة القرآنية نجد أنها ملتزمة بسياقها لأنها تؤكد تفاوت الفريقين في الجزاء ، وأن هذا الجزاء مرده إلى الله وإلى علمه ببواطنهم وظواهرهم فيجازي كلاً بما يعلمه عنه . <٣>

ويلاحظ ما في هذه الفاصلة من إلهاب وتهيج وحث على أن الله الذي تكفل بهذه الأمور هو أهلها لأنه بما تعملون خبير .

١ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٧/٢٧٦ .

٢ - السابق نفس الموضع .

٣ - راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢١ .

قال تعالى : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً *
ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه
الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً
قمطيراً * فواقهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم
بما صبروا جنة وحريراً ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

ذكرت هذه الآيات الكريمات صفات عديدة لعباد الله المؤمنين منها الوفاء
بالنذر وإطعام الطعام ابتغاء وجه الله والخوف من عذاب يوم القيامة ، وبينت أن الله
تعالى وقاهم شر ذلك اليوم الذي تكلح فيه الوجوه ، ثم انتقلت الآيات بعد ذكر
صفاتهم إلى بيان ما أعد الله لهم من الأجر والثواب والنعيم الدائم في الجنة .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

جاءت هذه الآيات الكريمات إطناباً وبياناً لعباد الله المذكورين في قوله
تعالى « عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » <٢> كأنه قيل ماهي صفاتهم
فقيل « يوفون بالنذر ... » ولا يخفى أن نظم الآيات يتضمن بعضه وصفاً لحالهم في
الدنيا وبعضه الآخر وصفاً لحالهم في الآخرة وما يلقونه من تكريم ونعيم مقيم جزاء
بما كانوا يعملون .

وعلى هذا الحاجة إلى قول الفراء بأن في الآية إضماراً لكان تقديره :
كانوا يوفون بالنذر <٣> لأن الآيات تتضمن كما أسلفنا وصفاً لحالهم في الدنيا
وحالهم في الآخرة .

١ - الإنسان : ٧ - ١٢ .

٢ - الإنسان : ٦ .

٣ - معاني القرآن للفراء ، ٢١٦/٣ .

فهذه الآيات تبين سمات الأبرار التي أهلّتهم لما أعد لهم من نعيم ، وتصور عمق الشعور بخشية الله في قلوبهم وفزعهم من هول عقابه .

ومن روائع البلاغة القرآنية التعبير بالفعل المضارع « يوفون بالندر » للدلالة على « تجدد وفائهم بما عقدوا عليه ضمائرهم من الإيمان والعمل الصالح ، وذلك دون ريب مشعر بأنهم يكثرّون نذر الطاعات وفعل القربات ، ولولذلك لما كان الوفاء بالندر موجباً الثناء عليهم . <١>

والندر : ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل الخيرات تقرباً الى الله <٢> .
وتعريف النذر « بآل للجنس فهو يعم كل نذر .

وفى التعبير بقوله « يخافون يوماً كان شره مستطيراً » أوقع الخوف على اليوم لشدة ما يقع فيه من أهوال وخطوب جسام ، ففي إيقاع الخوف على اليوم مجاز عقلي في النسب الإيقاعية .

والتعبير بالمضارع « يخافون » للإشارة إلى تجدد خوفهم شر ذلك اليوم على نحو قوله « يوفون » أما تنكير « يوماً » فللتهويل والتفطيع ، ونصب « يوماً » على أنه مفعول به للفعل « يخافون » ولا يصح نصبه على الظرفية لأن المراد بالخوف خوفهم في الدنيا من ذنوب تجر إليهم العقاب في ذلك اليوم ، وليس المراد أنهم يخافون في ذلك اليوم إنما هم فيه آمنون . <٣>

ولألفاظ القرآن قدرة على تصوير المعنى وإبرازه ، تأمل في هذا البيان المعجز كلمة « مستطيراً » وماتوحي به حيث يخيل إليك أن الشر صار « شيئاً مادياً ويمتد ليصيب كل من يقع في دائرته ، وتدل صيغته على المبالغة في الانتشار

١ - التحرير والتنوير ، ٢٩/٢٨٢ وما بعدها .

٢ - انظر المفردات ، ص ٤٨٧ ؛ معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٢/٦٩٤ ؛ التحرير والتنوير ، ٢٩/٢٨٢ .

٣ - التحرير والتنوير ، ٢٩/٢٨٣ .

والفسو وبهذا كان اللفظ أبلغ في التعبير عن عمق إحساسهم بالرهبة من عذاب الله ويتضح هذا عندما نستبدله بغيره مما يؤدي معناه . <١>

ففي قوله « مستطيراً » إستعارة تصريحية تبعية شبه سرعة الشر وانتشاره وفسوه بطيران الطائر بجامع النفاذ في كل ثم استعار كلمة « مستطيراً » بمعنى منتشراً على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفي هذه الآية أثر القرآن ذكر كان مع استقامة المعنى بدونها ليشير إلى تمكن الخبر من المخبر عنه لأن شر ذلك اليوم ليس واقعاً في الماضي وإنما سيقع ، ففي التعبير بكان استعارة تبعية في زمن الفعل للإشارة إلى تحقق وقوعه حتى لكأنه وقع .

ومن بلاغة النظم القرآني ما في التعبير بقوله « يطعمون الطعام » من جناس لفظي يكسب اللفظ قوة ويزيد المعنى وضوحاً .

والتصريح بلفظ « الطعام » مع أنه معلوم من الفعل « يطعمون » توطئة ليبنى عليه قوله « على حبه » لأنه لولم يصرح به قال « يطعمون مسكيناً ویتيماً وأسيراً » لغات مافي التعبير بقوله « على حبه » من معنى الإيثار ، كما أن ذكر الطعام بعد « يطعمون » يفيد استحضار صورتهم تلك حتى لكان السامع يشاهد هذه الصورة ماثلة أمامه . <٢>

والضمير في قوله « على حبه » يجوز أن يعود الى الطعام ويجوز أن يعود الى الله سبحانه أي على حب الله . <٣> ولكن الأولى والأليق بالسياق أن الضمير يعود على أقرب مذكور وهو الطعام .

وعلى في قوله « على حبه » بمعنى مع أي يطعمون الطعام مع حبه ، لكن ما السر البلاغي من إيثار التعبير بعلى دون « مع » في هذا النظم الكريم ؟ .

١ - أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٨٨ .

٢ - راجع التحرير والتنوير ، ٢٨٤/٢٩ .

٣ - راجع البحر المحيط ، ٢٩٥/٨ ؛ الفتوحات الإلهية ، ٤٥٥/٤ .

لعل السر من وراء إيثار التعبير بحرف الاستعلاء « على » دون حرف المصاحبه « مع » في هذا السياق لما يومض به من استعلاء حب الله في نفوس هؤلاء المنفقين على حب الطعام وتغلبهم على شهواتهم وارتفاعهم فوق شح أنفسهم وإيثارهم للمحتاجين على أنفسهم ، فعلى أكثر دلالة في مدح المنفقين من حرف المصاحبه لأنه يرسم صورة واضحة للبذل والعطاء والإيثار .

وفي قوله مسكيناً ویتيماً وأسيراً « مراعاة نظير وضابط هذا الفن : أن تجمع في الكلام بين أمروما يناسبه لا بالتضاد . <١>

ولعلك تلحظ أن البيان القرآني قدم المسكين على اليتيم وعلى الأسير فما الحكمة في ذلك ؟ .

أرى و الله أعلم بسر كتابه أن الترتيب روعي فيه كثرة الوجود في الواقع فالمساكين أكثر من اليتامى وأكثر من الأسرى فقدم المسكين عليهما لأنه أولى بالرعاية والعطف فكل مسكين ضعيف كاليتيم وليس كل يتيم مسكيناً .

وتأمل الفرق بين ما عليه النظم في تنكير « مسكيناً ویتيماً وأسيراً » وبين قولنا « المسكين واليتيم والأسير » فالتعريف دال على العدد فقط ، أما التنكير فيفيد العموم أي كل مسكين وكل يتيم وكل أسير ، فعمد القرآن إلى التنكير لأنه لم يرد الأشخاص وإنما أراد الوصف ، فالتنكير دال على العموم وفيه إشارة إلى أن إطعامهم من أجل هذا الوصف وهو المسكنة واليتيم والأسر وقد جاءت هذه الجمل الثلاث « يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً ويطعمون الطعام » موصولة بالواو لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود القرائن المسوغة للوصل .

١ - انظر الإيضاح ، ٤٨٨/٢ : خزانة الأدب ، ٣٩٣/١ : شروح التلخيص ، ٣٠١/٤ وما بعدها ؛ معجم

المصطلحات البلاغية ، ١٤٥/٣ .

أما جملة « إنما نطعمكم لوجه الله » فهي معمولة لعامل محذوف تقديره : قائلين لهم إنما نطعمكم لوجه الله ، في محل نصب حال من ضمير « يطعمون » . <١>

وفي هذه الجملة قصر طريقه « إنما » وهو قصر قلب « مبني على تنزيل المطعمين منزلة من يظن أن من أطعمهم يمن عليهم ويريد منهم الجزاء والشكر بناءً على المتعارف عندهم في الجاهلية . <٢>

وفصلت جملة « لانريد منكم جزاء ولاشكوراً » عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال لأنها نزلت منزلة التوكيد مما قبلها ولهذا حسن الفصل بينهما .

أما تقديم « جزاء » على شكوراً « فلأن الجزاء أصل من الشكر ولذا قدم عليه وتتكير جزاء وشكوراً للتعميم أي لانريد منكم أي جزاء وأي شكور .

وتصدير جملة « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيرياً » بالتأكيد إما لأنها حقيقة عظيمة ومن حق الحقائق العظيمة أن تخرج هذا المخرج ، وإما لتوقع الإنكار عند المخاطبين فاقتضى الحال أن تجيء الجملة مؤكدة بإن دفعاً لهذا الإنكار وإزالته من نفوس المخاطبين كلية ومن في قوله « من ربنا » يجوز أن تكون ابتدائية ، وهي حال من « يوماً » قدمت عليه أي نخاف يوماً عبوساً قمطيرياً حال كونه من أيام ربنا أي من تصاريفه <٣> ، ويجوز أن تكون بيانية أي نخاف من ربنا لامن غيره .

وتتكير « يوماً » للتهويل ووصفه بالعبوس كناية عما يقع فيه من الأحوال العظيمة وتأمل روعة التصوير القرآني في قوله عبوساً « وماله من قدرة على التصوير » إذا أبرز المعنى الذهني وهو ما يكون فيه من شدة في صورة تبعث

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٣٦/٥ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٨٥/٢٩ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ٢٨٦/٢٩ .

الخوف وتنذر بالشر بالأضافة الى مافيه من مبالغة حيث أسند العبوس إلى اليوم على سبيل المجاز العقلي والمراد أن الوجوه تعبس فيه لشدته وهوله ، فكأن العبوس قد جاوز الوجوه وأصبح سمة لليوم نفسه . <١>

فكلمة « عبوساً إما أن تكون مجازاً عقلياً علاقته الزمانية ، وإما أن تكون قرينة الاستعارة المكنية ، وهى إثبات لازم المشبه به للمشبه بعد حذفه ، حيث شبه اليوم بأسد عبوس أو برجل يخالطهم يكون شرس الأخلاق عبوساً في معاملته ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وخواصه على سبيل الاستعارة المكنية <٢> وأثر النظم القرآني التعبير بقوله « عبوساً » ولم يقل « عابساً » للمبالغة في وصف اليوم بالشدّة .

أما التعبير بقوله « قمطيراً » فيصور بلفظه وجرسه مقدار خشية الأبرار ورهبتهم من ذلك اليوم وأن خشيتهم تلك المتناهية هي الداعية لهم إلى البذل والعطاء . <٣>

و « جملة » إنا نخاف من ربنا « واقعة موقع التعليل لمضمون جملة » لانريد منكم جزاء ولا شكوراً « والمعنى : إنهم يقولون ذلك تائبياً لهم ودفعاً لانكسار النفس الحاصل عند الإطعام ، أى ما نطعمكم إلا إستجابة لما أمر الله فالطعم هو الله .
وجملة : إنا نخاف ، جملة استئنافية ، وسر فصلها عما قبلها أنها وقعت جواباً لسؤال ينشأ في النفس تقديره ، ولم لاترجون جزاءً ولا شكوراً ، فقالوا إنا نخاف ... « فبين الجملتين شبه كمال الاتصال والفاء في قوله « فوقاهم الله شر ذلك اليوم » سببية أى فبسبب خوفهم وقاهم الله أي دفع عنهم بأس ذلك اليوم وشدته

١ - أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٨٨ وما بعدها .

٢ - راجع الكشف ، ٤/١٩٦ وما بعدها ؛ حاشية الشهاب ، ٨/٢٨٩ ؛ حاشية زاده ، ٤/٥٨٩ ؛ روح

المعاني ، ٢٩/١٥٦ ؛ التحرير والتنوير ، ٢٩/٢٨٦ .

٣ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٨٩ .

وعذابه ، ولقاهم أي آتاهم وأعطاهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب ، وجزاهم بسبب صبرهم على الإيثار جنة وحريراً .

ففي هذه الآيات الكريمات بيان لجزاء المنفقين الذين يؤثرون الفقراء والمساكين على أنفسهم بأن الله وقاهم شر ذلك اليوم وهو الشر المستطير المذكور آنفاً ، وقاهم إياه جزاء على خوفهم إياه وأنه لقاهم نضرة وسروراً جزاء ما يفعلون من خير حيث أدخلهم أحسن المساكن وهي الجنة وكساهم أحسن الملابس وهو الحرير . <١>

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي في « وقاهم ولقاهم جزاهم » من قبيل الاستعارة التبعية في زمن الفعل للدلالة على تحقق وقوعه وبين قوله « وقاهم » و « لقاهم » جناس ناقص .

أما الإشارة إلى اليوم بذلك الموضوع للبعيد للإشارة إلى بعد منزلة ذلك اليوم لأنه يوم خطير الشأن ، وهذا من باب تنزيل بعد المكانة منزلة بعد المكان كما يقول البلاغيون .

والوصل بالواو بين الجمل الثلاث « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود الجهة المصححة للوصل كما لا يخفى من السياق والمقام .

المبحث الثاني

الترهيب من البخل

في القرآن الكريم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترهيب من البخل

كما رغب القرآن في الإنفاق في سبيل الله وحث عليه وألهم المشاعر نحوه وهذب النفوس بتخليصها من كل ما يعوقها عن الخير ويحبط عملها من الرياء والسمعة والشح والطمع وحب الاستعلاء فقد رهب القرآن الكريم من البخل والحرص ، فذم البخل والشح ونفر منه وتوعد الباخلين الذين يكتنون الأموال ويحرصون على جمعها وتكديسها دون مراعاة لحق الله فيها بالعذاب الشديد في الآخرة حيث ستكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ويقال لهم في تهكم ساخر وسخرية لاذعة « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتنون » .

وليس من شك أن في البخل والحرص على جمع المال وعدم إنفاقه تعطيلاً للحياة وإفساداً للأرض التي أمر الله بعمارته ، لذلك نفر القرآن من البخل وحذر من سوء عاقبته وبين أن ما كنزوه من الأموال وهم يظنون أن فيه خيراً لهم سينقلب عليهم أذى وشرّاً ووبالاً حيث سيطوقونه يوم القيامة ناراً محرقة .

وكم كان للنظم القرآني من روائع ولطائف بلاغية حيث لم يكتف في الترغيب في الإنفاق والترهيب من البخل بالأمر والنهي بل نراه يوجه عنايته الكبرى لطب النفوس وعلاج القلوب من أدائها التي تعوقها عن الإنفاق وتجعلها حريصة على المال وحبه ، فهو يدعو منذراً من البخل منفراً عنه مرغباً في الإنفاق كاشفاً عن الدوافع النفسية وراء السلوك مزيناً لحب الخير منفراً من البخل والشح متخذاً البلاغة القرآنية سلاحاً ناجحاً وقوياً يصل به إلى ما يريد فيبلغ الغاية ويحقق أهدافه النبيلة . بعد هذا العرض الموجز نكتفي بذكر بعض النماذج وتحليلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

توضح هذه الآية عاقبة الذين يبخلون بمال الله وتنهاهم عن هذا الحساب الخاطيء لاعتقادهم أن ما كنزوه سيكون خيراً لهم لكن آمالهم تخيب حيث سينقلب شراً عليهم ، ثم تحذرهم الآية من مغبة البخل وعاقبته الوخيمة بأن ما كنزوه وبخلوا به في الدنيا سيطوقون به يوم القيامة .
خصائص النظم وأسراره البلاغية :

في هذا البيان القرآني تحذير شديد وترهيب عظيم من البخل وسوء عاقبته ببيان أن ما كنزوه وبخلوا به في الدنيا سيطوقونه يوم القيامة ناراً محرقة .

والسياق كله بألفاظه وتراكيبه شارك في تصعيد الترهيب وتناميه ، حيث نرى الترهيب والتحذير يبدأ تسلسله من أول كلمة في الآية وهي قوله « ولا تحسبن » فالنهي للتيئيس وبيان العاقبة وإحباط حساباتهم حيث ينعكس ما ظنوه خيراً لهم شراً ووبالاً عليهم . وتوكيد الفعل « يحسبن » بالنون زيادة في تقرير الوعيد .

وتعريف المسند إليه بالموصول « الذين » لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام ، وللتوصل إلى ذكر الصلة لأنها محط الوعيد والإنذار .

أما التعبير بالمضارع « يبخلون » فللدلالة على تجدد بخلهم ، ولا ستحضار هذا المشهد حتى كأنه معروض يشاهده المستمع .

وأثر القرآن التعبير بالمضارع « يبخلون » ليشمل جميع الباخلين في كل العصور أو بعبارة أخرى ليشمل من بخلوا والباخلين والذين سيبخلون .

ويواصل النظم القرآني الترهيب من البخل ويزيده شناعة حيث قال « يبخلون بما آتاهم الله من فضله » ولم يقل « بأموالهم » ليشير بهذا القيد إلى أنهم يبخلون بمال الله الذي تفضل به عليهم لا بمالهم زيادة في لومهم وتقريعهم على سوء صنيعهم .

وقد صرح بنحو هذا أبو السعود بقوله « وإيراد ما بخلوا به بعنوان إيتاء الله تعالى إياه من فضله للمبالغة في سوء صنيعهم فإن ذلك من موجبات بذله في سبيله » وهذا التعبير يكشف دون شك جهلهم وجحدهم لفضل الله عليهم ، وما انطوت عليه نفوسهم من شح وبخل وحرص على المال مع مافيه من إيماء إلى توبيخهم وتقريعهم .

وفاعل « يحسبن » إما الاسم الموصول « الذين » ويكون المفعول الأول محذوفاً لدلالة الصلة عليه ، والضمير « هو » عائد على البخل المستفاد من « يبخلون » مثل قوله تعالى « اعدلوا هو أقرب للتقوى » ^٢ ، وإما أن يكون ضمير النبي ﷺ أو ضمير من يحسب ، والمفعول الأول الاسم الموصول بتقدير مضاف « بخل » أي ولا يحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم .

واقترضت حكمة البيان القرآني في هذه الآية ذكر الضمير « هو » العائد إلى البخل لأنه لو أسقط وحذف من السياق لما تم المعنى المراد ففي ذكره تمهيد للمفعول به « خيراً » .

أما « بل » في قوله « بل هو شر لهم » فإضراب إبطالي على حسب ظنهم ، ولذلك جاء ما بعدها مرفوعاً لكي لا يأخذ حكم حسابان الباخلين من حيث

١ - تفسير أبي السعود ، ٦١١/١ ؛ راجع روح المعاني ، ١٣٩/٤ .

٢ - المائدة : ٨ .

اللفظ والمعنى ، وللمغايرة التامة بين ما قبل « بل » وما بعدها . وتتكير « شر » للتفطيع والتهويل ، والتنصيص عليه للمبالغة فيه . <١>

وتأمل دقة النظم القرآني حيث قال « شر لهم » ولم يقل « عليهم » ففي إيثار التعبير بحرف الاختصاص إشارة إلى اختصاصهم بالشر واستحقاقهم له فهو شر لهم لا لغيرهم ، بالإضافة إلى أنه يحدث في النظم تلاؤماً وتجانساً صوتياً يزيد الآية روعة وجمالاً « هو خيراً لهم بل هو شر لهم » .

وفي التعبير بقوله « خيراً لهم » وقوله « شر لهم » طباق تضاد أكسب اللفظ قوة وزاد المعنى وضوحاً .

ولعلك تلحظ معي أن لهذا الطباق جمالاً وحسناً لأنه يشير إلى تفاوت الخير والشر وتباعدهما وتضادهما في الدنيا والآخرة ، ويدعونا لعقد هذه الموازنة لنتبين عن قرب عدم إستوائهما مع ما فيه من الإشارة إلى أحباط أمل هؤلاء البخلاء فما حسبوه خيراً لهم يكون شراً لهم في الآخرة .

والتعبير بقوله « سيطوَّقون » يصور هول العذاب وشدته ، والسين فيه للتأكيد مع قرب وقوع الوعيد ، وقد حذف الفاعل لكونه معلوماً وهم زبانية العذاب ، وسر بناء الفعل للمجهول للتركيز على الحدث نفسه بغض النظر عن فاعله .

وللمفسرين في تأويل هذه الآية رأيان : إما أن يحمل اللفظ على حقيقته أي يطوَّقون يوم القيامة بحية تنهش رؤوسهم ، وهو ما نميل إليه لأن الأحاديث فيه كثيرة من ذلك ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله تعالى مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاع أقرع

له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا هذه الآية . <١>

وإما أن يحمل على غير ظاهره : أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق . <٢>

وعليه يكون في التعبير بقوله « سيطوقون » إستعارة تصريحية تبعية حيث شبه إحاطة العذاب بهم بإحاطة الطوق ثم اشتق منه الفعل « سيطوقون » بمعنى « سيحاطون » على سبيل الاستعارة التبعية .

وآثر النظم الكريم التعبير بقوله « سيطوقون » على قولنا « سوف يطوقون » لأن في الآية وعيداً شديداً لهم ، والسين مشعرة بقربه زيادة في التلاؤم بين عناصر التخويف والترهيب في الآية الكريمة .

ويجدر بنا أن نتساءل لما خالف القرآن في الصياغة فقال « يبخلون » وبخلوا ؟ خالف القرآن في الصياغة لأن الأول « يبخلون » في الدنيا ، والآخر « بخلوا » في الآخرة ، فلذلك اختلفت الصياغة لمراعاة حال هؤلاء في الدنيا والآخرة فيأله من بيان معجز وإعجاز مبين .

١ - الحديث في صحيح البخاري كتاب الزكاة ؛ مسند أحمد بن حنبل حديث رقم ٦٢٠٩ ، ورقم ٦٤٤٨ ، تحقيق : أحمد شاكر ؛ سنن النسائي كتاب الزكاة ، ١١/٥ ؛ سنن ابن ماجه كتاب الزكاة ، ١/٣٢٧ .
٢ - انظر الكشاف ، ١/٤٨٤ ؛ البحر المحيط ، ٣/١٢٨ وما بعدها ؛ فتح القدير ، ١/٤٠٤ ؛ روح المعاني ، ٤/١٣٩ وما بعدها .

قال تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآية الكريمة حال الذين يبخلون ويحثون عليه الناس ويكتمون ما آتاهم الله من فضله الواسع بأن الله سبحانه قد أعد لهم في الآخرة عذاباً مهيناً جزاء ما صنعوا .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

لا يتحدث القرآن الكريم في هذه الآية عن البخل الذي يحرص على المال ويضنّ به حتى على نفسه بل يتحدث عن طائفة نزع منها الخير فهي طائفة مخربة لأنهم لا يبخلون فقط وإنما يأمرون الناس بالبخل ، وهم بصنيعهم يدعون الناس إلى إفساد الكون والحياة وتخريب المجتمعات ، وهذا فساد ما بعده فساد .

وحين ننعم النظر في النص القرآني نجده يفيض بالتحذير والترهيب الشديد من البخل لأنه كما أسلفنا لا يتحدث عن مجرد بخيل وإنما عن طائفة مخربة وهم بلا شك اليهود لانطباق هذه الصفة عليهم أولاً ، ولأنه ذكر في أسباب النزول أنها نزلت في اليهود وهو مأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما . <٢>

ومن بدائع البلاغة القرآنية التعبير بالموصول « الذين » للإشارة إلى وجه بناء الخبر وللتسجيل عليهم بالصلة فهؤلاء الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله جزاؤهم العذاب المهين .

١ - النساء : ١٢٧ .

٢ - انظر أسباب النزول للواحي ، ص ١١٢ ؛ لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، ص ٦٨ ؛ تفسير أبي السعود ، ٦٩٦/١ ؛ التحرير والتنوير ، ٥٢/٥ .

وفي التعبير بقوله « الذين يبخلون » إيجاز بالحذف ، وفي تقدير هذا المحذوف تأويلات عديدة ، إما أن يكون المسند إليه محذوفاً تقديره : « هم الذين » حذف للإيجاز وللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر .

وإما أن يكون المحذوف المسند تقديره : الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل جديرون أو أحقاء بكل ملامة أو معذبون ، حذف للإيجاز وللاحتراز عن العبث .

وإما أن يكون « الذين » منصوباً على الذم ، فهو مفعول به لفعل محذوف تقديره : أذم الذين يبخلون . <١>

أرأيت كيف أن هذا الحذف احتمال وجوهاً عديدة من النظر ، وهذا النوع من الحذف يذكر له البلاغيون فضيلة بلاغية هي تكثير الفائدة ، لأن الكلام الذي يحتمل وجهين فأكثر يكون أكثر معنى وأغزر دلالة . <٢>

ولعل حسن هذا الحذف راجع إلى أن « نفس السامع تذهب فيه كل مذهب » كما صرح بذلك الألويسي . <٣>

والتعبير بالمضارع الدال على التجدد والاستمرار في قوله « يبخلون » لاستحضار صورتهم هذه حتى كأنها معروضة يراها السامع .

ومعنى « يأمرؤن الناس بالبخل » يحضون الناس عليه ، وهذا أشد من البخل نفسه لأن فيه إفساداً للحياة والكون الذي أمر الله عباده بعمارته .

١ - انظر الكشاف ، ٥٢٦/١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٦٩٥/١ ؛ حاشية الشهاب ، ١٣٥/٣ ؛ روح المعاني ، ٢٩/٥ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٢١٥/٥ .

٢ - راجع خصائص التراكيب ، للدكتور محمد أبو موسى ، ص ٢٢٢ .

٣ - انظر روح المعاني ، ٢٩/٥ .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال « يأمرؤن الناس به » أي بالبخل لكونه معلوماً من الفعل « يبخلون » لكنه وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى قبح جنابتهم وتسجيلاً عليهم بالوعيد .

أما قوله « يكتمون ما آتاهم الله من فضله » فيحتمل أن يراد به المال ، أو كتمان التوراة بما فيها من صفة النبي ﷺ ونعوته . <١>

والوصل بالواو بين هذه الجمل لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الخبرية لفظاً ومعنى .

ثم تختتم الآية الكريمة بالترهيب من العذاب بتجسيده مادياً ومعنوياً « وأعدتنا للكافرين عذاباً مهيناً » و « أعدتنا » معناها : جهزنا ، وأصلها اعتدنا حذفت إحدى التاعين تخفيفاً ، ولم يقل النظم القرآني أعددنا وإنما « أعدتنا » وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كما يقول البلاغيون . فإيثار التعبير بقوله « أعدتنا » على « أعددنا » للمبالغة في كثرة الاعداد والتجهيز . وهذا التعبير يكشف عن شدة غضب الله عليهم .

كما أن في دلالة « أعدتنا » ما يشير إلى أن المتحدث عنهم السنة أو العادة فيهم إنزال العذاب بهم وإسناد الفعل « أعدتنا » إلى ضمير العظمة لزيادة التهويل لأن « عذاب العظيم عظيم وغضب الحليم وخيم » . <٢>

ومن سحر البيان وروائع النظم في القرآن ما في قوله « أعدتنا للكافرين » حيث وضع الظاهر موضع الضمير فلم يقل « أعدتنا لهم » للتنبيه والإشعار بأن من كان هذا شأنه فهو كافر بنعم الله عليه ومن كان كافراً بنعمه تعالى فله عذاب يسمه بالميسم الذي يتسم به الكفار . <٣>

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٩٥/١ ، التحرير والتنوير ، ٥٢/٥ .

٢ - انظر حاشية الشهاب ، ١٣٦/٣ ؛ راجع روح المعاني ، ٢٠/٥ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٦٩٦/١ ؛ حاشية الشهاب ، ١٢٥/٣ روح المعاني ، ٢٠/٥ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٢١٦/٥ .

وتتكير « عذابا » للتهويل والتفطيع ووصفه بالمهين للمبالغة في بيان هولته
وشدته .

وفي التعبير بقوله « مهينا » مجاز عقلي علاقته الفاعلية لأن المهين هو الله ،
والعذاب يهان فيه صاحبه ، فأسناد « مهيناً » إلى العذاب « من باب وصف المفعول
بوصف الفاعل للمبالغة في بيان شدة العذاب حتى كأن العذاب نفسه أصبح مهيناً
لهم وهذا ما يقتضيه مقام الترهيب .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون
أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمي عليها في نار جهنم
فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم
تكنزون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تبين هاتان الآيتان الكريمتان للمؤمنين حال الأحبار والرهبان وتفضح
أمرهم بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ثم تتجهان
بالترهيب والوعيد إلى كل من يكنز الأموال ولا ينفقها في سبيل الله بأن له في
الآخرة عذاباً أليماً ، وتسوقان هذا الترهيب في صورة مفرعة مرعبة تقشعر لهولها
الأبدان <٢> « يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم
وظهورهم » ويقال لهم في سخرية وتهكم لاذع « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا
العذاب بما كنتم تكنزون » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

تبدأ هاتان الآيتان بنداء المؤمنين وتصفهم بالإيمان لأن الذي ينتفع
بالأوامر والنواهي هم المؤمنون ولذلك ناداهم الحق سبحانه بهذا الوصف للفت

١ - التوبة : ٣٤ - ٣٥ .

٢ - راجع أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٣٥ .

انتباههم إلى ما سيلقى عليهم من أمر جلل ، وقد جرت سنة القرآن أنه إذا نادى المؤمنون بقوله « يا أيها الذين آمنوا » أن يعقبه أمر أو نهى .

بعد هذا النداء تتجه الآيات إلى تنبيه المؤمنين كاشفة لهم حقيقة أهل الكتاب تحقيراً لهم بقوله تعالى « إن كثيراً من الأحرار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

فهذه الآية تبين للمسلمين حال الأحرار والرهبان بأن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس ظلماً وعدواناً حيث كانوا يأخذون الأموال بطريق الرشوة ممن يملك المال أو السلطان لتبديل أحكامه وشرائعه وتخفيفها والمسامحة فيها ، كما يتقاضون أجراً ممن يتقدم لهم للإعتراف بذنبه رجاء غفرانهم له ويعطونهم صكوكاً للغفران تدخلهم الجنة ، كما يأخذون الأموال عن طريق الربا وهو أوسع هذه الأبواب وأبشعها . <١>

وتأمل دقة النظم القرآني والعدل الإلهي في قوله « إن كثيراً من الأحرار والرهبان » حيث أسند الحكم إلى كثير منهم دون جميعهم لاستثناء طائفة منهم كانوا صالحين من أمثال عبدالله ابن سلام وكعب الأحرار وغيرهم . <٢>

أما الكثيرون منهم فقد كانوا كما ذكر القرآن الكريم يأكلون الأموال بالباطل ، وقد شهد تاريخ هؤلاء أموالاً ضخمة كانت تنتهي إلى رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة ، وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاة . <٣>

١ - انظر الكشاف ، ١٨٦/٢ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٤٦/٢ ؛ في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٦٤٥ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٥/١٠ ؛ في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٦٤٥ .

٣ - انظر في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٦٤٥ .

وهم إلى جانب أكلهم أموال الناس بالباطل يصدون عن سبيل الله بالإعراض عن متابعة الدين الحق وإغراء الناس بالإعراض عنه بصرفهم عما قررتهم شرائعهم قبل تبديلها وتحريفها على أيديهم ، أو بصد الناس عن الإسلام ومحاربتهم بكل ما أتيح لهم من الوسائل ، وإثارة الشبهات حول الإسلام ونبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه . <١>

وفي التعبير بقوله « يأكلون » إستعارة تصريحية تبعية <٢> ، فقد عبر عن الأخذ بالأكل حيث استعير الأكل للأخذ والإفناء بجامع الأعدام والشره في كل ثم اشتق من الأكل الفعل « يأكلون » بمعنى « يأخذون » على سبيل الاستعارة التبعية ، أما القرينة الدالة على أن اللفظ استعمل في غير ما وضع له في أصل اللغة فهي إيقاع الأكل على الأموال ، وأنت تعلم أن الأموال لا تؤكل وإنما تؤكل الأطعمة فهي سبب فيها ، « وإنما عبر عن ذلك بالأكل تقبيحاً لحالهم وتنفيراً للسامعين عنهم » . <٣>

ولا يفوتني أن أشير إلى ما لهذه الاستعارة من حسن وجمال ففيها تقبيح لسلوكهم وإشارة إلى شراحتهم وجشعهم فهم يأكلون كما تاكل البهائم بل هم أضل سبيلاً .

ولزيادة ذمهم والتنفير منهم جاء قوله « بالباطل » ليؤكد أنهم يأكلون الأموال بالباطل وليس بالحق تبشيعاً لهم وتحذيراً من التعامل معهم .

والتعبير بالمضارع « يأكلون » ويصدون مع دلالاته على التجدد والاستمرار لاستحضار الصورة . وفي قوله « يصدون عن سبيل الله » إيجاز بالحذف حيث

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٥/١٠ .

٢ - راجع الكشاف ، ١٨٦/٢ وحاشية الشهاب ، ٢٢٢/٤ ؛ روح المعاني ، ٨٦/١٠ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٦ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٥٤٦/٢ .

حذف المفعول به للعلم به وهو « الناس » ففي حذفه وإسناد الصد إليهم إيماء إلى أن هؤلاء يقع منهم الصدود عن دين الله بياناً لحقيقتهم وتحقيراً لهم .

وفي إطلاق السبيل على دين الله وشرعه إستعارة تصريحية أصلية فقد شبه دين الله بالسبيل وهي الطريق بجامع الهداية والوصول إلى بر الأمان في كل ثم حذف المشبه وهو « دين الله » وتنوسي التشبيه ثم جعل اللفظ الدال على المشبه فرداً من أفراد المشبه وداخلاً في جنسه وهو « سبيل الله » على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

ويلاحظ ما في نظم الآية الكريمة من تأكيدات كثيرة وهي النداء وأي وهاء التنبيه وإن واللام لتقرير حقيقة هؤلاء في النفوس وتثبيت المعنى في القلوب . <١>

بعد ذلك ينتقل البيان القرآني إلى الترهيب من البخل واكتناز المال في مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة يصور فيه عذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله بقوله تعالى « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ... » .

والمراد بالموصول « الذين » إما الكثير من الأحرار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص والشح والظن بعد وصفهم بالجشع والشره .

وإما المسلمون غير المنفقين وهو الأنسب لأن الأحرار والرهبان لهم عذاب أليم سواء أنفقوا المال أو بخلوا به ، لذا فإن المخاطبين بهذا الترهيب والتحذير من البخل هم غير المنفقين من المسلمين ويكون نظمهم في قرن المرتشدين من اليهود والنصارى تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منهم طيب ماله سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم . <٢>

١ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٣٦ .

٢ - انظر الكشاف ، ١٨٧/٢ : تفسير أبي السعود ، ٥٤٦/٢ وما بعدها ؛ روح المعاني ، ٨٧/١٠ .

والواو في قوله « والذين يكتزون الذهب والفضة » للاستئناف النحوي لأن هذا الحكم مختص بهؤلاء الكانزين للأموال .

« والمناسبة بين الجملتين أن كليتهما تنبيه على مساويء أقوام يضعهم الناس في مقامات الرفعة والسؤدد وليسوا أهلاً لذلك ، فمضمون الأولى بيان مساويء أقوام رفع الناس أقدارهم لعلمهم ودينهم وكانوا منطوين على خبائث خفية ، ومضمون الجملة الثانية بيان مساويء أقوام رفعهم الناس لأجل أموالهم فبين الله أن تلك الأموال إذا لم تنفق في سبيل الله لا تغني عنهم شيئاً من العذاب . » <١>

والتعبير بالموصول « الذين » على ما رجحنا من أن المراد به المسلمون غير المنفقين - للتسجيل عليهم بالصلة زيادة في ذمهم وتحقيرهم .

أما التعبير بالمضارع « يكتزون » فلإشارة إلى التجدد والاستمرار أي أنهم يستمرون في كنز الأموال حالاً فحالاً .

وتخصيص الذهب والفضة بالذكر دون بقية الأموال « لأنهما قيم الأموال وأثمانها ، وهما لا يكتزان إلا عن فضلة وعن كثرة ومن كنزهما لم يعد سائر أجناس المال وكنزهما يدل على ما سواهما . » <٢>

أما قوله « ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب ، فالمراد بالإنفاق في سبيل الله الزكاة الواجب إخراجها .

وتأمل نظم الآية تر البيان لم يكتف بالترهيب من كنز المال وحده في قوله « والذين يكتزون الذهب والفضة » وإنما قرن معه قوله « ولا ينفقونها في سبيل الله » ليشير إلى أن هذا الترهيب منوط بالكنز وعدم الإنفاق ، فليس الكنز وحده بمتوعد عليه وإنما هما معاً . » <٣>

١ - التحرير والتنوير ، ١٧٦/١٠ .

٢ - انظر الكشاف ، ١٨٧/٢ ؛ البحر المحيط ، ٣٦/٤ .

٣ - راجع التحرير والتنوير ، ١٧٧/١٠ .

وانظر إلى ما في التعبير بقوله « فبشرهم بعذاب أليم » من سخرية لازعة وتهكم ساخر مرير .

والفاء في « فبشرهم » للعطف والسببية ، وأثر النظم القرآني التعبير بالفاء من بين سائر حروف العطف لما توحى به من الإيذان بسببية ما قبلها فيما بعدها .

وفي التعبير بقوله « بشرهم » إستعارة تهكمية ^{<١>} . فقد استعملت البشارة - وحقيقتها أن تستعمل في الأمور المحمودة السارة - في معنى الإنذار ثم اشتق منها الفعل « بشرهم » بمعنى أنذرهم على سبيل الاستعارة التبعية التهكمية .

والاستعارة أبلغ في مقام الترهيب لما تتضمنه من تهكم واستخفاف بهم وغضب عليهم . ^{<٢>} وتتكبير « عذاب » للتهويل فهو عذاب عظيم ووصفه بأليم لزيادة الترهيب من هوله وشدته . وفي هذا النظم مجاز عقلي في قوله « أليم » علاقته الفاعلية ، فالعذاب لا يكون أليماً وإنما مؤلم فيه منزله ، لكن القرآن عبر بأليم عن مؤلم فيه منزلة للمبالغة في تصوير هول العذاب وشدته حتى كأنه صار ذا إرادة في الإيلام الواقع عليهم .

وقد عطفت جملة « ولا ينفقونها » بالواو على ما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

غير أن الراجح لدي أن تكون الواو للحال والجملة في محل نصب حال تقديره : والذين يكثرزون الذهب والفضة حال كونهم لا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم .

١ - عرفها القزويني بقوله « ومنها ما استعمل في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد منزلة التناسب بواسطة تهكم أو تلميح » : الإيضاح ، ٤٢٠/٢ .

٢ - انظر الإيضاح ، ٤٢٠/٢ ؛ الطراز ، ٢٤٦/١ وما بعدها ؛ نظرات في البيان ، ص ٢١٩ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٧ ؛ أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ،

أما قوله « يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم ... » فهو تفصيل لما أجمل في قوله « عذاب أليم » وللتفصيل بعد الإجمال سر بلاغي هو تشويق السامع لمعرفة ما يذكر بعد الإجمال فإذا ورد عليها تلقتة بوفرة ونشاط وتمكن منها فضل تمكن .

بالإضافة إلى أن له سرّاً آخر هنا « هو إطالة مشهد العذاب أمام خيال المخاطب قصداً إلى تعميق إيحاءه في النفس ليكون أقوى على إثارة الرهبة وبعث مشاعر الخوف فيها تحقيقاً للغاية المرجوة والاستجابة لأمر الله بالإنفاق في سبيله » . <١>

وفي قوله « يوم يحمى عليها » كناية عن موصوف وهو يوم القيامة ، ويوم منصوب بقوله « عذاب أليم » أو بعامل محذوف تقديره : يعذبون أو أذكر يوم يحمى عليها . <٢>

والضمير في قوله « عليها » راجع إلى الذهب والفضة باعتبار المعنى لأن المراد بهما دنانير ودراهم كثيرة . <٣>

ومما يبهر العقول ويملك القلوب ويدل على أن القرآن تنزيل من رب العالمين ما نراه من الروائع القرآنية في قوله « يوم يحمى عليها » حيث كان مقتضى الظاهر أن يقول « يوم تَحْمَى » لكنه عدل عن ذلك للمبالغة على شدة الحرارة وأن النار نفسها صارت تتلظى بسبب إمدادها بالوقود ، وإذا مدت بالوقود إمتدت أزمانها ، يعنى يحمى النار عليها زبانية العذاب ومصداق هذا قوله تعالى « كلما خبت زدناهم سعيراً » . <٤>

١ - أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٧ .

٢ - انظر البحر المحيط ، ٢٦/٥ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٤٧/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٧٨/١٠ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٤٧/٢ .

٤ - الإسراء : ٩٧ .

وأصل التعبير « يوم تَحْمَى النار » فلما حذفت تحول الإسناد عن النار إلى عليها فلو قيل « يوم تَحْمَى النار » لا نجد هذا المعنى . <١>

بالإضافة إلى أن في بناء الفعل للمجهول « يحمى عليها » إشارة إلى أن هناك تأثيراً خارجياً أي يوم يحمى الحامون عليها وهذا أبلغ من قولنا « يوم تَحْمَى النار » وبإضافة النار إلى جهنم في قوله « نار جهنم » علم أن المحمي هو نار جهنم التي هي أشد نار في الحرارة ، مع ما في هذه الإضافة من الدلالة على شدة حرارتها وقوة إيلام الكي بها مبالغة في الترهيب . <٢>

وفي التعبير بقوله « فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم » كناية عن شمول العذاب للجسد كله .

وسلك البيان القرآني في التعبير عن الشمول والتعميم مسلك الاطناب بتعداد الجهات الثلاث المذكورة لاستحضار حالة ذلك العذاب الأليم تهويلاً لشأنه ولذلك لم يقل « فتكوى بها أجسادهم » . <٣>

وتخصيص « الجباه والجنوب والظهور » بالذكر لأن لها زيادة ارتباط بالتمتع بالمال لأن « جمعهم لها وإمساكهم كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس البهية ، أو لأنهم إزوروا عن السائل وأعرضوا عنه وولوه ظهورهم » . <٤>

وتأمل ما يوحي به قوله « تكوى » من شدة الألم وكون الكي بعين الكنز « بها » ما يحمل على التخلص مما سيكون أداة لتعذيبه بإنفاقه في أبواب

١ - انظر الكشاف ١٨٧/٢ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٤٧/٢ ؛ روح المعاني ، ٨٨/١٠ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٩/١٠ ؛ أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٨ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٧٩/١٠ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥٤٧/٢ ؛ راجع الكشاف ، ١٨٩/٢ ؛ روح المعاني ، ٨٨/١٠ .

الخير ، وإيثار التعبير بالمضارع « تكوى » لاستحضار الصورة كأنها ماثلة زيادة في الترهيب بما تثيره من فزع وهلع . <١>

وبني الفعلان « يحمى وتكوى » للمجهول لعدم تعلق الغرض بذكر الفاعل لكونه معلوماً وهم زبانية العذاب

ثم تصل سخرية القرآن بهؤلاء الكانزين قمتها بقوله « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وفي هذا التعقيب على مشهد العذاب توبيخ وتحسير لهم ليضيف إلى الألم المادي للعذاب الألم المعنوي الذي يذيب القلوب حسرات . <٢>

وفي التعبير بقوله « هذا ما كنزتم ... » إيجاز بالحذف حيث حذف القول أي يقال لهم : « هذا ما كنزتم لأنفسكم » .

والتعبير بالإشارة « هذا » ودلالته على القرب يوحي بأن العذاب كأنه حاضر يشار إليه الآن ، ويجوز أن يكون اسم الإشارة مستعملاً في حقيقته لكونه في الآخرة حيث يقال لهم يوم القيامة « هذا ما كنزتم لأنفسكم ... » وفيه مشاكلة توحي بأن الجزاء من جنس العمل .

أما قوله « لأنفسكم » ففيه توبيخ لهم وسخرية بهم فما كنزوه لمنفعة أنفسهم ينقلب أذى وشراً ويكون سبب تعذيبهم ويجدون فيه نقيض ما أرادوا . <٣>

وتأمل جمال التصوير البلاغي في قوله « فذوقوا ما كنتم تكنزون » فالتعبير بالذوق إما أن يكون إستعارة تبعية حيث استعير الذوق للإحساس بالعذاب - والعذاب لا يذاق وإنما الطعام - ثم اشتق من الذوق الفعل « ذوقوا » بمعنى « أحسوا » على سبيل الاستعارة التبعية .

١ - انظر أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٢٨ .

٢ - انظر السابق الموضع نفسه .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢/٥٤٨ : أسلوب الدعوة ، ص ٢٢٨ .

وإما أن يكون في التعبير بالذوق إستعارة مكنية حيث شبه العذاب بالطعام الشديد المرارة ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو « الذوق » على سبيل الاستعارة المكنية زيادة في النكاية بهم .

وعلى الوجهين كليهما الاستعارة أبلغ من الحقيقة لأنها تصور الأمر المعنوي في صورة محسوسة ملموسة وهذا أشد في الترهيب والتحذير . والأمر في قوله « ذوقوا » للتهكم والسخرية .

ويلاحظ ما في التعبير بقوله « ما كنتم تكنزون » من إيجاز بالحذف تقديره : « ذوقوا جزاء ما كنتم تكنزون » والحذف أبلغ من الذكر لأنه يجعل المذاق هو ما كنزوه لجزاؤه وذلك يحمل على إنفاقه حتى لا يتحول عذاباً يذاق . <١>

وفي هذا التعبير القرآني سخريتان لفظيتان إحداهما « هذا ما كنزتم لأنفسكم » والأخرى يقال لهم « فذوقوا ما كنتم تكنزون » . <٢>

وهكذا ينتهي المشهد بظلاله وإيحاءاته المعبرة بهذا التعقيب الذي يتدفق بمعاني السخرية والتوبيخ والتنديم ليهز النفس من أقطارها وأعماقها ويحطم كل مقاومة لديها في الامتناع عن البذل والإنفاق وهذا دور أسلوب الترهيب في تقويم النفس وتزكيته . <٣>

١ - أسلوب الدعوة القرآنية ، ص ٢٣٩ .

٢ - انظر أسلوب السخرية في القرآن الكريم ، ص ١٨٦ .

٣ - انظر أسلوب الدعوة ، ص ٢٣٩ بتصرف .

الفصل الخامس

المبحث الأول

الترغيب في الآخرة

في القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حث عليها ورغب في الحصول عليها والفوز بما فيها من نعيم مقيم أعده الله لعباده المتقين في جنات الخلد .

وبين أن من عمل للأخرة وجد في الحصول عليها وسعى لها سعيها وهو مؤمن فله جنات عدن تجري من تحتها الأنهار « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

وفي عرض القرآن لأحوال المنعمين في الجنة ترغيب في الآخرة وحث على العمل الصالح الذي يوصل إليها .

وقد عني القرآن بوصف الجنة وما فيها من النعيم الذي أعده الله للأبرار ، فوصف سعتها وطعامها وشرابها ومتعها المادية والمعنوية .

« إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً » « ويطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة » « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » .

ووصف حال المؤمنين وما يلبسونه من الملابس الحريرية وما لهم من الحلبي الثمينة « يطلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس استبرق ولباسهم فيها حرير » ويصف جلوسهم « متكئين فيها على الأرائك » « متكئين على فرش بطائنها من استبرق » « على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين » وقد بدت البهجة والسرور على وجوههم « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » .

ولا نستطيع الإحاطة بكل النصوص القرآنية التي جاءت ترغيب في الآخرة لكننا نكتفي بإجزاء بعض النماذج وتحليلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

يرغب القرآن الكريم في الآخرة مؤكداً أن من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، ثم تشير الآية إلى عظيم رحمة الله وواسع فضله حيث ينعم على الكفرة الذين يؤثرون الحياة العاجلة ، وعلى المؤمنين الذين يسعون إلى الآخرة بقوله « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » أي ما كان عطاؤنا ممنوعاً عن أحد من خلقنا .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

في هذه الآية الكريمة ترغيب في الآخرة وحث على السعي والعمل لها للحصول على النعيم الذي أعده الله في الآخرة للأبرار بسبب إرادتهم الآخرة وسعيهم لها وإيمانهم الخالص الذي لا شائبة فيه ، وهدايتهم إلى الطريق القويم .

ففي الآية إلهاب للمشاعر والقلوب وبعث لدوافع الرغبة في قلوب المؤمنين للسعي للآخرة والعمل من أجل الفوز بها ، ولا يكفي للفوز بالآخرة الإرادة فقط بل الإرادة وإخلاص العمل والإيمان ، فمن تحققت فيه هذه الشروط الثلاثة فهو من أولئك الذين كان سعيهم مشكوراً ولا شك أن إرادة الآخرة يسبقها الإيمان الكامل والإقلاع عن المعاصي والذنوب والإكثار من الطاعات ، والتصميم على الوصول إلى الهدف الأسمى ، فتلك بداية انطلاق للوصول ، يتلوها السعي لها « وسعى لها سعيها » فللآخرة سعي من نوع خاص يتطلب إرادة خاصة وعزماً خاصاً ،

والإيمان هو ركيزة الوصل ، هو الحلقة التي لا بد منها لتوصيل الإرادة للآخرة بسعيها ومن ثم تكون النتيجة <١> « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

ومعنى « ومن أراد الآخرة » أي عمل للآخرة وسعى لها ، ففي التعبير بقوله « أراد » مجاز مرسل حيث أطلق السبب وهو الإرادة وأراد المسبب وهو العمل .

وحقيقة السعي : المشي دون العدو ، فسعي الآخرة هو الأعمال الصالحة لأنها سبب الحصول على نعيم الآخرة ، فمعنى « سعى لها » أي بادر وسارع في الخيرات من أجل الدخول في رضوان الله كقوله تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » . <٢>

وكان مقتضى الظاهر أن يقال « وسعى سعيها » بدون قوله « لها » لأن المعنى تام بدونها لكن النظم أثر التعبير بقوله « لها » للإشارة إلى أن العمل بلانية لا يكون مقبولاً ، لأن المسلم قد يعمل لكنه لم ينو به وجه الآخرة فلا يقبل منه عمله ، ففي قوله « لها » إشارة إلى تأكيد النية التي يجب أن تتوفر عند كل مؤمن ، وهذا ما ألمح إليه أبو السعود بقوله « وفائدة اللام إعتبار النية والإخلاص » <٣>

وهذا ما نراه في سر إيثار القرآن وصل الفعل « سعى » باللام دون حرف الانتهاء « إلى » لأنها تشير إلى إخلاصهم في العمل وأنهم ينوون بأعمالهم الآخرة للحصول عليها ، أما « إلى » فهي تدل على انتهاء الغاية فقط دون إشارة إلى إخلاص النية والعمل ، ولذلك أثر النظم التعبير باللام لأنها توحى بتوفيق الله للمؤمنين وتهيئة نفوسهم للإيمان والعمل الخالص ، واختصاصهم وتوجههم بأعمالهم نحو الآخرة دون سواها ورغبتهم الأكيدة في الحصول على ما فيها من نعيم دائم .

١ - راجع المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، ص ١٦٤ وما بعدها .

٢ - آل عمران : ١٢٣ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٤٣٦/٣ .

لكن ما الحكمة في إثارة البيان القرآني التعبير بقوله « سعى » دون قولنا « عمل لها » ؟ لا ريب أن التعبير بالسعي يكشف رغبة المؤمنين في الآخرة ومبادرتهم إليها بالدوام على الطاعات ليل نهار بلا انقطاع وبهمة فائقة لا تعرف الملل ولا الكلال ، فكأن العامل للصالحات من المؤمنين يسير سيراً إلى الآخرة ليصل إلى مرغوبه وغايته منها ، أما قولنا « عمل » فلا يدل على السرعة في العمل والمداومة عليه ، وإنما يفيد بدلالته أن الإنسان يعمل طاعة من الطاعات لكنه لا يستمر عليها ، فالفعل « عمل » لا يهمس بالمعاني التي أومض بها الفعل « سعى » في هذا النظم الكريم وفي اطلاق السعي ، وهو حركة ، على العمل وقد يكون في سكون إستعارة تبعية بجامع الجهد المبذول في كل .

وقوله « سعى لها سعيها » معطوف على قوله « ومن أراد الآخرة » فهو من تتمة الجملة السابقة لأنه داخل في فعل الشرط للدلالة على أن النية لا بد أن يصاحبها عمل ، والعمل لا بد أن تصاحبه النية الخالصة ، وفي الآية تنبيه على أن إرادة الآخرة من غير سعي لها غرور لأن إرادة شيء لا بد فيه - لنجاحه - من السعي في أسباب حصوله <١>

ويلاحظ ما في التعبير بقوله « سعى لها سعيها » من جناس الاشتقاق بين « سعى » وبين « سعيها » أما جملة « وهو مؤمن » فهي حال من الضمير في « سعى » ، والتعبير بهذا القيد « وهو مؤمن » شرط أساسي لقبول العمل ، لأن العمل لا يقبل إلا إذا كان الباعث عليه هو الإيمان بالله وحده ، فالإيمان بالله « هو الشرط الأعظم في النجاة فلا تنفع إرادة ولا سعي إلا بحصوله » . <٢> وجيء بجملة « وهو مؤمن » إسمية لدلالاتها على الثبات والدوام أي قد كان راسخ الإيمان مداوماً عليه .

والفاء في قوله « فأولئك » واقعة في جواب الشرط ، وهي للسببية أي فبسبب النية الخالصة والعمل والإيمان كان سعيهم مشكوراً .

١ - راجع التحرير والتنوير ، ٦٠/١٥ .

٢ - البحر المحيط ، ٢١/٦ ؛ راجع نظم الدرر ، ٣٩٦/١١ .

والإتيان باسم الإشارة « أولئك » للتنبية على أن المشار إليهم جديرون بما ذكر قبل اسم الإشارة من صفات <١> ، وما فيه « من معنى البعد للإشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم » <٢> الرفيعة تنزيلاً لبعد المكانة منزلة بعد المكان .

وفي التعبير بقوله « سعيهم مشكوراً » مجاز عقلي علاقته المفعولية أي كانوا مشكورين في سعيهم ، ففي إسناد الشكر إلى السعي مبالغة في تحقيق الشكر ، وهذا كما ترى يزيد المعنى روعة وجمالاً .

وقوله « مشكوراً » إما مجاز مرسل حيث أطلق السبب وأراد الجزاء المسبب ، ويجوز أن يكون كناية ، فقد كنى بالشكر عن الجزاء ، فهي كناية عن موصوف .

وزيادة « كان » مع أن المعنى تام بدونها « أولئك كان سعيهم مشكور » لكن النظم القرآني أثر الإتيان بها لأنها تشير إلى أنه قد استقر وثبت في عدل الله وحكمته أن سعيهم كان مشكوراً . وهذا ما لانجده لو خلا النص القرآني الكريم من « كان » .

وقد فصلت جملة « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء ... » عن الجملة السابقة لأنها جاءت مستأنفة استئنافاً بيانياً وقعت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى تقديره : من سعى للآخرة وأعطاه الله ما وعده به فما شأن من لم يسع للآخرة ولم يعمل لها ؟

فقليل : كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، ولذلك وجب الفصل بين الجملتين لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، والمراد بالعطاء الرزق في الدنيا .

وفي هذه الآية الكريمة تنبيه « على أن الله تعالى لم يترك خلقه من أثر رحمته حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون ببلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة » . <٣>

١ - انظر التحرير والتنوير ، ٦١/١٥ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٤٣٦/٣ .

٣ - التحرير والتنوير ، ٦١/١٥ وما بعدها .

وفي قوله « كلاً » إيجاز بالحذف حيث حذف المضاف إليه و عوض عنه التنوين تقديره : كل الفريقين . <١>

وتقديم المفعول « كلاً » على الفعل « نمد » لإفادة الحصر أي كل الفريقين لا الفريق الأخير المرید للخير الحقيق بالاسعاد فقط <٢> ، فهو قصر حقيقي تنزيلي .

ومعنى الامداد في قوله « نمد » استرسال العطاء وتعاقبه بلا انقطاع ، وأصل المدد من إمداد الجيش ، يقال أمدَّ الجيش بمدد : أي ألحق به من الجند ما يتقوى به ويستكثر به <٣> ، وعلى هذا ففي التعبير بقوله « نمد » إستعارة تبعية حيث شبه إعطائهم الرزق بعد الرزق بجيش يمد آخر والعلاقة زيادة التمكن ثم اشتق من الامداد الفعل « نمد » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

أما قوله « هؤلاء هؤلاء » فهو بدل كل من كل على جهة التفصيل ، وفي ذلك يقول أبوحيان « وأعربوا هؤلاء بدلاً من « كلاً » ولا يصح أن يكون بدلاً من كل على تقدير : كل واحد من الفريقين ، إذ ذاك بدل كل من بعض ، فينبغي أن يكون التقدير : كل الفريقين على جهة التفصيل » . <٤>

ومن بدائع النظم في القرآن الكريم ما فى قوله « كلا نمد هؤلاء » من لف ونشر مرتب « فهؤلاء الأولى للفريق الأول أي مرید الدنيا ، وهؤلاء الثانية للفريق الثاني أي مرید الآخرة » . <٥>

١ - انظر البحر المحيط ، ٢١/٦ : نظم الدرر ، ٣٩٦/١١ : التحرير والتنوير ، ٦٢/١٥ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٣٧/٣ : راجع روح المعاني ، ٤٨/١٥ .

٣ - انظر المفردات ، ص ٤٩٥ : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٦١٨/٢ .

٤ - البحر المحيط ، ٢١/٦ .

٥ - إعراب القرآن وبيانه ، ٤١٠/١٥ .

والعطاء : اسم لما يعطى ويتناول باليد ، جمعه عطايا ، والمعاطاة : المناولة ، والإعطاء : الإنالة <١> ، فالعطاء إذن : أن تسلّم الشيء بيدك إلى يد أخرى ، ففي التعبير بقوله « من عطاء ربك » إستعارة تصريحية أصلية حيث شبه الفضل العام بالعطاء المسلم يداً بيد زيادة في بيان النعمة ويُسّر الحصول عليها . ومعنى قوله « من عطاء ربك » من العطاء الواسع الذي لا تنتهي له .

وفي وضع المظهر موضع المضمّر في قوله « وما كان عطاء ربك محظوراً » كان مقتضى الظاهر أن يقال « وما كان عطاؤه محظوراً » لكن القرآن عدل عن ذلك ووضع المظهر موضع الضمير « إظهاراً لمزيد الاعتناء بشأنه وإشعاراً بعليته للحكم ، أي وما كان عطاء ربك ممنوعاً ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وإن وجد منه ما يقتضي الحظر كالكفر ، وهو في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين ، والتعرض لعنوان الربوبية للإشعار بمبدئيّتها لما ذكر من الإمداد وعدم الحظر . <٢>

وتأمل تقارب الفواصل في الآيتين الكريمتين حيث جاءت فاصلة الآية الأولى « فأولئك كان سعيهم مشكوراً » والثانية جاءت على هذا النحو « وما كان عطاء ربك محظوراً » وما في هاتين الفاصلتين من تجانس صوتي يكسب النظم القرآني جزالة وفخامة ، يأسر القلوب بوقعه ، ويؤثر في النفوس تأثيراً كبيراً يجعلها تنعطف نحوه وتتأثر به .

١ - انظر المفردات ، ص ٢٢٨ : معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٢٢٦/٢ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٤٢٧/٢ : راجع روح المعاني ، ٤٨/١٥ .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً * أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

تبين هاتان الآيتان عدل الله سبحانه وتؤكدان عدم إضاعة الله أجر من أحسن عملاً ، وتنوهان بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات وتوضحان مالهم من النعيم المقيم في جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يتمتعون فيها بألوان من النعيم والمتاع من أساور من ذهب يحلون بها ، وملابس حريرية من سندس وإستبرق يلبسونها ، وأرائك ناعمة تكون متكأً لهم « نعم الثواب وحسنت مرتفقاً » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يرغب الله عباده المؤمنين في الآخرة مبيناً ما أعده لهم من النعيم الدائم في جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار بالري وبهجة المنظر واعتدال النسيم ، يرفلون في ألوان من الحرير من سندس ناعم خفيف ، ومن إستبرق مخمل كثيف <٢> ، ومن حلي وأساور للزينة مصنوعة من الذهب مرصعة بالجواهر واللؤلؤ ، وأرائك عليها متكئون « نعم الثواب ، وحسنت مرتفقاً » .

ومن خلال هذا النص الترغيبى يعمد القرآن إلى إثارة بواعث الرغبة في النفس البشرية ويدعوها إلى الإيمان بالله والإكثار من الأعمال الصالحة ، وأن تسعى جاهدة لتفوز بهذا النعيم الذي أعده الله لعباده الأبرار في جناته .

وافتح النظم الكريم بحرف التوكيد « إن » لكون الخبر في ذاته حقيقة عظيمة لزيادة الاعتناء بمضمونه .

١ - الكهف : ٢٠ - ٢١ .

٢ - راجع في ظلال القرآن ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٦٩ وما بعدها .

وتعريف المسند إليه بالوصول « الذين » للإشارة إلى وجه بناء الخبر ،
 فقوله « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » يشير إلى أن جنس الخبر من
 النعيم « أولئك لهم جنات عدن ... » وللتنويه عليهم بمضمون الصلة فهم أخلصوا
 الإيمان والعمل .

والاسم الموصول « الذين » اسم إن ، وخبرها يحتمل أن يكون قوله
 « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » والرابط بينهما ضمير محذوف تقديره : من
 أحسن عملاً منهم <١> ، وتكون جملة « أولئك لهم جنات عدن » مستأنفة بياناً للأجر
 المبهم في قوله « إنا لا نضيع أجر ... » .

وتصدير جملة الخبر « إنا لا نضيع ... » بحرف التوكيد « إن » لإظهار
 مزيد من العناية بتحقيق الوعد .

ويحتمل أن تكون جملة « أولئك لهم جنات عدن ... » خبر إن ، وجملة
 « إنا لا نضيع ... » اعتراضية ، ويجوز أن تكون الجملتان خبرين لإن على مذهب
 من يُجوز ذلك ، ولكن بشرط أن يكونا في معنى خبر واحد . <٢>

ويجوز أن يكون خبر « إن » محذوفاً تقديره : إن الذين آمنوا وعملوا
 الصالحات سيوفيهم الله أجورهم ، وتكون جملة « إنا لا نضيع ... » تعليلاً للخبر
 المحذوف أي سنوفيهم أجورهم لأننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

والتعبير بنون العظمة في « إنا لا نضيع » لتأكيد تحقق الوعد ، وإيثار
 التعبير بالمضارع « لا نضيع » ولا النافية - لطلق النفي - للإشارة إلى أن سنة الله
 في خلقه أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً في الماضي والحال والاستقبال .

١ - انظر الكشاف ، ٤٨٢/٢ ؛ البحر المحيط ، ١٢١/٦ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٥١٩/٣ ؛

حاشية الشهاب ، ٩٨/٦ وما بعدها .

٢ - انظر البحر المحيط ، ١٢٢/٦ .

ومن روائع البلاغة القرآنية وضع المظهر موضع الضمير في قوله « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » حيث كان مقتضى الظاهر أن يقال « إنا لا نضيع أجرهم » لكن البيان القرآني خالف ما عليه الظاهر ووضع المظهر موضع المضمرة للدلالة على أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً على العموم .

وفي هذه الآية الكريمة خالف القرآن الكريم ما استقر عليه البلاغيون في باب الفصل والوصل ، حيث تقرر عندهم أنه إذا اتفقت الجملتان في الخبرية أو الإنشائية لفظاً ومعنى وجب الوصل بينهما بالواو ، وهذا ما يعرف بالتوسط بين الكمالين ، لكن القرآن على الرغم من اتفاق الجملتين « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » في الخبرية لفظاً ومعنى فقد فصل بينهما ، وكان بناءً على الظاهر أن يكون بين الجملتين التوسط بين الكمالين أي أن يكون بينهما الوصل لا الفصل .

لذلك أرجح أن تكون جملة « إنا لا نضيع ... » تعليلاً للخبر المحذوف كما ذكرت آنفاً ، لأنه أولى بالسياق وأليق ببلاغة القرآن .

وفي التعبير بقوله « أولئك لهم جنات عدن ... » تفصيل بعد إجمال ، فقد أجمل أولاً الأجر في قوله « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » ثم فصل هذا الأجر بقوله « أولئك لهم جنات عدن » أما سر التفصيل بعد الإجمال فقد ذكرناه في مواطن عديدة من هذا البحث .

والتعبير باسم الإشارة « أولئك » للتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة من صفات <١> ، وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى بعد منزلتهم وعلو درجاتهم الرفيعة تنزيلاً لبعدها المكانة منزلة بعد المكان .

وتقديم الجار والمجرور « لهم » على قوله « جنات » يفيد القصر أي لهم جنات عدن لا غيرهم ، فهو قصر حقيقي تحقيقي .

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٥/٣١١ .

وإضافة « جنات » إلى « عدن » إضافة بيانية لبيان حقيقة هذه الجنات بأنها جنات عدن ، ومعنى عدن : الإقامة والاستقرار يقال عدن بمكان كذا : أي استقر وأقام فيه ^(١) ، فكأن في تخصيص الجنات بأنها جنات عدن إشارة إلى الإقامة الدائمة فيها ، وهذا نهاية التكريم .

وآثر القرآن التعبير بصيغة الجمع « جنات » ولم يقل « جنة عدن » للإيماء إلى سعتها حتى كأن كل ناحية منها جنة . ^(٢)

وجملة « أولئك لهم جنات عدن » إما خبر بعد خبر ، وإما مستأنفة استئنافية بيانياً جاءت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة السابقة تقديره : إذا كان الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً فما هو أجرهم ؟ قيل : « أولئك لهم جنات عدن ... » ولذلك فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

وفي التعبير بقوله « تجري من تحتهم الأنهار » مجاز عقلي علاقته المكانية حيث أسند البيان القرآني الجاري إلى الأنهار وهي مكان جري الماء ، والماء هو الذي يجري في الأنهار لا أن الأنهار هي التي تجري لبيان شدة تدفق الماء وانحداره وكثرتة حتى ليخيل إليك أن المكان يجري ، وهذا كما ترى من روائع التصوير ولطائف التعبير في نظم القرآن . وجملة « تجري ... » إما حال من الجنات أو صفة لها .

ومن في قوله « من تحتهم » ابتدائية أي ابتداء جري الأنهار من تحتهم ، ولذلك آثر القرآن التعبير بقوله « من تحتهم » ولم يقل « تجري تحتهم » للإشارة إلى هذا المعنى .

وقد اقتضت البلاغة القرآنية إضافة كلمة « تحت » إلى ضميرهم هنا دون إضافته إلى ضمير الجنات كما جاء في آيات أخر لتأكيد ابتداء جري الأنهار من

١ - انظر المفردات ، ص ٢٢٦ ؛ روح المعاني ، ٢٧٠/١٥ .

٢ - انظر روح المعاني ، ٢٧٠/١٥ .

تحتهم ، ولأن الحديث في هذا السياق عن المؤمنين لا عن الجنة ولذلك آثر النظم إضافة « تحت » إلى ضميرهم مراعاة لمطابقة مقتضى الحال .

بعد ذلك انتقل القرآن يصف نعيم الجنة بقوله « يطلون فيها من أساور من ذهب ... » ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع « يطلون » من الإشارة إلى التجدد والحدوث ، والضمير في قوله « فيها » عائد إلى الجنة ، وتقديم « فيها » على الجار والمجرور « من أساور » لأن الحديث في هذا الجزء من الآية الكريمة عن الجنة ، ولتعجيل المسرة وإدخال البهجة إلى نفوسهم .

و « من » في قوله « من أساور » بيانية بينت آلة التحلية بأنها أساور من ذهب . « والأساور » : جمع سوار على غير قياس ، وقيل أصله : جمع أسورة الذي هو جمع سوار ، فصيغة الجمع للإشارة إلى اختلاف أشكال ما يطلون به منها ، فإن الحلية تكون مرصعة بأصناف اليواقيت . <١>

ومن في قوله « من ذهب » بيانية صفة الأساور ، وتنكير « ذهب » للتفخيم <٢> ، وفي الكلام اكتفاء * أي من ذهب وفضة ، كما اكتفى في آية سورة

١ - التحرير والتنوير ، ٣١٢/١٥ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥١٩/٣ .

* عرفه السيوطي بقوله « الاكتفاء » : هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة ، ويختص غالباً بالارتباط العطفى كقوله تعالى « سراويل تقيكم الحر » أي والبرد . وعرفه ابن حجة بقوله « هو أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف ، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه ، ويكتفى بما هو معلوم في الذهن فيما يقتضى تمام المعنى ، وهو نوع ظريف ينقسم إلى قسمين : قسم يكون بجميع الكلمة ، وقسم يكون ببعضها ، انظر العمدة لابن رشيق ، ٢٥١/١ ؛ خزنة الأدب ، ٢٨٢/١ - ٢٩٢ ؛ شرح الكافية البديعية لصفي الدين الحلي تحقيق الدكتور نسيب نشاوي ، ص ١٠٥ وما بعدها ؛ الإتيان ، ١٨٠/٣ ؛ معترك الأقران ، ٣٢٠/١ ؛ ريحانة الألبا للخفاجي ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، ١٠٨/٢ وما بعدها ؛ معجم المصطلحات البلاغية ، ٢٨٦/١ - ٢٨٩ .

الإنسان بذكر الفضة عن ذكر الذهب بقوله « وحلوا أساور من فضة » ^(١) ولكل من المعدنين جماله الخالص . ^(٢)

وعلى الرغم من أن هذا الكلام الذي ذكره الطاهر بن عاشور طيب وجميل فإننا لا نجزم بأن في الآية حذفاً لأنه من المحتمل أن ما ذكر في كل موضع خاص بطائفة معينة ، أي بعضهم يُحلّون بأساور من فضة ، وبعضهم يحلون بأساور من ذهب ، وبعضهم يُجمع لهم بين الذهب والفضة لأن الجنة منازل ودرجات .

والتعبير بالمضارع « يلبسون ثياباً » للدلالة على التجدد والحدوث أي يتجدد لباسهم للثياب حالاً بعد حال ، وتكثير « ثياباً وخضراً » للتكثير أي ثياباً كثيرة ، وخضراً صفة لثياب ، وإنما خصت الثياب بالخضرة لأنها أحسن الألوان وأكثرها طراوة وأنفعها عند البصر . ^(٣)

ولعلك تلاحظ أن القرآن الكريم يخاطب عن طريق اللون الحواس المدركة في الإنسان ، حاسة البصر وحاسة اللمس للترغيب في الآخرة للفوز بهذا النعيم .

أما « من » في قوله « من سندس وإستبرق » فهي بيانية ، والسندس : صنف من الثياب وهو الديباج الرقيق يلبس مباشراً للجلد ليقيه غلظ الإستبرق .

والإستبرق : الديباج الغليظ المنسوج من الذهب يلبس فوق الثياب المباشرة

للجلد . ^(٤)

وتأمل روعة البيان القرآني وأسرار اختلاف الصياغة حيث بنى الفعل « يحلون » للمجهول ، وأسند الفعل « يلبسون » إلى ضميرهم ، ففي بناء الفعل للمجهول « يحلون » تركيز على الحدث نفسه بصرف النظر عن فاعله لأن الذين

١ - الإنسان : ٢١ .

٢ - التحرير والتنوير ، ٣١٢/١٥ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ، ٥١٩/٣ ، روح المعاني ، ٢٧١/١٥ ، التحرير ، ٣١٢/١٥ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ، ٣١٢/١٥ .

يحلونهم ولدانهم ، أما إسناد الفعل « يلبسون » إلى ضميرهم ففيه إشارة إلى أن الإنسان هو الذي يباشر بنفسه لبس ملابسه ، وهذا هو سر المخالفة بين الإسنادين .

ولعل السر في تقديم ذكر الحلي « يحلون » فيها من أساور ، « على ذكر اللباس » يلبسون ثياباً » لأن ذلك وقع صفة للجنة ابتداءً ، وكانت مظاهر الحلي أبهج للجنات ، فقدم ذكر الحلي وأخر اللباس لأن اللباس أشد اتصالاً بأصحاب الجنة لا بمظاهر الجنة ، وعكس ذلك في سورة الإنسان في قوله « عاليهم ثياب سندس » ^(١) لأن الكلام هناك جرى على صفات أصحاب الجنة . ^(٢)

ويلاحظ ما في هذه الآية الكريمة من مراعاة نظير بين الأساور والذهب ، وبين السندس والإستبرق .

وفي التعبير بقوله « متكئين فيها على الآرائك » يصف القرآن حال جلوسهم فيها بأنه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فهم في غاية الراحة ^(٣) ، والجملة حال من أولئك أي حال كونهم متكئين فيها على الآرائك .

وفي قوله « متكئين فيها على الآرائك » كناية عن النعيم ، فهي كناية عن صفة . وقد فصلت جملة « نعم الثواب » عن الجملة السابقة لما بينهما من كمال الانقطاع لاختلافهما في الخبرية والإنشائية ، فجملة « متكئين ... » خبرية لفظاً ومعنى ، وجملة « نعم الثواب » خبرية لفظاً إنشائية معنى .

وفي قوله « نعم الثواب » إيجاز بالحذف أي نعم الثواب هو الجنة ، وكذلك في قوله « حسنت مرتفقاً » إيجاز بالحذف أيضاً تقديره : حسنت هي الجنة مرتفقاً .

والوصل بالواو بين جملة « نعم الثواب » وجملة « حسنت مرتفقاً » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً وفي الإنشائية معنى .

١ - الإنسان : ٢١ .

٢ - التحرير والتنوير ، ١٥ / ٣١٤ .

٣ - انظر نظم الدرر ، ١٢ / ٥٥ .

وقال تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

توضح هذه الآية ما أعد الله في الآخرة للذين آمنوا وعملوا الصالحات من جنات تجري من تحتها الأنهار ، يتمتعون فيها بأنواع الحلي وأبهى الملابس ، حيث يحلون بأساور من ذهب ، ويرتدون ملابس مصنوعة من الحرير لأن الله هداهم إلى الطيب من القول ، وهداهم إلى صراط الحميد .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

جاءت هذه الآية تفصيلاً للإجمال في قوله « هذان خصمان اختصموا في ربهم ... » <٢> وكان مقتضى الظاهر أن تكون معطوفة على قوله « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب ... » لأنها تنتم لتفصيل الإجمال السابق ، لكن النظم عدل عن ذلك وغير الأسلوب وجاء به مبتدأً مستقلاً مفتتحاً بحرف التوكيد ومتوجاً بلفظ الجلالة لاسترعاء الأسماع ولتنبيه المخاطبين لوصف حال المؤمنين المقابل لحال الذين كفروا للتنويه بفضلهم وبمالهم من حظوة وكرامة عند الله تعالى <٣> ، كما أن في الفصل بين الجملتين إشارة إلى عدم إشراك هؤلاء المؤمنين مع الذين كفروا من أول الأمر إكراماً لهم وإشعاراً بمكانتهم الرفيعة عند الله عز وجل .

وتأكيد الخبر بـ « إن » لكون مضمون الكلام حقيقة عظيمة ، ولذلك صدرت هذه الآية بحرف التوكيد « إيذاناً بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة وإظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين ودلالة على تحقيق مضمون الكلام » . <٤>

١ - الحج : ٢٣ - ٢٤ .

٢ - الحج : ١٩ .

٣ - راجع التحرير والتنوير ، ٢٣١/١٧ .

٤ - تفسير أبي السعود ، ١٩/٤ .

وللطاهر ابن عاشور كلام جيد أشار فيه إلى ما في هذين النصين الكريمين من روائع المقابلة حيث يقول فقوله « يدخل الذين آمنوا » الخ مقابل قوله « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » وقوله « يحلون فيها من أساور من ذهب » يقابل قوله « يصب من فوق رؤوسهم الحميم » وقوله « ولباسهم فيها حرير » مقابل قوله « قطعت لهم ثياب من نار » وقوله « هدوا إلى الطيب من العقول » مقابل قوله « وذوقوا عذاب الحريق » فإنه من القول النكد . <١>

ولا حاجة بنا إلى هذا القول وإنما يكفي أن نشير إلى أنه جزاء في مقابل جزاء ، وليس من شك في أن القرآن حين يعرض جزاءات المؤمنين في مقابل جزاءات الكفار يهدف إلى الجمع بين الترغيب والترهيب لإبراز التفاوت بين الإهانة والتكريم حين يتقابل الضدان .

ومع أن الصناعة النحوية اقتضت تقديم لفظ الجلالة « الله » على الفعل « يدخل » لكونه وقع اسماً لأنّ إلا أن في هذا التقديم إيماءً إلى أن الفعل ليس له في الوجود فاعل إلا الله سبحانه وتعالى .

ومن روائع البلاغة والإعجاز في القرآن الكريم متشابه النظم ، ففي هذه الآية الكريمة جاء قوله « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات ... » وفي الآية السابقة التي درسناها في الصفحات السابقة جاء قوله « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار» <٢> فما السر في اختلاف الصياغة في الآيتين يا ترى ؟

لعل السر في ذلك - و الله أعلم - أن سورة الكهف مكية ولذلك ناسب أن يرد فيها قوله « أولئك لهم جنات عدن » لإنشاء هذا الحكم وتأسيسه من أول الأمر بأن الجنة للمؤمنين لا لغيرهم على وجه الحصر ، أما سورة الحج فمدنية ولذلك جاء فيها قوله « إن الله يدخل الذين آمنوا ... » لتأكيد هذا المعنى السابق لا لتأسيسه

١ - التحرير والتنوير ، ١٧/٢٣١ .

٢ - الكهف : ٣١ .

من جديد ، وإظهار مزيد من الحفاوة والتكريم بهؤلاء المؤمنين ، وعظيم رضا الله عنهم حيث يتولى الله بنفسه وذاته العلية إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، بالإضافة إلى أن التعبير بالدخول مناسب للسياق ملتمم مع الآيات السابقة لأن فيها إشارة إلى رغبة أصحاب النار الخروج منها ، وفشل محاولتهم من الخروج منها ، فكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها ، وكذلك كان مناسباً لهذا السياق أن يأتي التعبير بالدخول في قوله « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات » ليكون في مقابل التعبير بالخروج والإعادة في شأن المعذبين في النار في قوله تعالى « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدها فيها »^١ للدلالة على نهاية الرضا والتكريم للمؤمنين ، وشدة السخط والتنكيل بأولئك الكفرة أصحاب النار .

والتعبير بالموصول « الذين » للإشارة إلى وجه بناء الخبر ، وللتنويه بتأصل الإيمان في نفوسهم .

وتتكير « جنات » للتعظيم والتفخيم لها أي هي جنات عظيمة ، وفي جمع « الجنات » إشارة إلى أنها واسعة فسيحة حتى كأن كل ناحية منها جنة .

وفي إسناد الجري إلى الأنهار مجاز عقلي علاقته المكانية ، فقد أسند النظم القرآني الجري إلى الأنهار مع أنها مكان جري الماء ولم يسنده إلى الماء للإشارة إلى شدة جري الماء وسرعة اندفاعه وتدفقه ، وهذا التعبير المجازي يوحى إليك أن المكان كله يجري .

ومن في قوله « تجري من تحتها الأنهار » ابتدائية تبين ابتداء جري الأنهار بأنه من تحت الجنات .

وبناء الفعل « يحلون » للمجهول للتركيز على الحدث نفسه لكون فاعله معلوماً لأن الذين يحلونهم هم الولدان المخلدون كما تقدم .

والتعبير بالمضارع « يحلون » للدلالة على التجدد والحدوث أي تحليتهم بالحي تتجدد لهم حالاً فحالاً .

ومن في قوله « من أساور من ذهب » بيانية في الموضعين بينت آلة الحلي بأنها أساور مصنوعة من ذهب ، أما « لؤلؤاً » فهو إما معطوف على محل « من أساور » وإما منصوب بفعل مضمر محذوف دل عليه الفعل « يحلون » تقديره : ويؤتون لؤلؤاً . <١>

وقد عطفت جملة « ولباسهم فيها حرير » بالواو على جملة « يحلون فيها » لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى .

وتقديم الجار والمجرور « فيها » على الخبر « حرير » لأن الحديث عن الجنة لا عن أصحاب الجنة ، ولتعجيل المسرة لهم ، وتنكير « حرير » للتعظيم .

« ولما كانت التحلية غير اللباس جيء باسم اللباس بعد الفعل « يحلون » بصيغة الاسم دون « يلبسون » لتحصل الدلالة على الثبات والاستمرار ، كما دلت صيغة الفعل « يحلون » على أن الحلية متجددة بأصناف وألوان مختلفة » <٢> ، ولذلك أثر القرآن التعبير بالجملة الاسمية بقوله « ولباسهم فيها حرير » ليجمع لهم بين الأمرين بين تجدد اللباس ثوباً بعد ثوب ، وبين ثبات الملابس واستمراره وهو الحرير .

ومما يسترعي الانتباه أن القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة أثر التعبير بالجملة الاسمية « ولباسهم فيها حرير » وفي سورة الكهف أثر الفعلية « ولبسون ثياباً خضراً » <٣> ولعل السر في ذلك كما ذكرت فيما مضى أن سورة الكهف

١ - انظر الكشاف ، ١٠/٣ ؛ تفسير أبي السعود ، ١٩/٤ .

٢ - التحرير والتنوير ، ٢٣٣/١٧ .

٣ - الكهف : ٢١ .

مكية فناسب فيها أن ينشئ الخبر ويؤسسه تأسيساً ، ثم عاد في سورة الحج وهي مدنية فأكد هذا المعنى ، فما في هذه الآية تأكيد لما في سورة الكهف .

وفى التعبير بقوله « وهدوا إلي الطيب من القول » إيجاز بالحذف حيث حذف الفاعل تقديره : هداهم الله الى الطيب من القول .

وبناء الفعل « هدوا » للمجهول حيث حذف الفاعل للعلم به مع إرادة الإيجاز لأن الله هو الهادي .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال « وهدوا إلى القول الطيب » لكن النظم عدل عن ذلك وقدم الصفة على الموصوف لأنها محط الفائدة .

ومعنى « وهدوا إلى الطيب من القول » أن الله يرشدهم ويلهمهم أقوالاً حسنة يقولونها فيما بينهم على نحو ما ينبئ عنه قوله تبارك وتعالى « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » ^١ وقوله تعالى « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » . ^٢

وعطف هذه الجملة بالواو على ما قبلها لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى ، أما جملة « وهدوا إلى صراط الحميد » فقد جاءت معطوفة بالواو على جملة « وهدوا إلى الطيب من القول » فبين الجملتين التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظاً ومعنى مع وجود القرنية المؤيدة للوصل .

ولا يخفى ما في التعبير بقوله « صراط » من تصوير بياني أسر فقد شبه دين الله بالصراط بجامع الهداية في كل ثم حذف المشبه وتنوسي التشبيه وجعل

١ - يونس : ١٠ .

٢ - الزمر : ٧٤ ؛ راجع التحرير والتنوير ، ١٧/٢٣٤ .

اللفظ الدال على المشبه فرداً من أفراد المشبه به وداخلاً في جنسه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وجمال هذه الاستعارة وسرها البلاغي أنها صورت المعقول في صورة المحسوس لزيادة الاعتناء بالمعقول وتجسيد معناه .

أما التعبير بقوله « الحميد » فهو صفة لموصوف محذوف تقديره : صراط الله الحميد ، وعلى هذا ففي هذا التعبير إيجاز بالحذف ، حيث حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه لأنها محط الفائدة لأن المقام مقام حمد وشكر .

ولعل في إثارة النظم القرآني التعبير بصيغة المبالغة « الحميد » أي المحمود كثيراً ، إشارة إلى وجوب تكرار الحمد وكثرته عقب هذه النعم الكثيرة .

المبحث الثاني

الترهيب من الرهكون إلى الدنيا في
القرآن الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترهيب من الرهوك إلى الدنيا في القراء الحكيم وسماته البلاغية

الترهيب من الركون إلى الدنيا والافتتان بها

لقد رهب القرآن الكريم من الركون إلى الدنيا وحذر من الاغترار بها لسرعة زوالها وفنائها حيث شبهها في سرعة تقضيها وزوالها بماء أنزله الله من السماء فأحيا به نبات الأرض حتى رذا تكاثف وتكاثر جعله حطاماً تذروه الرياح ، وهذه صورة شاخصة للعيان تمثل قصة الحياة ببريقها وبهجتها وفتنتها ثم ما يلبث هذا البريق أن يتلاشى كأن لم تكن من قبل .

وقد حذر البيان القرآني من الاغترار بالدنيا والتكالب على متعها وزهد فيها وفي لذاتها الفانية ، فمتاع الدنيا فانٍ حقير .

وليس معنى التقليل من متاع الحياة الدنيا التزهيد فيه أو صرف الناس عن المتعة به فإن الدين إنما جاء الكثير من أحكامه لتنظيم شؤون هذه الحياة والرقى بها إلى مستوى رفيع وإجادة استغلال ما أودع الله في هذه الطبيعة من القوى ، والقرآن نفسه يدعو إلى الاستمتاع بها من غير إسراف ، ويعجب ممن يحرم طيبات ما أحل الله ، ولا يدعو الناس إلى أن ينصرفوا عن متعها وجمالها ولذتها ، ولكنه يعنف أولئك الذين يجعلون غايتهم تلك المتعة ثم ينسون الآخرة وينصرفون عن التفكير فيها ولا يعملون لأجلها ، فهؤلاء ضلالهم واضح بعيد ، حيث اشتروا المتاع الذي ينفذ بالنعيم الخالد « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » وقد كثر حديث القرآن عن الدنيا موضحاً حقاقتها مزهداً فيها ، مهدداً أولئك الذين يريدون العاجلة ^(١) « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً » « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

والآن نمضي قدماً لاستجلاء روائع التعبير القرآني في الترهيب من الركون إلى

الدنيا من خلال دراسة بعض الآيات القرآنية دراسة بلاغية كاشفة .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظُنُّ أَهْلِهَا أَنَّهَا قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

يحذر الحق سبحانه وتعالى من الركون إلى الدنيا مبيناً سرعة زوالها وفنائها بأنها كماء أنزله الله من السماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، فأنبئت الأرض واخضرت بالأشجار والزرع المختلفة الطعوم والألوان ، فبدت عروساً فاتنة متزينة بأحلى الحلل ، فظن أهلها أنهم قادرون على إخضاعها لأغراضهم ، وامتلاك زمامها ، ركنوا إليها واغتروا بعدم زوالها ، فبينما هم كذلك أتاهم أمر الله فدمرها تدميراً كأن لم تغن بالأمس ، وأصبحت أثراً بعد عين كأن لم يكن لها وجود سابق من قبل .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

عمد القرآن الكريم إلى الترهيب من الركون إلى الحياة الدنيا والتحذير من الاغترار بها والافتتان بها - لأنها مهما بلغت من الجمال والزينة صائرة إلى الفناء والزوال - من خلال هذه الصورة الرائعة التي تصور سرعة زوال الدنيا وانصرام نعيمها بصورة النبات في سرعة جفافه وذهابه حطاماً ليس له أثر بعدما التف وتكاثر وزين الأرض وكساها بخضرتها حلة قشبية تخلب الأنظار .

ويكمن سر التأثير في التصوير القرآني في إبرازه الأمور المعنوية في صورة محسوسة ، فمن خلال هذا التشبيه عمد القرآن إلى الترهيب من الحياة الدنيا والتزهيد فيها بتصويرها في صورة حسية مرئية تقع تحت البصر والسمع ،

في صورة النبات الزاهي الذي يصيبه الذبول ، وصورة النضارة والذبول من الصور المرئية حيث نرى في كل وقت نباتاً يحيا ونباتاً يموت .

ففي هذا النص الترهيبى إشارة إلى عظيم قدرة الخالق عز وجل ، ودلالة على حقارة الدنيا وسرعة زوالها ، وتحذير من الاغترار بها ، وتنبية إلى هذا المصير المحتوم .

وفي هذه الآية الكريمة تشبيه تمثيلي « شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثر وزين الأرض بخضرتها ورفيفه » ^١ فهو تشبيه تمثيلي لتركب الوجه وعقليته .

ووجه الشبه كما ذكر الرماني « اجتمع المشبه والمشبه به في الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده ، وفي ذلك العبرة والموعظة لمن تفكر في أن كل فانٍ حقير وإن طال مدته ... » ^٢ أما غرض التشبيه فهو تقرير حال المشبه في ذهن السامع . ^٣

وبناء التشبيه على هذا النحو من التفصيل والتداخل يزيد في حسنه وتأثيره بحيث لا يمكننا الاستغناء عن جزء منه فهو جملة واحدة ، وإلى هذا أشار إمام البلاغين الشيخ عبدالقاهر بقوله « ألا ترى » إلى نحو قوله عز وجل « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه » كيف كثرت الجمل فيه ؟ حتى إنك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت ، وهي وإن كان قد دخل بعضها في بعض حتى كأنها جملة واحدة ، فإن ذلك لا يمكن من أن تكون صور الجمل معناها حاصلة تشير إليها واحدة واحدة ، ثم إن الشبه منتزع من مجموعها ، من غير أن يمكن

١ - الكشاف ، ٢٢٣/٢ ؛ راجع البحر المحيط ، ١٤١/٥ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٩٥٣/٣ ؛ حاشية الشهاب ، ٢٠/٥ ؛ حاشية زاده ، ١٠/٢ ؛ التحرير والتنوير ، ١٤١/١١ ؛ القرآن إعجاز وبلاغته ، ص ١٣٢ ؛ الإعجاز البلاغي ، ص ١٠٧ .
٢ - النكت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٨٣ .
٣ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم ، ص ٢٠ .

فصل بعضها عن بعض ، وإفراد شطر من شطر حتى إنك لو حذفتم منها جملة واحدة من أي موضع كان ، أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه » . <١>

ومن روائع التعبير القرآني بناء التشبيه على أسلوب القصر « إنما » لتأكيد المقصود من التشبيه وهو سرعة زوال الدنيا وانقضائها ، قصر موصوف هو الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف بعدة صفات عارضة طارئة لا تلبث أن تتلاشى وتزول ، فإذا الحياة يلفها العدم . <٢>

والقصر في هذه الآية حقيقي تنزيلي لا إضافي بالنسبة للبيان القرآني لأن القرآن لم يمثّل الحياة الدنيا إلا بهذا التمثيل .

ولا مانع من جعل القصر هنا قصر قلب بتنزيل المطمئنين إلى الدنيا منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا لأن حالهم في الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه وينكر أن يكون له انقضاء سريع ومفاجيء . <٣>

وتنكير « ماء » في قوله « كماء » للنوعية ، وإسناد الفعل « أنزلناه » إلى نون العظمة للتفخيم من شأن الماء .

ومن في قوله « من السماء » ابتدائية للدلالة على أن النفع لا يكون إلا من السماء ابتداءً ، وأن الأرض لا يصلح فيها شيء إلا إذا أمدتها السماء . <٤>

وتأمل روعة النظم حيث شبه الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض لأن ماء السماء - وهو الغيث - لا تأثير للإنسان بزيادة أو نقصان فيه بخلاف ماء الأرض ، فكان تشبيه الحياة به أنسب <٥> ، بالإضافة إلى ما فيه من الإشارة إلى أن المنفعة تكون من السماء ابتداءً ، ولا يخفى ما في التعبير بالسماء والأرض من مطابقة .

١ - أسرار البلاغة ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ص ١٠٩ .

٢ - راجع المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، ص ١٥٧ ؛ التحرير والتنوير ، ١٤١/١١ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٤١/١١ ؛ راجع نظم الدرر ، ١٠١/٩ .

٤ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٠٩ .

٥ - انظر الفتوحات الإلهية ، ٣٤٢/٢ .

أن المنفعة تكون من السماء ابتداءً ، ولا يخفى ما في التعبير بالسماء والأرض من مطابقة .

والفاء في قوله « فاختلط به نبات الأرض » مشعرة بسرعة ظهور النبات عقب المطر ، مؤذنة بسرعة نماء الحياة في أول أطوارها ، وعبر عنه بالاختلاط بالماء بحيث ظهر قبل جفاف الماء أي فاختلط النبات بالماء أي داخله وقارنه .

وفي التعبير بقوله « اختلط به » مجاز عقلي علاقته المفعولية أي خلطناه بنبات الأرض . وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فاختلط الماء بالنبات لكن النظم القرآني عدل عن ذلك فجعل النبات هو المخالط للماء للمبالغة في شدة احتياج النبات للماء وسببية الماء في الإنبات .

وجملة « مما يأكل الناس والأنعام » في محل نصب حال من النبات أي كائناً مما يأكل الناس والأنعام ^{<١>} . وتقديم « الناس » على « الأنعام » للفضل والشرف ، والعطف بالواو في قوله « مما يأكل الناس والأنعام » لاستقصاء جميع النباتات ، حيث لم يكتف البيان القرآني بقوله « مما يأكل الناس » بل زاد الأنعام للدلالة على استقصاء جميع ما يأكله الناس والأنعام « من البقول والزرع والحشيش » . ^{<٢>}

وفي التعبير بقوله « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت » إستعارة مكنية حيث شبهت الأرض بالعروس ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو أخذ الزينة وهي قرينة المكنية ، وازينت ترشيح لهذه الاستعارة . ^{<٣>}

ويحتمل أن يكون في إسناد أخذ الزخرف والزينة إلى الأرض مجاز عقلي علاقته المفعولية أي آتينا الأرض زخرفها وزينتها ، وهذا التعبير المجازي يخيل إليك

١ - انظر البحر المحيط ، ١٤٢/٥ .

٢ - تفسير زبي السعود ، ٩٥٢/٢ ؛ راجع حاشية الشهاب ، ٢٠/٥ ؛ روح المعاني ، ١٠٠/١١ .

٣ - انظر حاشية زاده ، ١٠/٣ .

أن الأرض أصبحت ذات إرادة تقوم بتزيين نفسها بأحلى الطل كما تتزين العروس بأبهى الثياب الفاخرة .

وفي إيثار النظم الكريم التعبير بكلمة حتى الغائية في قوله « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها » بيان وتحديد لظرف الاغترار بالدنيا والركون إليها وانهماكهم في تناول لذائذها ونسيانهم المصير إلى الفناء . كما يجوز أن يكون استعارة تمثيلية .

أما قوله « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » ففيه كناية عن الغرور العلمي الذي ظهر في العصر الحديث فعلماء الغرب العلمانيون تخيلوا أنهم بالعلم وحده يستطيعون أن يسيطروا على الأرض سيطرة تامة .

ومعنى « أنهم قادرون عليها » أنهم متمكنون منها مستمرين على الانتفاع بها محصلون لثمراتها ^{<١>} ، ولذلك أثر النظم التعبير بالجملة الاسمية ولم يقل « يقدرون عليها » للإشارة إلى دوام انتفاعهم بها واستمرار تمكنهم منها .

وتأمل جمال التعبير القرآني بقوله « أتاها أمرنا » ولم يقل « أتاهم أمرنا » مع أنهم المقصودون بالعقاب لظنهم القدرة عليها اغتراراً بزخرفها وزينتها ، فانقطعت أسباب الاغترار بهذه المفاجأة والمباغطة وهم في وسط هذا النعيم والخصب الممرع وفي غمرة هذا الاطمئنان الواثق « أتاها أمرنا ليلاً أونهاراً » أي في لحظة خاطفة وسرعة فائقة فأصبحت هشيماً كأن لم تغن بالأمس .

ففي إسناد الإتيان إلى الأمر مجاز عقلي علاقته المفعولية والتقدير : أتيناها أمرنا ، ولا يخفى ما في إسناد الإتيان إلى الأمر من المبالغة في تهويل الأمر وتفخيمه ، وقد زاد هذا الأمر تهويلاً وتفضيلاً له إضافته إلى الله سبحانه وتعالى .

والمراد بالأمر : ضرب زرعها بما يجتاحه من الآفات والعاهات والصواعق والريح العاتية . ^{<٢>} وفي التعبير بقوله « أمرنا » كناية عن الإهلاك والإبادة .

١ - راجع تفسير أبي السعود ، ٩٥٣/٢ .

٢ - راجع السابق الموضع نفسه .

وتتكير « ليلاً ونهاراً » يفيد التبويض أي في جزء من الليل أو في جزء من النهار ، وفي هذا تنبيه على أن العذاب يأتي مباغته في جزء من الليل غير معروف أو في جزء من النهار غير معروف ، وفيه إشارة إلى سرعة الإبادة والإفناء . إذ يكفي لتدميرها بعض الليل أو النهار .

أما قوله « فجعلناها حصيداً » فهو تشبيه مؤكد محذوف الأداة أي كحصيد ، وفي التعبير بصيغة « جعلناها حصيداً » مع أن المحصود نباتها مجاز عقلي علاقته المفعولية ، ولعل السر من وراء التعبير بصيغة فعيل « حصيد » دون مفعول « محصود » للإشارة إلى أن الهلاك قد جاء من كل جهة حتى لكأن ما على الأرض من زروع ونبات كان يحصد نفسه ، ولو جاء التعبير بصيغة مفعول لما دل على هذا المعنى الذي أوماً إليه التعبير بكلمة « حصيد » وهذا كما ترى من خصائص التعبير القرآني وإحكام نظمه وقدرته على اختيار ما يناسب كل سياق من الألفاظ والتراكيب القادرة على الوفاء بالمعاني التي يتطلبها المقام .

وفي التعبير بقوله « كأن لم تغن بالأمس » تشبيه مرسل لذكر الأداة « فحواه تنزيل وجود الدنيا حيث كانت بمنزلة العدم لسرعة فنائها وذهاب أثرها » . <١>

وأصل معنى « تغن » من غني بالمكان إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره <٢> . وفي التعبير بقوله « لم تغن » إيجاز بالحذف أي لم يغن زرعها ، ولا يخفى ما في حذف المضاف من المبالغة في زوال الدنيا أي كأن لم تكن من قبل .

والمراد بالأمس الزمن الماضي القريب أي كأن لم تغن فيما قبل بزمن قريب

فإن الأمس مثل « في ذلك كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً » . <٣>

١ - خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ٢٤٩/٢ .

٢ - انظر المفردات ، ص ٣٦٦ .

٣ - انظر الكشاف ، ٢٣٣/٢ : تفسير أبي السعود ، ٩٥٣/٢ : التحرير والتنوير ، ١٤٤/١١ .

والباء في قوله « بالأمس » للظرفية أي في الأمس <١> ، لكن ما السر في إثارة القرآن التعبير بحرف الإلصاق والمصاحبة « الباء » على حرف الظرفية « في » في هذا النظم القرآني ؟

لعل السر في إثارة القرآن التعبير بحرف المصاحبة للدلالة على استغراق الزمن كله ووقوع الحدث في أي جزء من أجزائه دون القصد إلى أعماقه أو الدلالة على التمكن فيه . <٢>

ثم تختتم الآية الكريمة بهذه الفاصلة « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » أي مثل ذلك التفصيل البديع نوضح الآيات ونبينها . <٣>

وفي التعبير بقوله « كذلك نفصل الآيات » تشبيهه ، ترى فيه أداة التشبيه « الكاف » دخلت على اسم الإشارة المشار به إلى الجمل السابقة ، فالمشبه به اسم الإشارة الملحوظ فيه معاني الجمل التي أشار إليها ، والمشبه الفعل « نفصل » أي كذلك التفصيل نفصل الآيات .

والتعبير باسم الإشارة البعيد « كذلك » للإشارة إلى علو المشار إليه وبعد منزلته . وتأمل جمال التصوير البياني في قوله « نفصل » حيث استعير التفصيل للتوضيح والتبيين ثم اشتق من التفصيل الفعل « نفصل » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . أما سرها البلاغي فهو إبراز المعقول في صورة المحسوس اعتناءً بشأنه وتجسيداً لمعناه في صورة ملموسه محسة .

وتنكير « قوم » يفيد العموم « والقرآن الكريم أسلوب هداية ، وقد أثر تنكير « قوم » هنا ليفسح المجال واسعاً أمام جميع الطوائف .

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١١/١٤٤ .

٢ - راجع من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، ص ١٨٨ - ١٩٠ .

٣ - راجع تفسير أبي السعود ، ٢/٩٥٣ .

والتعبير بالمضارع « يتفكرون » للدلالة على التجدد والحدوث ، أي يتجدد تفكرهم في الآيات الكونية حالاً فحالاً .

وفي هذه الفاصلة تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بالآيات ليسوا من أهل التفكير ، ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم . <١>

وقال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ . <٢>

المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآية الكريمة حقيقة الحياة الدنيا وسرعة فنائها وزوالها بأنها كماء أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض حتى إذا تكاثر وترعرع وتكاثف أصبح هشيماً محطماً تطيره الرياح فتفرقه وتشره في كل مكان فلا ينتفع به وكان الله على كل شيء مقتدراً .

خصائص النظم وأسراره البلاغية :

في هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بتحذير المشركين من الاغترار بالدنيا وذلك بأن يضرب لهم ما يشبهها في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يطمئنوا إليها ولا يعكفوا عليها ولا يضربوا عنها صفحاً <٣> ، مبيناً لهم حقارة الدنيا وزوالها ومصير ما فيها من النعيم إلى الهلاك .

ففي هذا البيان القرآني تشبيه تمثيلي حيث شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفاً ثم يهيج فتطيره الرياح وتشره في كل مكان فلا ينتفع به كأن لم يكن . <٤>

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١١/١٤٤ .

٢ - الكهف : ٤٥ .

٣ - راجع تفسير أبي السعود ، ٣/٥٢٤ .

٤ - انظر الكشاف ، ٢/٤٨٦ ؛ التفسير الكبير ، ٢١/١٣١ ؛ البحر المحيط ، ٦/١٢٢ ؛ القرآن إعجازه وبلاغته ، ص ١٢٢ .

وقد طوت هذه الآية في هذا التشبيه كثيراً من التفصيلات التي تخلت تشبيه آية يونس ، حيث اكتفت بذكر الطرفين وطوت ما بينهما ، فقد ذكرت الماء الذي أنزله الله من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، ثم انتقلت إلى ذكر النهاية « فأصبح هشياً تذروه الرياح » .

وبدهي أن للسياق أثراً كبيراً في اختلاف الصياغة في التشبيهات القرآنية المتشابهة ، وانفراد بعضها بخصائص تركيبية تجعل بعضها يتميز بها عن غيره في بناءه الخارجي .

ولعل السر في افتتاح هذا التشبيه بالفعل « اضرب » عائد إلى السياق حيث نجده يرشح لهذا التعبير لكونه ملتئماً مع قوله تعالى « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين » ^{<١>} ولذلك لم يرد هذا التعبير في التشبيهات الأخرى لكونه مرتبطاً بسياقه ملتئماً معه ، ولعل هذا هو ما أوما إليه البقاعي بقوله « ولما أتم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي أبطرتهم فكانت سبب إشقائهم وهم يحسبون أنها عين إسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس في قلة بقائها وسرعة فنائها ، وأن من تكبر بها كان أخس منها فقال تعالى « واضرب لهم » أي لهؤلاء الكفار المغترين بالعرض الفاني ، المفتخرين بكثرة الأموال والأولاد وعزة النفر « مثل الحياة الدنيا » . ^{<٢>}

وفي التعبير بقوله « اضرب » إستعارة تصريحية تبعية حيث استعير « اضرب » لأذكر أي أذكر لهم مثلاً بليغاً يؤثر في نفوسهم تأثير الضرب في المضروب .

والضمير في « لهم » عائد إلى المشركين ، والكاف في قوله « كماء » في محل نصب حال من الحياة أي اضرب لهم مثلاً لها حال أنها كماء أنزلناه من السماء . ^{<٣>}

١ - الكشف : ٣٢ - ٤٤ .

٢ - نظم الدرر ، ٦٧/١٢ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ٣٣١/١٥ .

وتنكير « ماء » للنوعية أي نوعاً عظيماً من الماء على نحو ما ينبىء عنه إسناد الفعل « أنزلناه » إلى ضمير العظمة تفخيماً للماء وتعظيماً لشأته .

ومن في قوله « من السماء » ابتدائية ، ففي هذا التعبير « تنبيه على بليغ القدرة في إمساكه في العلو وإنزاله وقت الحاجة على الوجه النافع . <١>

وتأمل ما تدل عليه فاء السببية في قوله « فاختلط به نبات الأرض » من السرعة فما إن نزل الغيث حتى اختلط به النبات ، وحيي به وتنامى وتكاثر ، وفي التعبير بقوله « اختلط » مجاز عقلي علاقته المفعولية أي خلطنا وأحيينا به النبات .

والباء في « به » للسببية ، والضمير عائد إلى « ماء » أي اشتبك بسببه نبات الأرض وتكاثر وتكاثر حتى خالط بعضه بعضاً أو نجح الماء في النبات حتى روي ورف رفيفاً ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : فاختلط الماء بالنبات لكن البيان القرآني أثر ما عليه النظم الكريم للمبالغة في الكثرة فإن كلاً من المختلطين موصوف بصفة صاحبه <٢> . والفاء في قوله « فأصبح هشيماً تذروه الرياح » للتعقيب للدلالة على أن تحطم النبات وتهشمه حدث عقب ظهور النبات وتكاثره .

وفي التعبير بقوله « فأصبح هشيماً » تشبيه بليغ محذوف الأداة أي أصبح كالهشيم ، بيد أن حمل هذا التعبير على التشبيه فيه ضعف ، لأن أصبح مستعملة هنا بمعنى « صار » <٣> أي صار النبات هشيماً ، وهذا أولى وأليق بالسياق من القول بأن في هذا التعبير تشبيهاً .

ومن روائع النظم القرآني التعبير بصيغة فاعل « هشيماً » بمعنى مفعول « مهشوماً » للمبالغة في شدة التهشيم حتى لكان هذا الحدث صدر عن النبات نفسه .

١ - نظم الدرر ، ٦٨/١٢ .

٢ - انظر الكشاف ، ٤٨٦/٢ ؛ التفسير الكبير ، ١٣١/٢١ ؛ تفسير أبي السعود ، ٥٢٤/٣ وما بعدها .

٣ - انظر البحر المحيط ، ١٢٣/٦ ؛ التحرير والتنوير ، ٣٢١/١٥ .

وفي التعبير بقوله « تذروه الرياح » مجاز عقلي علاقته السببية لأن الفاعل الحقيقي هو الله عز وجل لكن البيان أسند هذا الفعل إلى الرياح لأنها سبب في الذري ، فالرياح فاعل عرفي لا حقيقي للذري .

وتأمل دقة النظم وروعة التعبير القرآني في قوله « تذروه الرياح » ولم يقل « الريح » للمبالغة في تصوير معنى الهلاك والفناء لأن ما تذوره الرياح أكثر فناء مما تذروه ريح واحدة .

أما جملة « وكان الله على شيء مقتدراً » فهي في محل نصب حال أي حال كون الله على كل شيء مقتدراً ، وتنكير « شيء » للعموم أي إن الله على أي شيء من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء كان مقتدراً . <١>

ولبيان عظمة الخالق وعظيم قدرته أثر النظم التعبير بقوله « مقتدراً » ولم يقل « قادراً » إشارة إلى شدة قدرة الخالق ، لأن مقتدر تعني القوي القدرة فهو أقوى من قادر .

وقد وقعت هذه الجملة تذييلاً مؤكداً لمضمون ما قبله ، وفيها تذكير بقدرة الله تعالى على خلق الأشياء وأضدادها .

وللبقاعي رحمه الله كلام طيب ذكره تعقيباً على هذه الآية حيث يقول « ولما تبين ... أن التي أوردت أهلها الموارد وأحلتهم أودية المعاطب ، سريعة الزوال وشيكة الارتحال ، مع كثرة الأنكاد ، ودوام الأكدار من الكد والتعب ، والخوف والنصب كالزراع سواء ، تقبل أولاً في غاية النضرة والبهجة ، تتزايد نضرتها وبهجتها شيئاً فشيئاً ، ثم تأخذ في الانتقاص والانحطاط إلى أن تنتهي إلى الفناء ، فهي جديرة لذلك بالزهد فيها والرغبة عنها ، وأن لا يفتخر بها عاقل فضلاً عن أن يكثر بها غيره . <٢>

١ - راجع تفسير أبي السعود ، ٥٢٥/٣ .

٢ - نظم الدرر ، ٦٨/١٢ وما بعدها .

وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم
وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً
ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة
الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

توضح هذه الآية الكريمة حقيقة الحياة الدنيا بأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر
وتكاثر في الأموال والأولاد ، ثم تصور الآية الحياة الدنيا أدق تصوير - مؤكدة أنها
زائلة فانية سريعة الزوال - بأنها كمثل الزرع الخصيب الذي ينمو وينبت بنزول
الغيث النافع ، ثم يصفر ويذبل ثم يصير حطاماً تذروه الرياح ، ثم تشير إلى أن
من ركن إلى الدنيا واغتر بها فله في الآخرة عذاب شديد ، أما من جعل الآخرة
همه وغايته فله مغفرة ورضوان من الله ، ثم تحذر من الاغترار بالدنيا ومتاعها
الفاني الحقيقير « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

يبين النظم القرآني حقيقة الدنيا بأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في
المال والولد محذراً من الافتتان بها ، ومرهباً من الاغترار بها والركون إليها ،
ومزهداً فيها من خلال تصويرها في صورة حقيرة تهون من شأنها وتؤكد سرعة
زوالها .

وفي هذا البيان القرآني تشبيهات ثلاثة متتالية تدل على حقارة الدنيا
وسرعة فنائها ، حيث شبهها في الأول بأنها كاللعب واللهو في عدم الفائدة وقلة
الجدوى ، والثاني بأنها كالغيث في سرعة الاضمحلال والذبول وسرعة الفناء
والزوال ، والثالث بأنها متاع الغرور في حسن الظاهر وحقارة الباطن . <٢>

١ - الحديد : ٢٠ .

٢ - راجع أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٢٧ .

ولعل التشبيه الثاني « كمثل غيث » أجمع هذه التشبيهات لأنه يكاد يكون أهم عنصر في هذه الصورة ، حتى إننا لو حذفناه من السياق نجد الصورة انهارت تماماً .

وبإلقاء نظرة سريعة على سياق هذه الآية يهدينا إلى أسرار بناء التشبيه على هذا النحو من التداخل والتشابك والترابط ، حيث نرى السياق يحث على الإنفاق في سبيل الله وعلى البذل والعطاء في قوله تعالى « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم »^١ ثم يأتي التشبيه بعد ذلك مؤكداً حقيقة الدنيا بأنها زائلة تحقيراً لها وتزهيداً فيها .

ويزخر النظم القرآني بروائع البيان ولطائف البلاغة من أهمها افتتاح الآية الكريمة بفعل الأمر « اعلموا » للدلالة على شدة التركيز تنبيهاً للمخاطبين إلى أن ما سيلقى بعده جدير بالعناية والاهتمام .

وبناء التشبيه بأسلوب القصر « إنما » لزيادة تقرير حقيقة الحياة الدنيا في أذهان المخاطبين تحقيراً لشأنها وتنفيراً من الركون إليها .

والقصر هنا قصر موصوف وهو الحياة الدنيا على هذه الصفات المذكورة في الآية قبل التمثيل بقوله « كمثل غيث » وهو قصر حقيقي تنزيلي .

وفي التعبير بقوله « لعب ولهو وزينة » تشبيه بليغ لأن أداة التشبيه محذوفة أي كلعب ولهو وزينة ، ويبدو أن السر في حذف الأداة للدلالة على تساوي المشبه بالمشبه به تحقيراً لشأنها بأنها لعب لا ثمرة فيها سوى التعب ، ولهو تشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وزينة وتفاجر بالأنساب وتكاثر في الأموال والأولاد .

وتأمل روعة البيان القرآني في ترتيب هذه المعطوفات ، وتقديم بعضها على بعض ، حيث راعى القرآن في هذا التقديم منهج التدرج من الأعم إلى الأخص .

ومعنى اللعب : مأخوذ من اللعاب وهو البزاق السائل ، ويقال لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً . <١>

أما اللهو : فهو كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، يقال لهوت بكذا ولهيت عن كذا : اشتغلت عنه بلهو . <٢>

وعلى الرغم من تقارب هاتين الكلمتين في الدلالة فإن بينهما فروقاً دقيقة ، فاللعب لا يكون إلا فعلاً لم يتحدد من ورائه قصد مفيد ، أما اللهو فقد يكون فعلاً من أفعال النفس غير مصحوب بحركة ويكون حينئذ أقرب إلى معنى الذهول . <٣>

وذكر الزركشي حكمة لطيفة في تقديم اللعب على اللهو في هذا البيان القرآني بقوله « وإنما قدم اللعب على اللهو في الأكثر لأن اللعب زمان الصبا واللهو زمان الشباب ، وزمان الصبا متقدم على زمان اللهو » <٤> ولعل تقديم اللعب على اللهو لأن اللعب أعم من اللهو لأن اللعب عمل مصحوب بحركة ، أما اللهو فهو عمل من أعمال النفس ليس مصحوباً بحركة .

أما تقديم اللهو على الزينة فلأن من أسباب الاشتغال بالزينة اللهو بها ، فاللهو أعم من الزينة ولذلك قدم عليها .

والتفاخر : الكلام الذي يفخر به ، والفخر حديث المرء عن محامده ، والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل ، وآثر النظم التعبير بصيغة التفاخر ولم يقل « فخرأ » للإشارة إلى أن الفخر لا يقع إلا بين طرفين على نحو ما أنبأ عنه تقييده بالظرف « بينكم » . <٥>

١ - انظر المفردات ، ص ٤٥٠ .

٢ - السابق ، ص ٤٥٥ .

٣ - انظر خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية ، ١٩٦/٢ .

٤ - البرهان في علوم القرآن ، ١٢١/٥ .

٥ - انظر التحرير والتنوير ، ٤٠٢/٢٧ .

والتكاثر : تفاعل من الكثرة ، وصيغة التفاعل هنا للدلالة على شدة رغبة الإنسان في التكاثر وحرصه على أن يُكثّر ماله وولده حتى لكأنه يغالب غيره في تكثير ماله وولده .

وذكر السهيلي * أن السر في تقديم الأموال على الأولاد في القرآن الكريم « لأن الولد بعد وجود المال نعمة ومسرة ... ، فهذا من تقديم السبب على المسبب لأن المال سبب تمام النعمة بالولد <١> . ونضيف إلى ما ذكره السهيلي بأن الإنسان يكون له مال قبل أن يكون له ولد ، كما أن اشتغاله بالمال أكثر من اشتغاله بالولد .

والجار والمجرور في قوله « كمثل غيث » إما في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هي كمثل غيث ، ولعل السر في حذف المسند إليه « هي » للإيجاز والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر ، وإما أن يكون في محل نصب حال تقديره : مثل حال الحياة الدنيا كحال غيث أعجب الكفار نباته .

وفي التعبير بقوله « كمثل غيث » تشبيه تمثيلي حيث « شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاماً . <٢>

* هو أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أصبغ بن حبيش الخثعمي السهيلي ، كان عالماً بالعربية واللغة والقراءات والتفسير والحديث والتاريخ والأنساب ، جامعاً بين الرواية والدراية ، واسع المعرفة غزير العلم توفي بالأندلس ليلة الخميس في الخامس عشر من شوال سنة ٥٨١ هـ ، من مؤلفاته : الروض الأنف ، شرح الجمل ، التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام . ونتائج الفكر في النحو انظر ترجمته في إنباه الرواة ، ١٦٢/٢ - ١٦٤ : بغية الوعاة ، ٨١/٢ وما بعدها .

١ - نتائج الفكر في النحو للسهيلي ، تحقيق : الدكتور محمد إبراهيم البنا ، ص ٢٧٠ وما بعدها .

٢ - الكشاف ، ٦٥/٤ : راجع تفسير أبي السعود ، ٢٨٠/٥ : حاشية الشهاب ، ١٦٠/٨ : الفتوحات الإلهية ، ٢٩٢/٤ : القرآن إعجازه وبلاغته ، ص ١٢٣ .

ووجه الشبه بين المشبه والمشبه به في هذا التمثيل أنهما « اجتمعا في شدة الإعجاب ثم في التغيير بالانقلاب ، وفي ذلك الاحتقار للدنيا والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها » . <١> أما غرض التشبيه فلتقرير حال الدنيا في ذهن السامع . <٢>

ومن خصائص التشبيه التمثيلي أن أداة التشبيه تدخل على أهم عنصر في الصورة على نحو ما يتضح في هذه الآية حيث دخلت « الكاف » على كلمة « غيث » لأنه أهم جزء في هذه الصورة إذ ليس في بقية الأجزاء الأخرى جزء ليس للغيث أو الماء مدخل فيه ، ولذلك أثر البيان القرآني التعبير بقوله « كمثل غيث » ولم يقل كمثل نبات أعجب به الزراع لأهمية الماء في حياة النبات ونموه ، فالتعبير بالغيث فيه معنى الإحياء والغوث ، ويصور شدة الحاجة والفاقة التي يكون عليها المستغيث حتى إذا نزل الغيث وانتشر بسببه الخير في الأرض فرح به المستغيث .

ومن روائع التعبير القرآني أنه لم يشبه الحياة الدنيا إلا بالماء أو الغيث ولم يقل كمطر لأن المطر في الاستعمال القرآني لم يرد إلا في مواضع الانتقام كما في قوله تعالى « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » <٣> وقوله تعالى « فأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » <٤> وقوله تعالى « فأمطرنا عليهم حجارة من السماء » <٥> ولذلك حرص القرآن على تشبيه الحياة الدنيا بالماء والغيث لأن فيه معنى الحياة والغوث والخير ، فكأن في هذا إحياء من الله بأن الدنيا كلها خير لبني آدم وينبغي ألا يكون للشر فيها مكان ، لكن حين يعرض البشر عن اتباع شرائع السماء ينتشر الفساد والشر في الأرض . وتكثير « غيث » للعموم ليشمل كل غيث ، ولم يقل القرآن « الغيث » لأنه لو جاء معرفاً بأل لدل على غيث معهود .

١ - النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ، ص ٨٤ .

٢ - انظر أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ٢٨ .

٣ - الحجر : ٧٤ .

٤ - الشعراء : ١٧٣ ؛ وقد وردت هذه الآية في سور آخر في القرآن .

٥ - الأنفال : ٣٢ .

وفي التعبير بقوله « أعجب الكفار نباته » مجاز عقلي علاقته السببية لأن النبات سبب الاعجاب ، والمراد بالكفار هنا الزراع كما بيينه قوله تعالى « يعجب الزراع » ^(١) وقيل المراد به الكافرون بالله ، وإنما أثر النظم القرآني التعبير بقوله « الكفار » ولم يقل الزراع قصداً للتورية بالكفار والتعريض بهم لأنهم أشد إعجاباً بمتاع الدنيا وزينتها ، ولأن المؤمن إذا رأى أمراً معجباً انتقل فكره إلى قدرة صانعه فأعجب بها ، أما الكافر فلا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق فيه إعجاباً . ^(٢)

وأشار النظم بالاعجاب في قوله « أعجب الكفار نباته » إلى حالة الزهو والفرح بنمو النبات ونضجه .

وعلى الرغم من أن أقوال المفسرين تضافرت على تفسير « يهيج » باليبس والجفاف أي يجف ويبس فإنني أرى أنه بمعنى النضج والاكتمال ، والنضج أول مرحلة من مراحل الجفاف والفناء لأن مادة الهياج تدل على الاضطراب والثوران ، كما أن الزرع إذا غلظ يكون لحركته صوت فكأنه هائج وثائر وذلك ابتداء جفافه وتحطمه . ^(٣)

والعطف بثم في قوله « ثم يهيج » لإفادة التراخي الرتبي لأن اصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال ، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا . ^(٤)

وقد عطفت جملة « فتراه مصفراً » بفاء التعقيب للدلالة على أن مرحلة الاصفرار جاءت عقب مرحلة النضج مباشرة .

١ - الفتح : ٢٩ .

٢ - انظر تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، ١٦٠/٨ : الفتوحات الإلهية ، ٢٩٠/٤ : التحرير والتنوير ، ٤٠٤/٢٧ : في ظلال القرآن ، المجلد السادس ، ص ٣٤٩١ .

٣ - راجع التحرير والتنوير ، ٤٠٥/٢٧ .

٤ - انظر السابق نفس الموضع .

وتأمل روعة التعبير بقوله « فتراه مصفراً » ولم يقل « فيصفر » للإيذان بأن اصفراره غير مقارن لهيجانه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك ^{<١>} ، والرؤية - هنا - عامة لكل من تتأتى منه الرؤية .

أما عطف جملة « ثم يكون حطاماً » بـثم فللدلالة على التراخي الرتبي لأن تحطم النبات وتهشمه هو المرحلة الأخيرة من مراحل الهلاك والفناء .

ثم لما بين النظم القرآني حقارة الدنيا تزهداً فيها وتحذيراً من الركون إليها والافتتان بها انتقل إلى الإشارة إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات ترغيباً في تحصيل نعميها المقيم وتحذيراً من عذابها الأليم بقوله تعالى « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » وقد تضمنت هذه الجملة خبراً أريد به تهديد الراكنين إلى الدنيا غير الموفين بحقوق الله فيها ، كما أن فيها تعريضاً بهؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن خيبة الأمل ملازمة لهم في الدنيا ، أما في الآخرة فلهم عذاب شديد .

وقدمّ البيان القرآني العذاب على المغفرة والرضوان حيث قال « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الدنيا ^{<٢>} ، وتنكير « عذاب » للتهويل والتفطيع ووصفه بشديد لزيادة التهويل من شأنه .

أما تنكير « مغفرة ورضوان » فللتعظيم أي مغفرة عظيمة ورضوان عظيم لا يقادر قدره ^{<٣>} . وفي التعبير بقوله « عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » مطابقة بين العذاب والمغفرة لكن النظم القرآني طابق العذاب الشديد بشيئين هما المغفرة والرضوان للإشارة إلى أغلبية الرحمة . ^{<٤>}

١ - انظر روح المعاني ، ١٨٥/٢٧ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٢٨٠/٥ ؛ راجع روح المعاني ، ١٨٥/٢٧ .

٣ - انظر السابق نفس المرجع .

٤ - انظر روح المعاني ، ١٨٥/٢٧ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٤٧٠/٢٧ .

أما جملة « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » فهي إما أن تكون مستأنفة استثناءً نحوياً وإما معطوفة على جملة « وفي الآخرة عذاب شديد » بتنزيل ما بينهما من تضاد منزلة التناسب ويجوز أن تكون حالاً .

وفي هذه الجملة شبه القرآن الحياة الدنيا بمتاع الغرور أي الحياة الدنيا كمتاع الغرور ، وهو تشبيه بليغ لحذف الأداة ، وهذا من المواضع التي يصعب فيها تقدير الأداة .

وفي التعبير بقوله « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » قصر موصوف على صفة ، وهذا القصر طريقه النفي والاستثناء .

وقد جاءت هذه الجملة تذييلاً مؤكداً لمضمون ما قبله من وصف الدنيا بالخسارة والغرور وسرعة الفناء والزوال .

موازنة :

إن دراسة الآيات المتشابهات في الذكر الحكيم دراسة فاحصة متأنية تكشف جانباً عظيماً من بلاغة القرآن ونظمه المعجز ، لذلك أشرت أن أعقد موازنة بين هذه التشبيهات التي عرضنا لها في الصفحات السابقة أبحث من خلالها عن الأسرار التي من أجلها اختلفت الصياغة في هذه التشبيهات وتميز بعضها بخصائص تركيبية على الرغم من اتفاقها في تشبيه الحياة الدنيا في سرعة زوالها وفنائها بماء أنزله الله من السماء فاختلفت به نبات الأرض ، حتى إذا تكاثف الزرع وتكاثر والتف بعضه ببعض أصبح هشيماً تذروه الرياح .

وحين ننعم النظر في هذه التشبيهات نجد بينها فروقاً دقيقة ، فأية يونس لم تهتم بما اهتمت به آية الحديد من اللعب واللهو والغرور والتفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد وغير ذلك مما يجري في الحياة الدنيا وإنما اهتمت بشرح خطوات هذه الحياة الدنيا التي تخطوها في طريق النهاية ، فتابعت مراحل نزول الماء من السماء ، ولم تدع حالة إلا نصت عليها فهو ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض ، وهكذا تمضي فتصف أثر هذا الاختلاط وأنه يخضر ويزدهر

وتكتسي به الأرض حلاً بهية من أجمل الحل ، وأشارت إلى غرور الناس وقدرتهم على السيطرة عليها « وظن أهلها أنهم قادرون عليها » وهذا التعبير من خصوصيات هذا التشبيه ، ثم عرضت إلى النهاية المدمرة التي تدمر كل شيء « أتأها أمرنا ليلاً أو نهاراً فأصبحت (حصداً) كأن لم تغن بالأمس » كما ركزت هذه الآية على عنصر المفاجأة « ليلاً أو نهاراً » ووقعت هذه المفاجأة موقع المقابلة للاطمئنان إلى الدنيا والاعتزاز بها كما ذكر السياق .

أما آية الكهف فقد بني فيها التشبيه على الطي ولم تهتم بمراحل حياة النبات ونموه ، ولم تتحدث عن أخذ الأرض زخرفها وزينتها كما أشارت آية يونس ، بل طوت كثيراً من هذه الصور واكتفت بذكر الطرفين فقط حيث ذكرت الماء الذي أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض ، ثم انتقلت إلى الإشارة إلى نهاية النبات وتحطمه « فأصبح هشياً تذروه الرياح » ولم تفصل النضارة والنماء والتكاثر والزينة والزخرف الذي فصلته آية يونس والحديد لأن السياق في هذه الآية ليس سياق تحليل للدنيا ورسم خطواتها وإنما هو تصوير للإقبال ثم الإعراض وهو الأشبه بحال الصاحب الذي أحيط بثمره بعدما كانت له جنة لا يظن أن تبيد أبداً ، ومن خصوصيات هذا التشبيه افتتاحه بالفعل « اضرب » لتلاؤمه مع السياق قبله ولمناسبته لقوله « واضرب لهم مثلاً رجلين ... » .

أما آية الحديد فلم تهتم بنشأة النبات ومراحل تطوره وإنما ذكرت الغيث ، وهذا التعبير من خصوصيات هذا التشبيه لأن فيه معنى الإحياء والإغاثة والعون ، ثم انتقلت بعد ذكر الغيث إلى إعجاب الزراع بالنبات الذي كان الغيث سبباً في حياته ونموه وتكاثره ، ثم أشارت إلى مراحل هلاك النبات فبدأت بمرحلة التهيج « ثم يهيج » وهذا التعبير ملائم ملاحة دقيقة لحال المشبه به وهو اللعب والتفاخر والتكاثر ، وما في ذلك اللفظ من الهيجان والجلبة ، ثم مرحلة الإصفرار ثم التحطم والهلاك . <١>

١ - انظر الإعجاز البلاغي ، ص ١٠٨ وما بعدها ؛ أسرار تنوع تشبيهات القرآن ، ص ١٨ وما بعدها .

الفصل السادس
الترغيب في الطاعات
والترهيب من المحاصي

المبحث الأول
الترغيب في الطاعات في القراء
الحكيم وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترغيب في الطاعات

دعا القرآن ببيانه المعجز إلى الخير وزغب في الطاعات ، ولم يدع باباً من أبواب الحق والخير إلا طرقه وحث عليه وأمر المسلمين بالإكثار من الطاعات للراقي بهم إلى مدارج الفضيلة ومكارم الأخلاق .

وفي القرآن حديث طويل عن الطاعات لأنها السبيل التي توصل إلى سعادة الدنيا والآخرة .

والقرآن حين يرغب في الطاعة والحق يضيف عليهما سمات أصيلة من سمات الجذب تجعل الرغبة فيهما شديدة والإقبال عليهما صادقاً .

ونظراً لكثرة النصوص القرآنية التي جاءت ترغيب في الطاعات نكتفي بهذا النص القرآني الحافل بالدعوة إلى الترغيب في الطاعات .

فنسأل الله أن يوفق ويعين .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

قال تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . <١>

المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات الكريمات عشر وصايا أمر الله رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن يتلوها على عباده ، وتبدأ هذه المحرمات وهذه الوصايا بالنهي عن الإشرار بالله ، ثم بالبر بالوالدين والإحسان إليهما ، ثم لما وصى بالآباء ، وصى بالأبناء فنهى عن قتلهم خوفاً من الفقر مبيناً لهم أنه قد تكفل سبحانه برزق عباده جميعاً ، ثم نهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن بالإقلاع والابتعاد عنها ، ثم عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، ثم نهى عن أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، ثم أمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، وأمر بقول الحق ولو كان على ذي القربى ، وبالوفاء بالعهد ، ثم ختم الله عز وجل هذه الوصايا بإتباع طريقه المستقيم مقررراً أنه هو الصراط المستقيم وكل ما عداه سبل ضالة تفرق بهم عن سبيله .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

في هذه الآيات الكريمات ترغيب في الطاعات كالبر بالوالدين وإيفاء الكيل والميزان والحكم بين الناس بالعدل والوفاء بالعهد ، وعلى الرغم من أن هذه الوصايا العشر فيها ترغيب في الطاعات تخللها تحذير وترهيب من المعاصي كالإشراك بالله وقتل الأولاد وقتل النفس وأكل مال اليتيم .

وافتح الآيات بمخاطبة الرسول ﷺ بفعل الأمر « قل » لا استرعاء الأسماع ولتنبيه المخاطبين إلى ما سيلقى عليهم بعده من أمر جلل ولذلك عقب بقوله « تعالوا » لزيادة الاهتمام بالغرض المنتقل إليه بأنه أجدى لهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها . <١>

وتعالوا معناه : اقبلوا ، وهو إما فعل أمر أو اسم فعل أمر على خلاف بين النحاة ، أصله يؤمر به من يراد صعوده إلى مكان مرتفع ، لأنهم كانوا إذا نادوا إلى أمر مهم ارتقى المنادي على مكان مرتفع ليُسمع صوته ، ثم شاع استعماله في طلب المجيء والاقبال .

ففي التعبير بقوله « تعالوا » مجاز مرسل علاقته بالإطلاق والتقيد حيث أطلق الفعل وأراد لازمه وهو الاقبال ، لأن من يقبل عليك لابد أن يكون منتبهاً .

و « أتل » فعل مضارع مجزوم لأنه واقع في جواب الأمر ، أما « ما » في قوله « ما حرم ربكم » فهي إما اسم موصول بمعنى الذي أي أتل الذي حرمه ربكم عليكم ، وإما مصدرية أي تحريم ربكم عليكم . <٢>

١ - راجع التحرير والتنوير ، ١٥٥/٨ وما بعدها .

٢ - انظر الكشاف ، ٦١/٢ ؛ البيان في إعراب غريب القرآن ، ٣٤٩/١ ؛ البحر المحيط ، ٢٤٩/٤ ؛ حاشية الشهاب ، ١٣٧/٤ .

وقد دار بين العلماء جدل كبير حول « أن » في قوله « ألا تشركوا » ف قيل هي تفسيرية بمعنى أي ولا للنهي والتقدير : قل تعالوا أتل ما حرم ربكم أي لا تشركوا به شيئاً ، وقيل هي مصدرية في محل رفع أو نصب ^١ وتكون « لا » إما نافية أو زائدة ^٢ ، غير أن الذهاب إلى أنها مصدرية يؤدي إلى محذورات عديدة منها القول بالزيادة في القرآن ، ويترتب على القول بالزيادة محذوراً آخر قد يكون أشد منه لأن « أن » إذا كانت مصدرية كان مدخولها معنى خبرياً ، وعلى هذا لا يجوز أن يعطف عليه المعنى الإنشائي في قوله « وبالوالدين إحساناً » فإن معناه طلب الإحسان إلى الوالدين من غير شك ، وعطف الطلب على الخبر على هذا لا شك أنه يوجب شيئاً من الاضطراب ^٣ ، كما أنه لا يصح بلاغة لذلك نرجح أن تكون « أن » تفسيرية كما ذهب إلى ذلك الزمخشري ومن تابعه من العلماء قديماً وحديثاً ، ويضيف الزمخشري قائلاً « فإن قلت : إذا جعلت أن مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرماً كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي فما تصنع بالأوامر ؟

١ - أما الرفع فعلى إضمار مبتدأ دل عليه المعنى والتقدير : المتلو أن لا تشركوا ، وأما النصب فمن وجوه أحدها أن يكون منصوباً بقوله « عليكم » ويكون من باب الإغراء ويتم الكلام عند قوله « أتل ما حرم ربكم » أي التزموا انتقاء الإشراك ، والثاني : أن يكون مفعولاً لأجله أي اتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا أي لأجل أن لا تشركوا ، الثالث : أن يكون مفعولاً بفعل محذوف تقديره : أوصيكم أن لا تشركوا لأن قوله وبالوالدين إحساناً محمول على أوصيكم بالوالدين إحساناً وهذا بعيد لأن الإضمار على خلاف ازصل ، وهذه الأوجه الثلاثة « لا » فيها نافية ، الرابع أن يكون في موضع نصب على البدل مما حرم أو من الضمير المحذوف من ما حرم إذ تقديره : ما حرمه ، وهذا الوجهان « لا » فيها زائدة كما في قوله تعالى « ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك » وهذا ضعيف لانحصار عموم المحرم في الإشراك إذ ما بعده من الأمر ليس داخلاً من المحرم ولا بعد الأمر مما فيه يمكن إدعاء زيادة « لا » فيه لظهور أن « لا » فيها للنهي « انظر البحر المحيط ، ٢٥٠/٤ وما بعدها .

٢ - انظر الكشاف ، ٦١/٢ ؛ البحر المحيط ، ٢٥٠/٤ وما بعدها .

٣ - الشيخ عبدالرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ، ص ٤١ وما بعدها جمعها الأستاذ أبوبكر عبدالرزاق .

قلت : لما وردت هذه الأوامر مع النواهي وتقدمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن في الدخول تحت حكمه علم أن التحريم راجع إلى أضرارها وهي الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله . <١>

ويتفق أبوحيان مع الزمخشري في كون « أن » تفسيرية غير أنه يعترض عليه بقوله « وكون هذه الأشياء اشتركت في الدخول تحت حكم التحريم راجعاً إلى أضرار الأوامر بعيد جداً وإلغاز في المعاني ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، وأما عطف الأوامر فيحتمل كل وجهين أحدهما : أنها معطوفة على المناهي قبلها فيلزم انسحاب التحريم عليها حيث كانت في حيز « أن » التفسيرية ، بل هي معطوفة على قوله « تعالوا أتل ما حرم » أمرهم أولاً بأمر يترتب عليه ذكر مناه ، ثم أمرهم ثانياً بأوامر ، وهذا معنى واضح ، والثاني : أن تكون الأوامر معطوفة على المناهي وداخلة تحت « أن » التفسيرية ويصح ذلك على تقدير محذوف تكون « أن » مفسرة له وللمنطوق قبله الذي دل على حذفه والتقدير : وما أمركم به فحذف ما أمركم لدلالة ما حرم عليه لأن معنى « ما حرم ربكم عليكم » ما نهاكم عنه ، فالمعنى : قل تعالوا أتل ما نهاكم ربكم عنه ، وإذا كان التقدير هكذا صح أن تكون « أن » تفسيرية لفعل النهي الدال عليه التحريم وفعل الأمر المحذوف ألا ترى أنه يجوز أن تقول : أمرتك أن لا تكرم جاهلاً وأكرم عالماً ، إذ يجوز عطف الأمر على النهي ، والنهي على الأمر » . <٢>

وما ذهب إليه الزمخشري أكثر وجاهة وأقرب إلى حسن اللغة لأن الأمر بالشيء - كما هو مقرر لدى الأصوليين - يقتضي النهي عن ضده .

١ - الكشاف : ٦١/٢ .

٢ - البحر المحيط ، ٢٥٠/٤ .

وليس من شك في أن فحوى الخطاب تتحقق إما بالأمر المباشر وإما بالنهي عن الضد ، ومعنى « لا تشركوا » أي آمنوا بالله وحده ، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآيات لم يحرم نفي الإشراك ولكن حرم الإشراك نفسه إذ ليس المقصود من قوله « لا تشركوا » تحريم نفي الإشراك وإنما المقصود تحريم الشرك نفسه والأمر بضده وهو إخلاص التوحيد والعبادة له وحده سبحانه وتعالى .

وهذه الوصايا العشر في هذه الآيات يخاطب الله بها صفوة الناس من الأذكياء .

وآثر البيان القرآني النهي عن الضد « لا تشركوا » ولم يقل « آمنوا به وحده » لقبح الإشراك ، ولأن صلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل والفلاح في الآجل . <١>

وتنكير « شيئاً » للعموم لنفي أي شيء ، وهو منصوب على المصدرية أو على المفعولية أي لا تشركوا به شيئاً من الإشراك أو شيئاً من الأشياء .

ومن روائع البلاغة في النظم القرآني أنه أجمل أولاً في قوله « ما حرم » ثم فصل ثانياً في المعطوفات العشرة « ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ... » ولما نهى الحق سبحانه عن الشرك الذي يقتضي الإيمان بالوحدانية وصى بالوالدين وأمر ببرهما بقوله « وبالوالدين إحساناً » وإحسانا مصدر نائب عن فعله : أي أحسنوا بالوالدين إحساناً ، وهو وإن كان أمراً بالإحسان إليهما إلا أنه يفيد النهي عن ضده وهو الإساءة إليهما ، وبهذا الاعتبار صح عطفه على النهي عن الشرك « لا تشركوا » ودخل في عداد ما حرم الله لأن الحق سبحانه حرم الإساءة إلى الوالدين .

ولما وصى الله تبارك وتعالى بالأصل وصى بالفرع « ولا تقتلوا أولادكم من إِملاق » و « من » هنا سببيه أي من فقر ، وقد ذكر هذا السبب لأنه كان العلة في قتل الأولاد ، وفي هذه الآية جاء قوله « نحن نرزقكم وإياهم » وفي سورة الإسراء جاء قوله « نحن نرزقهم وإياكم » ^١ ولعل السر في اختلاف الصياغة في الآيتين عائد إلى اختلاف المخاطب فيهما ، فهذه الآية جاءت خطاباً للفقراء ولذلك ورد فيها « من إِملاق » فهذا التعبير دال على حصول الإِملاق والفقر « للوالد » لا توقعه وخشيته وإن كان واجداً للمال فبدأ أولاً بقوله « نحن نرزقكم » خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإِملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرزاق ثم عطف عليهم الأولاد ، أما آية الإسراء فظاهر التركيب أن المخاطبين موسرون وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإِملاق والخشية منه فبدىء فيه بقوله « نحن نرزقهم » إخباراً بتكفله تعالى برزقهم فلستم أنتم رازقيهم ، ثم عطف عليهم الآباء ، وصارت الآيتين مفيدتين معنيين أحدهما : أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إِملاقهم ، والآخر أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإِملاق وخشيته . ^٢

أما جملة « نحن نرزقكم وإياهم » فقد فصلت عما قبلها لأنها جاءت مستأنفة استئنافاً بيانياً وقعت جواباً لسؤال تضمنته الجملة السابقة كأن سائلاً سأل : ولم نهوا عن قتل أولادهم ؟ فقيل : « نحن نرزقكم وإياهم » ولذلك جاءت الجملة مفصولة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

وتقديم المسند إليه « نحن » على الخبر الفعلي « نرزقكم » لإفادة القصر أي نحن نرزقكم وإياهم لا غيرنا ولا أنتم ترزقون أنفسكم وترزقون أولادكم . ^٣

١ - الإسراء : ٣١ .

٢ - البحر المحيط ، ٢٥١/٤ .

٣ - راجع التحرير والتنوير ، ٢٥١/٤ .

وتأمل موقع الالتفات وجماله في هذه الآية حيث عدل النظم عن الغيبة في قوله « ما حرم ربكم » إلى التكلم في قوله « نحن نرزقكم » لزيادة تذكيرهم بالذي أمرهم بهذه الوصايا كلها ، حتى لكأن الحق سبحانه قد أدخل كلامه بنفسه في أثناء كلام رسوله الكريم ﷺ الذي أمره به لتأكيد تكفله بالرزق لهم ولأبنائهم ولتعجيل البشارة لهم بذلك ، فكما أنه رزق الآباء فقد تكفل برزق الأبناء ، ولا يخفى ما ذلك من رأفة الله بعباده وعظيم رحمته سبحانه وتعالى .

وفي هذا النظم القرآني مراعاة نظير بين قوله « وبالوالدين إحساناً » وقوله « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » لأن ذكر الوالد يستدعي ذكر الولد ، وذكر الولد يقتضي ذكر الوالد .

ومن لطائف التعبير القرآني أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين جيء به وسطاً بين النهي عن الشرك والنهي عن قتل الأولاد « للمبالغة في إيجاب مراعاة حقوقهما ، فإن مجرد ترك الإساءة إليهما غير كاف في قضاء حقوقهما ولذلك جيء به عقب النهي عن الإشرار الذي هو أعظم المحرمات وأكبر الكبائر » ^١ تأكيداً لحرمتها ومبالغة في البر بهما .

وفي التعبير بقوله « ولا تقربوا الفواحش » كناية عن اقتراف الفواحش . وليس من شك في أن النهي عن القرب أبلغ من النهي الصريح في قولنا « لا تفحشوا » لأن القرب من الشيء مظنة الوقوع فيه ، ولما لم يكن للإثم قرب وبعد كان القرب مراداً به الكناية عن ملابسة الإثم أدنى ملابسة . ^٢

وتعريف « الفواحش » بالجنس ليشمل جميع الفواحش ، وليس كما ذهب بعض المفسرين بأن المراد بالفواحش الزنا ^٣ ، ففي التعبير بالفواحش إيجاز قصر لأنها تشمل جميع الفواحش سواء كانت قولاً أو فعلاً .

١ - تفسير أبي السعود ، ٢/٢٠٢ .

٢ - التحرير والتنوير ، ٨/١٥٩ .

٣ - راجع تفسير أبي السعود ، ٢/٢٠٣ ؛ في ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، ص ١٢٣١ .

وأثر البيان القرآني التعبير بصيغة الجمع ، « الفواحش » للمبالغة في تهويلها والتحذير منها أو باعتبار تعدد من تصدر منه . <١>

« وتعليق النهي بقربانها إما للمبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها وإما لأن قربانها داع إلى مباشرتها » . <٢>

والمراد بقوله « ما ظهر منها وما بطن » ما يفعل منها علانية وسراً ، ويلاحظ ما في هذا التعبير من مطابقة بين قوله « ما ظهر منها » وقوله « وما بطن » وفوق أن في هذا التعبير طباقاً فيه كناية عن شمول التحريم لجميع المعاصي ، وقدّم البيان القرآني « ما ظهر منها » لظهوره وأخر « ما بطن » لخفائه .

ثم لما نهى القرآن الكريم عن الفواحش نهى عن قتل النفس بقوله « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » لأن قتل النفس مندرج تحت عموم الفواحش ، وإنما خصت هذه الفاحشة بالذكر من بين سائر الفواحش الأخرى « تعظيماً لهذه الفاحشة واستهواً لوقوعها ، ولأنه لا يتأتى الاستثناء بقوله « إلا بالحق » إلا من القتل لا من عموم الفواحش . <٣>

وتعريف « النفس » بأل للجنس المفيد للاستغراق ، والنفس المحرمة هي المؤمنة والذميمة والمعاهدة ، و « بالحق » أي بالسبب الموجب لقتلها كالردة والقصاص والحراية وغير ذلك .

والتعبير باسم الإشارة البعيد « للإشارة إلى علو المشار إليه تنزيلاً لبعده المنزلة منزلة بعد المكان ، وزيادة الميم في « ذلكم » للتفخيم . ومعنى « وصاكم به » أي أمركم به أمراً مؤكداً ، والجملة مستأنفة جيء بها لتجديد العهد ولتأكيد إيجاب المحافظة على ما كلفوه . <٤>

١ - راجع حاشية الشهاب ، ١٢٨/٤ .

٢ - تفسير أبي السعود ، ٢٠٣/٢ .

٣ - البحر المحيط ، ٢٥٢/٤ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٠٣/٢ .

أما جملة « لعلمكم تعقلون » فهي تذييل تعليلي لتأكيد مضمون ما قبلها .
ويواصل القرآن في تفصيل هذه الوصايا وهذه المحرمات بقوله « ولا تقربوا مال
اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده » ففي هذه الآية نهي وتحذير ليس فقط
من أكل مال اليتيم ولكنه من الاقتراب منه ولذلك قال « ولا تقربوا » تحذيراً من
أخذ ماله ولو بأقل أحوال الأخذ لأنه لا يدفع عن نفسه ولهذا لم يقل القرآن هنا
« ولا تأكلوا » كما قال في سورة البقرة « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » . <١>

وأموال الناس ممنوع من أخذها وقربانها أيضاً لكن القرآن حذر من
القرب من مال اليتيم « لأن الطمع فيه أكثر لضعفه وقلة مراعاته » . <٢>

وفي التعبير بقوله « إلا بالتي هي أحسن » كناية عن الأكل بالمعروف على
نحو ما يوضحه قوله تعالى « ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل
بالمعروف » <٣> ، وفي قوله « بالتي هي أحسن » إيجاز بالحذف تقديره : أي
بالخصلة التي هي أحسن في حق اليتيم ، ولم يقل القرآن « بالتي هي حسنة » بل
أثر التعبير بصيغة التفضيل مراعاة لمال اليتيم وأنه لا يكفي فيه الحالة الحسنة بل
الخصلة الحسنى . <٤>

وفي التعبير بقوله « أشده » كناية عن البلوغ والرشد لأن الذي يبلغ من
اليتامى وهو غير راشد لا يُدْفَعُ له ماله .

أما قوله « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » فهو خاص أريد به عام
وهو القول العدل في كل شيء وليس فقط في الكيل والميزان ، والباء في قوله
« بالقسط » للملابسة أي أوفوا متلبسين بالعدل بأن لا تظلموا المكتال حقه .

١ - البقرة : ١٨٨ : راجع التحرير والتنوير ، ١٦٢/٨ .

٢ - البحر المحيط ، ٢٥٢/٤ .

٣ - النساء : ٦ .

٤ - انظر السابق الموضع نفسه .

وتأمل بلاغة القرآن حيث أثر التعبير بقوله « أوفوا الكيل والميزان » ولم يقل « ولا تنقصوا الكيل والميزان » لتأكيد أنهم مأمورون بالحد الذي يتحقق فيه العدل وافية ، وعدم النقص يساوي الوفاء ، لكن في إثارة التعبير بإيفاء الكيل والميزان زيادة اهتمام واعتناء به لتكون النفوس ملتفتة إلى جانب الوفاء لا إلى جانب النقصان . <١>

أما جملة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » فهي اعتراضية جيء بها عقب هذا الأمر للإيذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم . <٢>

وقد فصلت هذه الجملة « لا نكلف نفساً إلا وسعها » عما قبلها لما بينهما من كمال الانقطاع لأنها خبرية لفظاً ومعنى وما قبلها إنشائية لفظاً ومعنى . وفي التعبير بقوله « وإذا قلتم فاعدلوا » مجاز مرسل علاقته السببية أي احكموا بالعدل فأطلق الملزوم وأراد اللزوم لأن الحكم لابد أن يكون بالنطق والقول . كما أن فيه إيجازاً بالحذف تقديره : ولو كان المقضي عليه ذا قرابة .

وتقديم « عهد الله » على الفعل « أوفوا » ليس لإفادة القصر لأن الله سبحانه وتعالى يأمر بالوفاء بعهده وبعهد غيره ، بل للاهتمام بالمقدم والاعتناء بشأنه ولتنبيه المخاطب نحوه ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء ، أي إن كنتم ترون الوفاء بالعهد مدحة فعهد الله أولى بالوفاء . <٣>

وفي قوله « بعهد الله » إيجاز قصر لأن عهد الله المراد به الالتزام بكل مسئولية مشروعة . أما قوله « ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون » فهو كتنظيره السابق ، لكن الآية الأولى ختمت بقوله « لعلكم تعقلون » وهذه الآية ختمت بقوله « لعلكم تذكرون » فما السر في أن كل آية قد ختمت بما يناسبها ؟

١ - انظر التحرير والتنوير ، ١٦٥/٨ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٢٠٤/٢ .

٣ - راجع التحرير والتنوير ، ١٧٠/٨ .

لعل السر في اختلاف الصياغة في هاتين الآيتين أنه لما كانت الوصايا الخمس في الآية الأولى وهي « الشرك وحقوق الوالدين وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، خمستها مما يدرك العقل إبتداءً قبجها ويستقل بإدراكها أي أن العقل يستوضح قبجها شرعاً لبيان أمرها في استقباح الشرع إياها ، وإلا فالعقل عندنا لا يحسن ولا يقبح ، فلما كانت على ما ذكرنا أتبعنا بترجي التعقل لأن السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق من الله تعالى ولذلك جاءت بأداة الترجي ، ولما كانت الخمس التالية لها وهي قوله « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » إلى آخرها مما تؤثر فيه الشهوات والأهواء ، وذلك مما يعمي ويصم ، أتبع برجاء التذكر « لعلكم تذكرون » ومن تذكر فقد أبصر فعقل فامتنع . <١>

أما قوله « وأن هذا صراطي مستقيماً ... » فقد سبق تحليل هذه الآية الكريمة في موضع سابق من هذا البحث .

والوصل بالواو بين هذه الجمل بدءاً من قوله « لا تشركوا به شيئاً » وما عطف عليه من أوامر ونواه لما بين هذه الجمل من التوسط بين الكمالين لاتحادهما في الإنشائية لفظاً ومعنى .

وترتيب هذه الأوامر والنواهي جاء على نسق وترتيب لا تبديل لكلماته ، فكل نهي يعبر عن كبيرة من الكبائر التي حرم الله ارتكابها ، وقد نظمت هذه الكبائر على حسب خطورتها ، فبدأ الحق سبحانه أولاً بالنهي عن الشرك لأنه أخطرها وأكبر الكبائر ، ثم عطف عليه الأمر بالإحسان إلى الوالدين وذلك للاهتمام الشديد بهما ولتوفير الرعاية لهما على أكمل وجه ، وكما وصى الآباء بالآباء وصى الآباء بالآباء بقوله « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » ثم عطف عليه النهي عن عموم الفواحش بقوله « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ثم عطف عليه

١ - ملك التأويل ، ٤٨٠/٨ ؛ راجع البحر المحيط ، ٢٥٣/٤ ، حاشية الشهاب ، ١٣٨/٤ .

النهي عن قتل النفس على الرغم من أنه مندرج تحت عموم الفواحش لما فيه من وحشية وتعد على الكيان البشرى الذي هو صنعة الخالق سبحانه ، ثم عطف على هذا النهي النهي عن قربان مال اليتيم بقوله « ولا تقربوا مال اليتيم » « حيث خص مال اليتيم على الرغم من أن أموال الناس ممنوع من قربانها لا يجوز أخذها بالباطل لأنه مظنة الطمع فيه لضعفه وقلة حيلته <١> ، ثم لما نهى عن الاعتداء على مال اليتيم أمر بإيفاء الكيل والميزان في المعاملات التجارية ثم عطف عليه الأمر بالعدل بين الناس بقوله « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ثم عطف عليه الوفاء بالعهد بقوله « وبعهد الله أوفوا » فمن عهد الله قول الحق والعدل ولو كان ذا قربى ، ومن عهد الله توفية الكيل والميزان ... « الخ ، فعهد الله عام يشمل كل هذه الأمور السابقة ، ثم لما نهى الحق سبحانه أولاً عن الشرك ختم هذه الوصايا باتباع طريقه المستقيم ونهى عن اتباع السبل المتفرقة بقوله « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

فتأمل هذا النظم المعجز كيف رتب فيه الأوامر والنواهي على حسب أهميتها وخطورتها على هذا النسق المحكم بحيث لا نستطيع تقديم بعضها على بعض .

١ - راجع أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، ص ٤٢٢ .

المبحث الثاني
الترهيب من المعاصي في القرآن الحكيم
وسماته البلاغية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الترهيب من المعاصي

حذر القرآن الكريم من المعاصي لما يترتب عليها من فساد وأضرار
جسيمة على الفرد والمجتمع .

والقرآن حين ينفر ويهيب من المعاصي والآثام يضيف عليهما صوراً كالألم
تجعل النفس البشرية تعرض عنهما وتنفر منهما .

وقد استثمر القرآن الألفاظ والتراكيب والتصوير البياني للترهيب من
المعاصي كآكل الربا ومال اليتيم وقتل النفس المحرمة والزنا والغيبة والنميمة
والفواحش ما ظهر منها وما بطن وغير ذلك .

وفي هذا البحث نتناول نصاً قرآنياً حذر فيه القرآن ورهب من مجموعة
من المعاصي على نحو ما يتضح في السطور القادمة إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبير بصيراً * ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً * ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً * ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً * ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴿ ١ ﴾

المعنى الإجمالي :

يوصي الله عباده في هذه الآيات بمجموعة من الوصايا حيث نهاهم عن البخل والاسراف وأمرهم بالتوسط والاعتدال في الإنفاق ، ثم لما أمر بالتوسط أعقبه بأنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من عباده ، ثم نهاهم عن قتل الأولاد خشية الفقر والإملاق موضحاً لهم بأنه قد تكفل برزق أولادهم وبرزقهم وأن قتلهم كان خطئاً كبيراً وجريمة عظيمة ، ثم نهاهم عن الزنا لأنها فاحشة سيئة ، ونهاهم عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق مبيناً أن من قتل مظلوماً فقد جعل الله لوليه سلطاناً على القاتل إن شاء قتله وإن شاء عفا عنه فهو صاحب الأمر في التصرف في القاتل ، وفي مقابل هذا السلطان الكبير الذي خوله الله للولي نهاه عن الاسراف في القتل بأن يتجاوز القاتل إلى قتل أقاربه ممن لا ذنب

لهم ، أو بالتمثيل بالقاتل ، ثم نهاهم عن اقتراب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ثم أمرهم بالوفاء بالعهد لأن صاحب العهد كان مسئولاً ، وبإيفاء الكيل للناس والوزن بالقسطاس المستقيم ، ثم نهاهم عن تتبع عورات الناس واقتفاء أثرهم للتجسس عليهم مبيناً أن السمع والبصر والفؤاد كل هذه الحواس التى يقتفى بها عيوب الناس سيحاسب عليها ، فالإنسان مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، ثم يحذر من التكبر والخيلاء وينهى عن المشي في الأرض مرحاً وتكبراً موضحاً ضعف الإنسان رغم تكبره وتجبره بأنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً ، ثم تختتم الآيات ببيان عظم هذه المنهيات وأضداد الأوامر زيادة في التحذير والتنفير منها بقوله « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

خصائص النظم وأسواره البلاغية :

في هذه الآيات الكريمات يحذر الحق سبحانه وتعالى ويهرب من المعاصي ويرغب في الطاعات ، إلا أن للمعاصي في هذا النص القرآني نصيباً كبيراً لزيادة التحذير والتنفير منها . والقرآن الكريم حين يحذر ويهرب من هذه المعاصي أن يسموا بالنفس الإنسانية إلى مدارج الفضيلة والكمال العليا لبناء مجتمع إسلامي فاضل لا مكان فيه للشر والمعصية .

وفي هذا النظم القرآني تتجلى روائع البلاغة ولطائف التصوير القرآني من ذلك ما نراه في قوله « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ففي هذا التعبير إستعارتان تمثيليتان ، شبه في الأولى حال البخيل الشحيح في امتناعه عن الإنفاق بحال من يده مغلولة إلى عنقه فهو لا يقدر على التصرف ، وفي الثانية شبه حال المسرف المبذر المتلاف بحال من يبسط يده فلا يبقى على شيء في يده ولا يدخر شيئاً ينفقه وقت الحاجة ليخلص إلى نتيجة مجدية وهي الأمر بالاعتصام الذي هو وسط بين الإسراف والتقتير . <١>

١ - انظر الكشاف ، ٤٣٧/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٤٣/٣ ؛ حاشية الشهاب ، ٢٧/٦ ؛ حاشية زاده ،

٢٢١/٣ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٤٢٦/١٥ .

وفي هذه الآية الكريمة اجتمع النهيان فكونا معنى طريفاً وهو الدعوة إلى الاعتدال والاقتصاد ، لأن الاقتصاد وسط بين رذيلتين هما الإسراف والبخل .

وفي هاتين الاستعارتين تصوير للمعقول في صورة محسوسة ، والأمور المعقولة إذا صورت في صورة حسية تجسدت وبرزت للعيان .

وغير خاف أن في هذا التعبير القرآني مطابقة بين بسط اليد وقبضها لأن جعل اليد مغلولة معناه قبضها إلا أن الغل أبلغ من القبض وأكثر تصويراً لحال الحريص على المال .

وفي التعبير بقوله « فتقعد » استعارة تبعية شبه الصيرورة والمأل بالعود بجامع ذهاب القوة في كل ثم اشتق من القعود الفعل تقعد بمعنى « تصير » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

والفاء في « فتقعد » للسببية لترتيب القعود والصيرورة على النهين السابقين .

وفي قوله « ملوماً محسوراً » لف ونشر مرتب ، فالملوم يرجع إلى النهى عن الشح والتقتير المعبر عنه بغل اليد ، والمحسور يرجع إلى النهى عن الإسراف والتبذير المعبر عنه ببسط اليد . <١>

ومعنى « ملوماً محسوراً » أي فتصير ملوماً عند الله تعالى وعند الناس ، وعند نفسك إذا احتجت فتندم على فعلت ، ومحسوراً أي نادماً أو منقطعاً بك لا شيء عندك ، من حسره السفر إذا أعياه وأوقفه فانقطع عن رفقته . <٢>

أما جملة « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » فهي تعليل للجملة السابقة ، وفيها علاج للحالتين معاً للبخل والإسراف ، فإذا كان الرزق بيد الله فلا وجه لبخل الباخل ولا وجه لإسراف المسرف .

١ - راجع التحرير والتنوير ، ٨٥/١٥ .

٢ - انظر الكشاف ، ٤٤٧/٢ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٤٢/٢ ، روح المعاني ، ٦٥/١٥ .

وتوكيد الخطاب في هذه الآية الكريمة مراعى فيه حال المسرفين والباخلين
فلذلك أكد بأن وإسمية الجملة .

وتقديم المسند إليه « ربك » على الخبر الفعلي « يبسط » للاختصاص أي
إن الله هو الذي يبسط الرزق ويقدر لاغيره ، لأن هذا الفعل لا يصلح إلا له سبحانه
وتعالى .

والتعبير بالمضارع « يبسط ويقدر » للدلالة على التجدد والحدوث أي إن
رزقه لعباده متجدد لا ينقطع رحمة من الله بعباده ، ويلاحظ ما فيهما من طباق
التضاد . وقد فصلت جملة « إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » عما قبلها لأنها جاءت
مستأنفه إستئنافاً وقعت جواباً عن سؤال أثارته الجملة الأولى تقديره : لم يوسع
على البعض ويقدر على البعض ؟ فقول : « إنه بعباده خبيراً بصيراً » فبين الجملتين
شبه كمال الاتصال .

وتوكيد الخبر بأن للاهتمام بمضمون الكلام لكونه حقيقة عظيمة ،
وقد ختمت الآية بقوله « خبيراً بصيراً » فجاء مناسباً لسياقه أي هو العليم بخفيات
الأمور ، وبصير بمصالح عباده حيث يبسط لقوم ويضيق على قوم حسبما تقتضيه
مشيئة وحكمته البالغة . <١>

وتدل « كان » في قوله « وكان الله بعباده خبيراً بصيراً » على أنه سبحانه
قد استقر منذ الأزل أنه بعباده خبير بصير ، وهذا المعنى لا نجده لو خلا النص
القرآني من « كان » .

ولما بين الحق سبحانه وتعالى أنه هو المتكفل برزق العباد بقوله « إن الله
يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » أوصاهم بالفروع فبدأ أولاً بالنهي عن
قتل الأولاد بقوله « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » وقد مضى
الحديث عن أوجه الاختلاف بين هذه الآية وبين نظيرتها في الصفحات السابقة .

١ - راجع البحر المحيط ، ٢١/٦ وما بعدها ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٤٢/٢ .

وتقديم المسند إليه « نحن » على الخبر الفعلي « نرزقهم » لإفادة الحصر
 أى نحن نرزقهم لاغيرنا ، فهو قصر حقيقي ، وقد فصلت هذه الجملة « نحن
 نرزقهم » عن الجملة السابقة للاستئناف البياني .

أما جملة « إن قتلهم كان خطأً كبيراً » فهي تذييل تعليلي لتأكيد النهي
 والتحذير من الوقوع فيه ، وفعل « كان » جيء به للدلالة على استقرار قبح قتلهم
 في الأزل بأنه كان جرماً عظيماً ، وتوكيد الخبر بـ « إن » للاهتمام بمضمون
 الخبر .

ولما نهى عن قتل الأولاد عطف عليه النهي عن الزنا بقوله « ولا تقربوا
 الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » والنهي عن قربان الزنا أبلغ من النهي عن
 الزنا « لا تزنوا » وإنما نهى القرآن عن قربان الزنا للمبالغة في النهي عن نفسه
 لأن قربانه داع إلى مباشرته ، وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي
 عن قتل النفس المحرمة على الإطلاق لما فيه من تضييع للأنسب وتعريض النسل
 للإهمال وإفساد للمجتمع . <١>

وجملة « إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » إما أن تكون تذييلاً تعليلياً للنهي
 عن ملابسة الزنا تعليلاً مبالغاً فيه بوصفه بالفاحشة وبالتأكيد بـ « إن »
 وبإيثار التعبير بالفعل « كان » المؤذن بأن خبره وصف راسخ مستقر في الفحش
 والسوء . <٢>

وإما أن تكون مستأنفة بيانياً جاءت جواباً عن سؤال تضمنته الجملة
 السابقة تقديرية : لم نهى الله عن قرب الزنا ؟ فليل : إنه كان فاحشة ، ولذلك فصلت
 هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٥/٣ : التحرير والتنوير ، ٩٠/١٥ .

٢ - راجع تفسير أبي السعود ، ٤٤٥/٣ .

ثم زاد البيان القرآني هذه المعصية ذمّاً وتبشيعاً لها بقوله « وساء سبيلاً » لما تؤدي إليه من اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن وفساد المجتمع .

وفي التعبير بقوله « ساء سبيلاً » إيجاز بالحذف تقديره ساء السبيل سبيلاً ^١ ، والسبيل هو الطريق والتعبير عنه بالسبيل يدل على كثرة متعاطيه بالدلالة على سعة منهجه . ^٢

وكان مقتضى الظاهر أن يقال سبيلاً سيئاً ، لكن النظم القرآني عدل ذلك وقدم الصفة على الموصوف للتأكيد من أول وهلة أنها سبيل سيئة تقبيحاً لهذه الفاحشة وتبشيعاً لها وتنفيراً منها .

ولما نهى الله عز وجل عن قتل الأولاد وعن إيجادهم بالطرق غير المشروعة نهى عن قتل النفس فانتقل من الخاص إلى العام بقوله « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » وتعريف « النفس » بأل للجنس ، وفي قوله « لا تقتلوا النفس التي حرم الله » إيجاز حذف تقديره : التي حرم الله قتلها ، وعلق القرآن الكريم التحريم بعين النفس مع أن المقصود تحريم قتلها للدلالة على تعظيم حرمة النفس ، أما قوله « بالحق » ففيه إيجاز قصر لأنه قد يكون قصاصاً أو حراية أو ردة وغير ذلك ، والنفس المحرمة هي المؤمنة والذمية والمعاهدة ، ولا يخفى ما في نظم الآية من إيجاز حيث حذفت من السياق جملة تقديرها : ومن قتل نفساً بغير حق فقد عصى الله ورسوله . ^٣

والواو في جملة « ومن قتل مظلوماً ... » للإستئناف النحوي لتفريع هذا الحكم على الجملة السابقة للاهتمام بهذا الحكم والعناية به ، وبناء الفعل « قتل » للمجهول للتركيز على الحدث نفسه تبشيعاً لهذه الجريمة وإشارة إلى أنها ظلم وتعد على الكيان البشري .

١ - انظر روح المعاني ، ٦٧/١٥ .

٢ - انظر نظم الدرر ، ٤١٠/١١ .

٣ - انظر السابق نفس الموضع .

وقوله « فقد جعلنا لوليه سلطاناً » خبر أريد به تعجيل المسرة إلى نفس ولي المقتول بما يسره ويطمئن باله بأن جعل الله له سلطاناً واستيلاءً على القاتل يؤاخذ به بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته ، أو حجة غالبية ، ولذلك فرع عليه قوله « فلا يسرف في القتل لأنه إذا جعل له سلطان على القاتل فقد صار الحكم بيده وكفاه ذلك شفاءً لغليله . <١>

والفاء في قوله « فلا يسرف » واقعة في جواب الشرط أي لا يسرف الولي في أمر القتل بأن يتجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه بتقبيح صورة القاتل والتمثيل به ، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه كما كان يفعل أهل الجاهلية . <٢>

ويكشف حرف الظرفية في قوله تعالى « فلا يسرف في القتل » شدة غيظ الولي ورغبته الشديدة في الاقتصاص من القاتل بحيث يتولى هو بنفسه قتله ولا يكفيه قتل القاتل وإنما قتل أقاربه وذويه حتى كأن القتل يحيط به من جميع الجوانب كما يحيط الظرف بمظروفه ، وهذا المعنى مستفاد من حرف الظرفية ومن الفعل « يسرف » الدال على التجاوز والطغيان ، ولذلك - إحقاقاً للحق - أباح القرآن للولي أن يقتص من القاتل لكنه قيده بهذه النهي « فلا يسرف في القتل » بأن يتجاوز الحد المشروع .

وفي التعبير بقوله « سلطاناً » كناية عن حق المطالبة بالقصاص من القاتل .

والضمير في قوله « إنه كان منصوراً » إما راجع إلى المقتول بمعنى أنه منصور في الدنيا بثبوت القتل لقاتله وفي الآخرة بالثواب ، وإما للولي بمعنى أنه تعالى نصره بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام بمعاونته في استيفاء حقه فلا يبيع ما وراءه ولا يستزد عليه . <٣>

١ - انظر التحرير والتنوير ، ٩٥/١٥ ؛ راجع تفسير أبي السعود ، ٤٤٦/٣ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٦/٣ .

٣ - انظر تفسير البيضاوي بهامش حاشية الشهاب ، ٢٩/٦ ؛ تفسير أبي السعود ، ٤٤٦/٣ .

أما جملة « إنه كان منصوراً » فهي إما تذييل تعليلي للنهي السابق ، وإما مستأنفة بيانياً جاءت جواباً عن سؤال اقتضته الجملة السابقة تقديره : لم لا يسرف في القتل ؟

ف قيل : « إنه كان منصوراً » ، ولذلك فصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال . وهذه الجملة تذييل مؤكد لمضمون ما قبله .

ويواصل البيان القرآني ترهيبه وتحذيره من المعاصي حيث نهى عن أخذ أموال اليتامى بعد النهي عن إتلاف النفوس بقوله « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ... » ومع أن أكل أموال الناس ممنوع شرعاً إلا أن القرآن نهى عن قرب مال اليتيم مبالغة في النهي عن التعرض له لأن الطمع فيه أكثر لضعفه .

وفي التعبير بقوله « إلا بالتي هي أحسن » كناية عن الأكل بالمعروف أي إلا بالخصلة والطريقة التي هي أحسن الخصال ، وفي قوله « أشده » كناية عن البلوغ والرشد ، وهو غاية جواز التصرف على الوجه الأحسن المدلول عليه بالاستثناء . <١>

ولما كانت الوصية نوعاً من العهد أمر بوفاء ما هو أعم منها <٢> فقال تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » وتعريف « العهد » بآل للجنس المفيد للاستغراق سواء كان عهداً بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس ، والإيفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يُستعمل إلا بالباء فرقاً بينه وبين الإيفاء الحسي كإيفاء الكيل والوزن كما نص ذلك أبو السعود <٣> ، وهذا من خصائص التعبير القرآني .

١ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٦/٣ .

٢ - انظر نظم الدرر ، ٤١١/١١ .

٣ - تفسير أبي السعود ، ٤٤٧/٣ ؛ راجع التحرير والتنوير ، ٩٧/١٥ .

والتعبير بقوله « إن العهد كان مسئولاً » إما مجاز عقلي في النسبة الإيقاعية أي صاحب العهد كان مسئولاً لكن النظم الكريم أوقع السؤال على العهد والمسئول هو صاحب العهد لا العهد نفسه ، أو إستعارة مكنية شبه فيها العهد بمن ينكث عهده ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو إسناد السؤال إليه بقوله « مسئولاً » على سبيل الاستعارة المكنية . <١>

ومن لطائف النظم القرآني وضع الظاهر موضع الضمير في قوله « إن العهد كان » مسئولاً « حيث كان مقتضى أن يقال « إنه كان مسئولاً » لكن القرآن أظهر في موضع الإضمار للاهتمام به والعناية بشأنه أو لأن المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود . <٢>

وفي التعبير بقوله « مسئولاً » إيجاز بالحذف تقديره : مسئولاً عنه أي يسألكم الله تعالى يوم القيامة . <٣>

وقد فصلت جملة « إن العهد كان مسئولاً » عما قبلها للاستئناف البياني كأنه قيل : لم نوفي بالعهد ؟ فقيل : إن العهد كان مسئولاً ، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال . وقد وقعت هذه الجملة تذييلاً مؤكداً لمضمون ما قبله .

ولما أمر الحق سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد أمر بإيفاء الكيل والميزان بقوله « وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » أي أوفوا الكيل وأتموه ولا تنقصوا منه شيئاً لغيركم أما إن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن ححكم ولم توفوا الكيل . <٤>

١ - راجع الكشاف ، ٤٤٨/٣ وما بعدها : البحر المحيط ، ٣٤/٦ حاشية الشهاب ، ٣٠/٦ روح المعاني ،

٧١/١٥ ؛ إعراب القرآن وبيانه ، ٤٤١/١٥ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٧/٣ ؛ روح المعاني ، ٧١/١٥ ؛ التحرير والتنوير ، ٩٧/١٥ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ٩٧/١٥ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٧/٣ ؛ نظم الدرر ، ٤١٢/١١ .

وتقييد الكيل بالظرف « إذا » دون ذكر نظيره في آية الأنعام حيث جاء فيها قوله « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » لما في إذا من معنى الشرطية للدلالة على تجدد ما تضمنه الأمر في جميع الأزمنة وللتنبية على عدم التسامح في شيء من نقص الكيل عند كل مباشرة له ، ذلك أن هذه الآية خطاب للمسلمين بخلاف آية الأنعام فإن مضمونها تعريض بالمشركين في سوء شرائعهم لذلك كانت هنا أجدراً للمبالغة في التشريع توخياً للعدل بين الناس في معاملاتهم التجارية في كل زمان . <١>

ولم يقل النظم القرآني « أوفوا الميزان » وإنما اكتفى باستقامة الوزن « زنوا بالقسطاس المستقيم » لأنه عند استقامته لا يتصور فيه الجور والظلم غالباً بخلاف الكيل فإنه كثيراً ما يقع فيه التطفيف مع استقامة الآلة لذلك أمر بإيفاء الكيل واكتفى به عن الأمر بتعديله لأن إيفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضاً في قوله « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » . <٢>

والتعبير باسم الإشارة « ذلك البعيد للدلالة على رفعة شأن المشار إليه وبعد منزلته ، أي إن إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوي خير لكم في الدنيا إذ هو أمانة توجب الرغبة فيه والذكر الجميل بين الناس ، وأحسن عاقبة في الدارين الدنيا والآخرة . <٣>

ومعنى القفو : الاتباع ، يقال : قفا الرجل يقفوه قفواً : مشى خلفه وتبعه ، وقفوت أثره واقتفيته : تبعته قفاه ، وأصله مشتق من القفا وهو ما وراء العنق . <٤>

١ - راجع التحرير والتنوير ، ٩٧/١٥ ، وما بعدها .

٢ - الأنعام : ١٥٢ ؛ انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٧/٣ .

٣ - راجع السابق نفس الموضع .

٤ - انظر المفردات ، ص ٤٠٩ ؛ معظم ألفاظ القرآن الكريم ، ٤١٠/٢ .

وعلى هذا ففي التعبير بقوله « لا تقف » إستعارة فقد استعيرت التقفية للتتبع ثم اشتق من التقفية الفعل « تقف » مسبقاً بلا الناهية على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفي هذه الاستعارة تصوير للمعقول في صورة محسوسة لزيادة الاعتناء بشأنه . وفي التعبير بقوله « ما ليس لك به علم » إيجاز قصر لأن هذه الجملة تدل على كل شيء لا يقع تحت بصرنا وسمعنا وإدراكنا .

وتقديم السمع على البصر لأن الإنسان يسمع أكثر ، أما تقديم السمع والبصر على الفؤاد فلأن كلاً من السمع والبصر روافد للفؤاد ، وتخصيص هاتين الحاستين السمع والبصر بالذكر لأن أكثر التتبع لا يكون إلا بهما ، وتوكيد الخبر لكون مضمونه حقيقة عظيمة .

وفي التعبير بقوله : « إن السمع والبصر والفؤاد » مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد الكل لأن الذنوب يكون سببها هذه الجوارح من السمع والبصر والفؤاد .

وآثر النظم التعبير باسم الإشارة « أولئك » ولم يأت بالضمير بأن يقال « كلها كان عنه مسئولاً » لما في الإشارة من زيادة تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، وما فيه من معنى البعد للإشارة إلى علو منزلتها أي كل عضو من هذه الأعضاء كان عنه مسئولاً .

والتعبير بـ « كان » للدلالة على رسوخ الخبر بأنه استقر في علم الله منذ الأزل أن الإنسان كان مسئولاً .

وفي قوله « مسئولاً » إيجاز بالحذف تقديره : مسئولاً عن التتبع ، والجار والمجرور « عنه » في محل رفع نائب فاعل من اسم المفعول « مسئولاً » قدم عليه للاهتمام به وللحفاظة على الفاصلة القرآنية .

ولا يخفى ما في التعبير بقوله « كل أولئك كان عنه مستولاً » من الجمع بعد التقسيم . ولما كان التكبر يقود الإنسان إلى شر كبير وفساد عظيم نهى الله عنه محذراً منه بقوله « ولا تمش في الأرض مرحاً » والنهي هنا ليس منصباً على المقيد وإنما على القيد « مرحاً » لأن المشي في الأرض ليس منهيّاً عنه وإنما المنهي عنه المشي بتكبر وخيلاء ، وتقييد النهي بهذا القيد « لزيادة التقرير والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق بالمرح . <١>

أما جملة « إنك لن تخرق الأرض ... » فهي تذييل تعليلي لهذا النهي وفيها « تهكم من المختال وإيذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض وتكبر عليها أي لن تخرق بدوسك وشدة وطأتك الأرض ولن تبلغ بتطاولك في مشيك طول الجبال . <٢>

والمقصود من هذا التهكم التشنيع بهذا الفعل فدل ذلك على أن المنهي عنه حرام لأنه فساد في خلق صاحبه وإهانة للناس بتكبره عليهم وإرهابهم بقوته . <٣>
وفي التعبير بقوله « لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » كناية عن الضعف والعجز .

أما جملة « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » فهي تذييل للجملة السابقة باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي .

والتعبير باسم الإشارة « ذلك » للإشارة إلى رفعة شأن الفضائل المدلول عليها بالأوامر والنواهي السابقة .

ووصفها بمطلق الكراهة بقوله « كان سيئه عند ربك مكروهاً » مع أن بعضها من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك ، وإشعار بكون ما عداها مرضياً عنده تعالى . <٤>

١ - تفسير أبي السعود ، ٤٤٩/٣ .

٢ - السابق نفس الموضع .

٣ - انظر التحرير والتنوير ، ١٠٤/١٥ .

٤ - انظر تفسير أبي السعود ، ٤٤٩/٣ .

وتقديم الظرف « عند » على متعلقه « مكروهاً » للاهتمام بالظرف لأنه مضاف إلي الرب جل جلاله لزيادة التشنيع لهذه الحالة أي مكروها فعله من فاعله ، وفيه تعريض بأن فاعله مكروه عند الله تعالى . <١>

وفي التعبير بقوله « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » إجمال بعد تفصيل ، فقد فصل البيان القرآني أولاً هذه النواهي والأوامر ثم أجمل ثانياً بقوله « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً » .

ولم يُعن البلاغيون بهذا الفن البلاغي بل عنوا بمقابله وهو التفصيل بعد الإجمال لكثرة شواهد ، ووضحوا سره البلاغي ، أما هذا الفن فلم يعنوا به ولم يتنبهوا له لقلّة شواهد من المنظوم والمنثور .

وإذا كان سر التفصيل والإجمال هو تشويق النفس لما يرد بعد الإجمال فإذا ورد عليها تلقته بالقبول وتمكن منها فضل تمكن ، فإن سر الإجمال بعد التفصيل حصر ما تفرق من معلومات في عبارة قصيرة .

والوصل بالواو بين هذه الجمل بدءاً من قوله « ولا تجعل يدك ... » إلى قوله « ولا تمش في الأرض مرحاً ... » لما بينها من التوسط بين الكمالين لاتحادها في الإنشائية لفظاً ومعنى .

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المباركة التي عشنا فيها مع نصوص الترغيب والترهيب في القرآن الحكيم دراسة وتأملاً وتحليلاً نستطيع أن نوجز أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي :

١ - تبين من الدراسة أن أسلوب الترغيب في القرآن الكريم يمتاز بالهدوء والرقية والسلاسة أما أسلوب الترهيب فيمتاز بالعنف والغلظة والقوة والحسم السريع .

٢ - تعنى أساليب الترغيب في القرآن باستمالة القلوب واستجاشة النفس الإنسانية من خلال ماركب فيها من غريزتي الخوف والرجاء ، فهذان المنهجان من أفضل طرق التربية والإصلاح والتقويم ، لأن من النفوس ما ينقاد عن طريق الرغبة ، ومنها ما يميل عن طريق الرهبة ، ومنها ما ينفعل بكلتا الطريقتين مع التساوى أو التفاوت ، والقرآن بهذا الصنع قد شاع فيه ضروب وألوان من الإعجاز النفسي ، إذ لم يعرف علم النفس الحديث هذه الحقائق إلا بعد نزول القرآن الكريم بأكثر من اثني عشر قرناً وصدق الله العظيم « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . <١>

٣ - يحرص القرآن الكريم كثيراً على الجمع بين الترغيب والترهيب فإذا بدأ مرغباً انتهى مرهباً وإذا بدأ مرهباً انتهى مرغباً ، وقد يجمع بين الترغيب والترهيب في آية واحدة وإن قصرت .

٤ - اتخذ القرآن الكريم وسائل عديدة للترغيب والترهيب كالخبر والإنشاء والقصر والتشبيه والتمثيل والحوار وغيرها .

٥ - تبين من الدراسة أن القرآن الكريم وهو يرغب ويرهب يخاطب جميع الحواس المدركة في الإنسان ، فعن عن طريق اللون خاطب حاسة البصر كما في قوله

تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ ^{<١>} وقوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ ^{<٢>} وقوله تعالى : ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً ﴾ ^{<٣>} وعن طريق الصوت خاطب حاسة السمع ﴿ فمن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء ﴾ ^{<٤>} وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾ ^{<٥>} وعن طريق اللمس كما في قوله تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ ^{<٦>} وخاطب حاسة الذوق كما في قوله تعالى : ﴿ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ... ﴾ ^{<٧>} وقوله تعالى ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ... ﴾ ^{<٨>} وقوله تعالى : ﴿ نذ إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ^{<٩>} وخاطب حاسة الشم عن طريق الرائحة كما في قوله تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ... ﴾ ^{<١٠>} وقوله تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ ^{<١١>} .

-
- ١ - آل عمران : ١٦ .
 - ٢ - طه : ١٠٢ .
 - ٣ - الكهف : ٣١ .
 - ٤ - الحج : ٣١ .
 - ٥ - الطور : ١٣ .
 - ٦ - الحج : ٢٣ .
 - ٧ - إبراهيم : ١٦ - ١٧ .
 - ٨ - محمد : ١٥ .
 - ٩ - الدخان : ٤٩ .
 - ١٠ - الحجرات : ١٢ .
 - ١١ - الواقعة : ٨٨ - ٨٩ .

٦ - في التشبيه التمثيلي تدخل أداة التشبيه على أهم جزء في الصورة التشبيهية بحيث لو حذف هذا العنصر لأنهارت الصورة تماماً ، حتى ليكاد يكون هو المشبه به .

٧ - تبين من الدراسة أن الخبر في القرآن في بعض المواضع لا يؤكد مراعاة لحال المخاطب أو المتكلم وإنما لكون الخبر حقيقة عظيمة ومن حق الحقائق العظيمة أن يعبر عنها بأسلوب عظيم مثلها .

٨ - تبين من الدراسة أن القرآن الكريم يتجاوز حدود القواعد التي قررها البلاغيون في باب الوصل والفصل حيث نجده في بعض المواضع يأتي بحرف العطف بين الجملتين اللتين بينهما كمال الانقطاع وكان مقتضى الظاهر أن يكون بينهما الفصل لا الوصل ، كما أنه لا يأتي بحرف العطف بين الجملتين اللتين بينهما التوسط بين الكمالين وهذا كما هو مقرر لدى البلاغيين أحد المواضع التي يجب فيها الوصل بين الجملتين لا الفصل .

٩ - بين البحث من خلال عقد الموازنات الأسلوبية بين الآيات المتشابهات عن أسرار ولطائف بلاغية تكشف جانباً مشرقاً وصفحة رائعة من بلاغة النظم القرآني المعجز .

١٠ - أن المفسرين هم أكثر الباحثين عناية بالقرآن الكريم وبأساليبه البليغة واستجلاء معانيه جليلها ودقيقها لأن تجربتهم ألصق بالنص القرآني ودائرتهم أوسع لأنهم يقفون أمام كل كلمة في كتاب الله فيدرسون النص في إطار من التوحد منظوراً فيه إلى ما قبله وما بعده ، وقل أن تتوفر هذه الميزة لغيرهم .

١١ - عني البحث بالجانب التحليلي البلاغي وطبقه على جميع نصوص الترغيب والترهيب التي قامت عليها هذه الدراسة ، وهذا الجانب من أخطر الجوانب في المعالجات البلاغية .

١٢ - توخينا الإيجاز - قدر الطاقة - حيث اخترنا نماذج من آيات الترغيب والترهيب في القرآن التزاماً بالمنهج العلمي حتى لا يتضخم البحث .

وكل ما قدمته من الفهم البلاغي لنصوص الترغيب والترهيب يدخل في باب الاجتهاد المصحوب بحسن النية ، ومن البديه أن كتاب الله بحر عميق الغور مترامي الشطآن ، ولا يملك باحث مهما أوتي من علم أن يقول فيه الكلمة الأخيرة . وحسب هذا البحث أن يكون بنائاً تومياً من بعيد إلى تلك العظمة في آفاقها ، وإن البنان على الإشارة لأقدر من الباع على الإحاطة ، وخير من عجز المحيط طاقة المشير .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنه واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ . <١>

وصلى الله وسلم وبارك على البشير النذير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

أولاً : المصادر القديمة المطبوعة :

٢ - الإتقان فى علوم القرآن

للمحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني القاهرة

الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

٣ - أساس البلاغة

لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري

تحقيق : عبدالرحيم محمود

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٤ - أسباب النزول

لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي

عالم الكتب بيروت . (بدون تاريخ)

٥ - الاستغناء في أحكام الاستثناء

تأليف شهاب الدين القرافي

تحقيق : الدكتور طه محسن

مطبعة الإرشاد ببغداد الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

من مطبوعات وزارة الأوقاف والشئون الدينية بالجمهورية العراقية

٦ - أسرار البلاغة

للإمام عبدالقاهر الجرجاني

قرأه وعلق عليه : أبوفهر محمود شاكر

الناشر دار المدني بجدة

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

٧ - إعجاز القرآن

لأبي بكر الباقلاني

تحقيق : السيد أحمد صقر

دار المعارف بمصر

الطبعة الثالثة ١٩٧١م

٨ - إملاء ما من به الرحمن

لأبي البقاء العكبري

طبع بهامش الفتوحات الإلهية للجمل

بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

٩ - الأمالي النحوية « أمالي القرآن الكريم »

لابن الحاجب

تحقيق : هادي حسن حمودي

مكتبة النهضة العربية ، وعالم الكتب بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١٠- إنباه الرواة على أنباه النحاة

للووزير القفطي

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الفكر العربي بالقاهرة ، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

١١- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال

لأحمد بن المنير الإسكندري

دار الفكر بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

مطبوع بهامش الكشاف .

١٢- الإيضاح

للخطيب القزويني

شرح وتعليق وتنقيح : د. محمد عبدالمنعم خفاجي

منشورات دار الكتاب اللبناني

الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

١٣- البرهان في توجيه متشابه القرآن

محمود بن حمزه الكرمانى

تحقيق ودراسة وتعليق : عبدالقادر أحمد عطا

دار الكتب العلمية بيروت

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

١٤- البرهان في علوم القرآن

للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

الناشر : دار المعرفة بيروت ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع بمكة (بدون تاريخ)

١٥- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز

تأليف : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي

تحقيق : محمد علي النجار

المكتبة العلمية بيروت (بدون تاريخ)

١٦- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة

للحافظ جلال الدين السيوطي

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

دار الفكر بيروت

الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

١٧- البيان في غريب إعراب القرآن

لأبي البركات بن الأنباري

تحقيق : د. طه عبدالحميد طه ومراجعة مصطفى السقا

طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

١٨- تأويل مشكل القرآن

لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة

تحقيق : السيد أحمد صقر

دار التراث القاهرة

الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

- ١٩- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان
تألف شرف الدين الطيبي . تحقيق : د. هادي مطر الهلالي
عالم الكتب ، والنهضة العربية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م
- ٢٠- تجريد العلامة البناني على مختصر السعد
تأليف مصطفى بن محمد البناني
طبع بمطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، القاهرة
الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ
- ٢١- التحبير في علم التفسير
للحافظ جلال الدين السيوطي
تحقيق : د. فتحي عبدالقادر فريد
دار المنار للنشر والتوزيع بالقاهرة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
- ٢٢- تحرير التحبير
لابن أبي الإصبع المصري
تقديم وتحقيق : د. حفني محمد شرف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٨٣هـ
- ٢٣- تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
للأبي السعود بن محمد العمادي الحنفي
تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا
مكتبة الرياض الحديثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م
- ٢٤- تفسير البحر المحيط
للأبي حيان الأندلسي الغرناطي
دار الفكر ، بيروت
الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٢٥- تفسير الطبري : جامع البيان في تفسير القرآن

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

٢٦- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان

تأليف : نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري

طبع بهامش تفسير الطبري ، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

٢٧- تفسير الفخر الرازي : المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

للإمام فخر الدين بن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري

دار الفكر بيروت

الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٢٨- التفسير القيم لابن القيم

تأليف شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية

جمعه : محمد أويس الندوي

حققه : محمد حامد الفقي

٢٩- تفسير النهر الماد من البحر المحيط

لأبي حيان الأندلسي

طبع بهامش البحر المحيط

٣٠- تقرير الشمس الإنبائي على مختصر سعد الدين التفتازاني

للعلامة لأبي محمد محمد الإنبائي

طبع بمطبعة السعادة بمصر ١٣٣١هـ

٣١- الجمان في تشبيهات القرآن

لابن ناquia البغدادي

تحقيق : د. مصطفى الصاوي الجويني

الناشر : منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٧م

٣٢- الحجة في علل القراءات السبع

لأبي على الفارسي

تحقيق : علي النجدي ناصف ، والدكتور عبداللطيم النجار ، والدكتور

عبدالفتاح شلبي

طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة

الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٣٣- حاشية الدسوقي على مختصر السعد

محمد بن عرفة الدسوقي

طبع ضمن شروح التلخيص طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

٣٤- حاشية زاده على تفسير البيضاوي

للشيخ محي الدين زاده

طبع : المكتبة الإسلامية ديار بكر ، تركيا ١٢٨٣هـ

٣٥- حاشية السيد الشريف على الكشاف

لسيد الشريف علي محمد بن علي الجرجاني

طبع بهامش الكشاف

٣٦- حاشية الشهاب المسماة : عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير

البيضاوي

للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي

دار صادر . بيروت

٣٧- حاشية الصاوي على الجلالين

للعلامة أحمد بن محمد الصاوي المالكي الخلوتي

تصحیح فضيلة الشيخ على محمد الضباع شيخ القراء والمقارئ بالديار
المصرية

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٦٠هـ -
١٩٤١م

٣٨- خزنة الأدب وغاية الأدب

لابن حجة الحموي

شرح : عصام شعيتو

منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٧م

٣٩- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز

للخطيب الإسكافي

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت

الطبعة الثانية ١٩٧٧م

٤٠- دلائل الإعجاز

للإمام عبدالقاهر الجرجاني

قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر

مكتبة الخانجي القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٨٤م

٤١- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني

شهاب الدين محمود الأوسي

إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث الإسلامي بيروت (بدون تاريخ)

٤٢- ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا

شهاب الدين الخفاجي

تحقيق : عبدالفتاح محمد الحلو

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي

الطبعة الأولى ١٢٨٦هـ - ١٩٦٧م

٤٣- سنن ابن ماجه لمحمد بن يزيد

تحقيق : محمد مصطفى الأعظمي

شركة الطباعة العربية السعودية الرياض ، الطبعة الأولى

٤٤- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي

تحقيق : عبدالرحمن محمد عثمان

دار الفكر بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

٤٥- سنن النسائي لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب

دار الفكر بيروت نسخة مصورة عن طبعة المطبعة المصرية بالأزهر . ويطلب

من المكتبة التجارية بمكة المكرمة

٤٦- شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع

تأليف : صفي الدين الحلبي

تحقيق : الدكتور نسيب نشاوي

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٤٧- شروح التلخيص

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

٤٨- الصاحبى

لأبى الحسين أحمد بن فارس

تحقيق : السيد أحمد صقر

مطبعة عيسى البابى الحلبي القاهرة

الطبعة الأولى ١٩٧٧م

٤٩- الصحاح ، تاج اللغة وصحاح العربية

تأليف : إسماعيل بن حماد الجوهري

تحقيق : أحمد عبدالغفور عطار

الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٥٠- طبقات اللغويين والنحويين

لأبى محمد بن حسن الزبيدي

تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم

دار المعارف بمصر

الطبعة الثانية ١٩٨٤م

٥١- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز

للإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني

دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

٥٢- عروس الأفراح

للعلامة بهاء الدين السبكي

طبع ضمن شروح التلخيص ، طبع عيسى البابى الحلبي

٥٣- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده

لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني

تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد

دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢م

٥٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني

دار المعرفة بيروت (بدون تاريخ)

٥٥- الفتوحات الإلهية في توضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية

تأليف : سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر (بدون تاريخ)

٥٦- كتاب الإقناع في القراءات السبع

لأبي جعفر أحمد بن علي بن خلف الأنصاري المعروف بابن الباذش

تحقيق : الدكتور عبدالمجيد قطامش

منشورات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى

طبع دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ

٥٧- كتاب السبعة في القراءات

لابن مجاهد

تحقيق : الدكتور شوقي ضيف

دار المعارف ، القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٨٠م

٥٨- كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس

لإسماعيل بن محمد العجلوني

طبعة دار التراث ومكتبة التراث الإسلامي بالقاهرة

٥٩- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل

لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري

دار الفكر ، بيروت

الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

٦٠- لباب النقول في أسباب النزول

تأليف : جلال الدين السيوطي

دار إحياء العلوم ، بيروت

الطبعة الرابعة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٦١- لسان العرب

لابن منظور الأنصاري

طبعة دار المعارف (بدون تاريخ)

٦٢- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

تأليف : ضياء الدين بن الأثير

قدمه وعلق عليه : د. أحمد الحوفي ، ود. بدوي طبانة

دار نهضة مصر القاهرة . الطبعة الثانية (بدون تاريخ)

٦٣- مجاز القرآن

لأبي عبيدة معمر بن المثنى

عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد فؤاد سزكين

مؤسسة الرسالة ، بيروت

الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٦٤- المحتسب في تبين شواذ القراءات والإيضاح عنها

لأبي الفتح عثمان بن جني

تحقيق : علي النجدي ناصف ، ود. عبدالفتاح شلبي

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الجزء الأول ١٣٨٦هـ ، والجزء الثاني ١٣٨٩هـ

٦٥- مختصر السعد على تلخيص المفتاح

تأليف : سعد الدين التفتازاني

طبع ضمن شروح التلخيص

٦٦- مسند أحمد بن حنبل

تحقيق : أحمد محمد شاكر . طبعة دار المعارف بمصر ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م

٦٧- معاني القرآن الكريم

لأبي جعفر النحاس

تحقيق : محمد علي الصابوني

مطبوعات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى

شركة مكة للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

٦٨- معاني القرآن

لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء

تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النجار

عالم الكتب بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠م

٦٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن

تأليف : جلال الدين السيوطي

تحقيق : علي محمد البجاوي

دار الفكر العربي ، القاهرة (بدون تاريخ)

٧٠- معجم مقاييس اللغة

لأبي الحسين أحمد بن فارس

تحقيق : عبدالسلام محمد هارون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

٧١- مفتاح العلوم

لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي

تحقيق : نعيم زرزور

دار الكتب العلمية بيروت ، توزيع دار الباز بمكة

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٧٢- المفردات في غريب القرآن

للراغب الأصبهاني

تحقيق : محمد سيد الكيلاني

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م

٧٣- ملك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل

في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل

للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي

تحقيق : سعيد الفلاح

دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٧٤- مواهب الفتاح

لابن يعقوب المغربي

طبع ضمن شروح التلخيص

٧٥- نتائج الفكر في النحو

لأبي القاسم السهيلي

تحقيق : د. محمد إبراهيم البنا

دار الاعتصام ، مصر

الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

٧٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

للإمام المفسر برهان الدين البقاعي

دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف

العثمانية بالهند

الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

٧٧- النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني

تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ود. محمد زغلول سلام

دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٩١م

٧٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان

تحقيق : د. إحسان عباس

دار صادر بيروت ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

ثانياً : الرسائل العلمية :

٧٩- أسرار تنوع تشبيهات القرآن الكريم

إعداد : إبراهيم صلاح السيد الهدهد

رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٨٠- أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط

إعداد : محمود موسى حمدان

رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٨١- أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية

إعداد : يوسف عبدالله الأنصاري

رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية جامعة أم القرى

٨٢- البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا

إعداد : لطفي السيد صالح قنديل

رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية جامعة الأزهر

٨٣- مناهج الدعوة في القرآن الكريم دراسة نظمية بلاغية

إعداد الطالبة : نادية إبراهيم محمد علي بخاري

رسالة ماجستير - كلية التربية للبنات بمكة المكرمة

٨٤- وجوه الخطاب في القرآن الكريم ومواقعها البلاغية

إعداد : محمد علي أبوزيد عبدالصمد

رسالة دكتوراه - كلية اللغة العربية جامعة الأزهر

ثالثاً : المطبوعات الحديثة :

٨٥- أساليب الاستفهام في القرآن الكريم

عبدالعليم السيد فوده

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، جمهورية مصر .

٨٦- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن

د. صباح عبيد دراز

مطبعة الأمانة بمصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

٨٧- أساليب بلاغية

د. أحمد مطلوب وكالة المطبوعات بالكويت ، الطبعة الأولى ١٩٨٠م

٨٨- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا

د. عبدالغني محمد سعيد بركة

مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٨٩- أسلوب السخرية في القرآن الكريم

د. عبدالحليم حفني

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م

٩٠- أصول البيان العربي ، رؤية بلاغية معاصرة

د. محمد حسين علي الصغير

طبع في دار الشؤون الثقافية العامة - العراق ١٩٨٦م

٩١- الإعجاز البلاغي

د. محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٩٢- الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل نافع ابن الأزرق

د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطيء

دار المعارف . الطبعة الثانية ١٩٨٧م

٩٣- إعراب القرآن وبيانه

تأليف : محي الدين الدرويش

دار الإرشاد بحمص ، ودار الرشيد بدمشق

الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٩٤- الأعلام

خير الدين الزركلي

دار العلم للملايين بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٨٠م

٩٥- بغية الإيضاح

عبدالمتعال الصعيدي

مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة (بدون تاريخ)

٩٦- البلاغة : تطور وتاريخ

د. شوقي ضيف

دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م

٩٧- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية

د. محمد أبو موسى

دار الفكر العربي . الطبعة الأولى (بدون تاريخ) ، الطبعة الثانية طبع مكتبة

وهبة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

٩٨- تاريخ الأدب العربي

كارل بركلمان

نقله الى العربية د. عبدالحليم النجار الجزء ١ ، ٢ ، ٣ ، ود. السيد يعقوب بكر
ود. رمضان عبدالنواب ، الجزء ٤ ، ٥ ، ٦

٩٩- التصوير البياني

د. محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

١٠٠- التصوير الفني في القرآن

سيد قطب

دار الشروق ، الطبعة الشرعية الثامنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

١٠١- التعبير البياني : رؤية بلاغية نقدية

د. شفيق السيد

دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

١٠٢- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم ، الهمزة المجردة مع الفعل
الماضي

د. عبدالعظيم إبراهيم المطعني

المكتبة التوفيقية القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

١٠٣- تفسير التحرير والتنوير

محمد الطاهر بن عاشور

الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م

١٠٤- خصائص التراكيب

د. محمد أبو موسى

مكتبة وهبة القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

١٠٥- خصائص التشبيه القرآني في سورة البقرة

د. إبراهيم علي حسن داود

مطبعة الأمانة القاهرة ، الطبعة الأولى ١٠٤٦هـ - ١٩٨٦م

١٠٦- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية

د. عبدالعظيم إبراهيم المطعني

مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

١٠٧- دراسة في البلاغة والشعر

د. محمد أبو موسى

مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م

١٠٨- دلالات التراكيب

د. محمد أبو موسى

١٠٩- الشيخ عبدالرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية

جمع : أبوبكر عبدالرزاق

المكتب الثقافي للنشر والتوزيع . القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م

١١٠- في ظلال القرآن

سيد قطب

دار العلم للطباعة والنشر جده ، ودار الشروق للطباعة والنشر القاهرة

١١١- قراءة في الأدب القديم

د. محمد أبو موسى

دار الفكر العربي القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م

١١٢- المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع

د. عبدالعظيم إبراهيم المطعنى

مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م

١١٣- المجاز اللغوي : دراسة بلاغية تحليلية

د. عبده أحمد هليل عليان

مؤسسة الوفا للطباعة . الجيزة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١١٤- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني

د. فتحى أحمد عامر

منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٧م

١١٥- معجم ألفاظ القرآن الكريم ، مجمع اللغة العربية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

١١٦- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها

د. أحمد مطلوب

مطبوعات المجمع العلمي العراقي . الطبعة الأولى الجزء الأول ١٤٠٣هـ

والثاني ١٤٠٦هـ والثالث ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

١١٧- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

محمد فؤاد عبدالباقي

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية طبع المكتبة الإسلامية استانبول

(بدون تاريخ)

١١٨- معجم المؤلفين : تراجم مصنفى الكتب العربية

عمر رضا كحالة

دار إحياء التراث العربى ، بيروت (بدون تاريخ)

١١٩- مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة

على النجدي ناصف

دار المعارف . القاهرة ١٩٨١م

١٢٠- مع النظم القرآنى فى سورة النور

د. الشحات محمد عبدالرحمن أبوستيت

مطبعة الأمانة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

١٢١- من أسرار التركيب البلاغى

د. السيد عبدالفتاح حجاب

المكتبة التوفيقية . القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

١٢٢- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم

د. محمد الأمين الخضرى

مكتبة وهبة . الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

١٢٣- من بلاغة القرآن

د. أحمد أحمد بدوى

دار نهضة مصر : القاهرة ١٩٧٧م

١٢٤- من بلاغة النظم العربى

د. عبدالعزيز عبدالمعطى عرفة

عالم الكتب بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

١٢٥- نظرات في البيان

د. محمد عبدالرحمن الكردي

مطبعة السعادة بمصر . الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

١٢٦- نظرات في البلاغة والإسناد

د. محمد عبدالرحمن الكردي

شركة دار الصفا للطباعة . القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

١٢٧- اليوم الآخر في ظلال القرآن

جمع وإعداد أحمد فائز

مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثامنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
	الفصل الأول : الترغيب في الإيمان والترهيب من
١٤١ - ٥	الكفر
	المبحث الأول : الترغيب في الإيمان في القرآن الحكيم
٥	وسماته البلاغية
	المبحث الثاني : الترهيب من الكفر في القرآن الحكيم
٦٤	وسماته البلاغية
	المبحث الثالث : بين الترغيب والترهيب في القرآن
١١٨	الحكيم
	الفصل الثاني : الترغيب في الاعتصام والترهيب من
١٧٧ - ١٤٢	التفرق واتباع السبل
	المبحث الأول : الترغيب في الاعتصام في القرآن
١٤٢	الحكيم وسماته البلاغية
	المبحث الثاني : الترهيب من التفرق واتباع السبل في
١٦٢	القرآن الحكيم وسماته البلاغية
	الفصل الثالث : الترغيب في الجهاد والترهيب من
٢٣٣ - ١٧٨	التثاقل عنه
	المبحث الأول : الترغيب في الجهاد في القرآن الحكيم
١٧٨	وسماته البلاغية
	المبحث الثاني : الترهيب من التثاقل عن الجهاد في
	سبيل الله في القرآن الحكيم وسماته
٢١٧	البلاغية

تابع فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
	الفصل الرابع : الترغيب في الانفاق والترهيب من
٢٣٤ - ٢٨٧	البخل
	المبحث الأول : الترغيب في الانفاق في القرآن الحكيم
٢٣٤	وسماته البلاغية
	المبحث الثاني : الترهيب من البخل في القرآن الحكيم
٢٦٩	وسماته البلاغية
	الفصل الخامس : الترغيب في الآخرة والترهيب من
٢٨٨ - ٣٣١	الركون إلى الدنيا
	المبحث الأول : الترغيب في الآخرة في القرآن الحكيم
٢٨٨	وسماته البلاغية
	المبحث الثاني : الترهيب من الركون إلى الدنيا والافتتان
	بها في القرآن الحكيم وسماته
٣٠٩	البلاغية
	الفصل السادس : الترغيب في الطاعات والترهيب
٣٣٢ - ٣٦٠	من المعاصي
	المبحث الأول : الترغيب في الطاعات في القرآن الحكيم
٣٣٢	وسماته البلاغية
	المبحث الثاني : الترهيب من المعاصي في القرآن الحكيم
٣٤٦	وسماته البلاغية
٣٦١	الخاتمة
٣٦٤	ثبت المصادر والمراجع
٣٨٨	فهرس الموضوعات